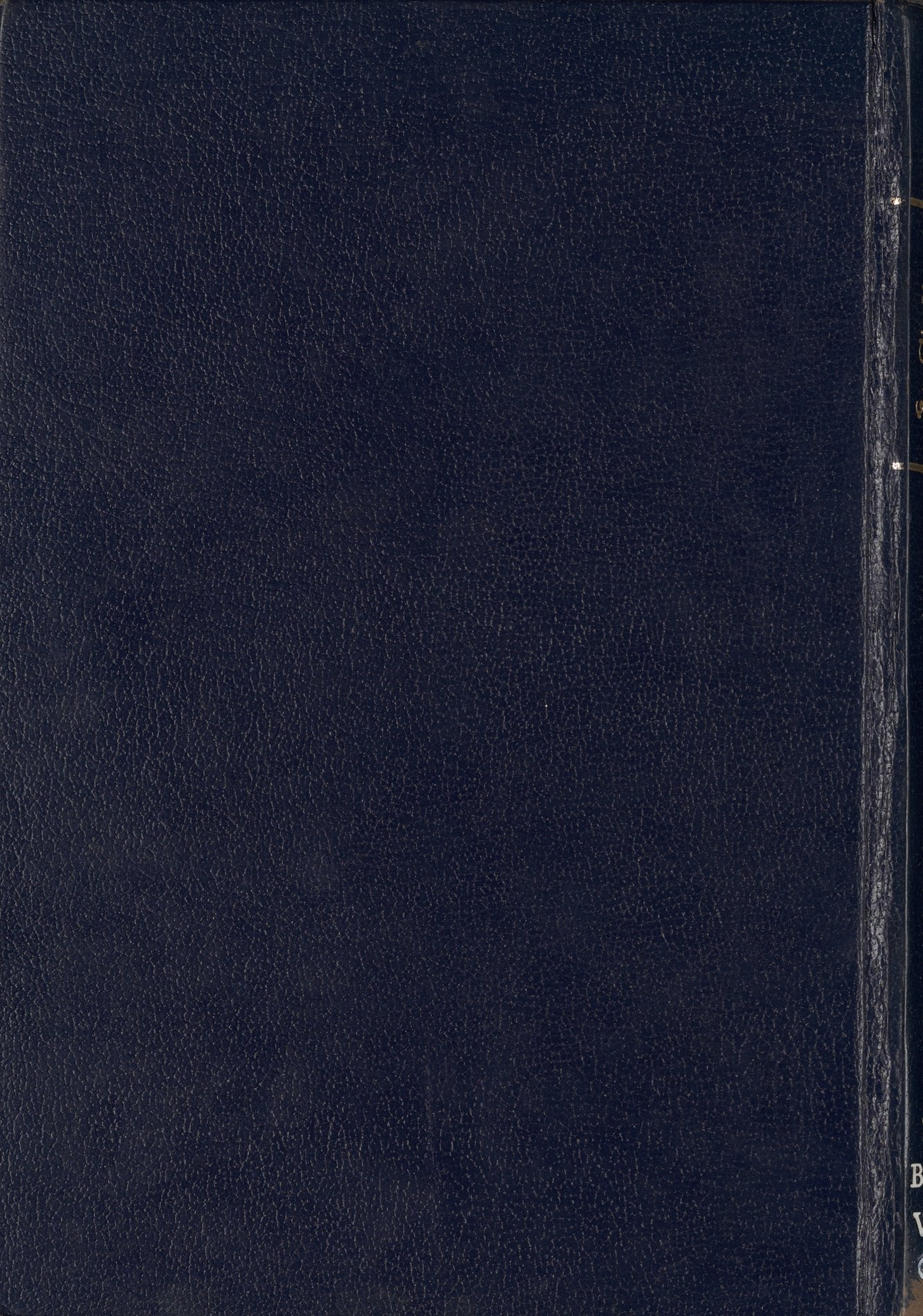
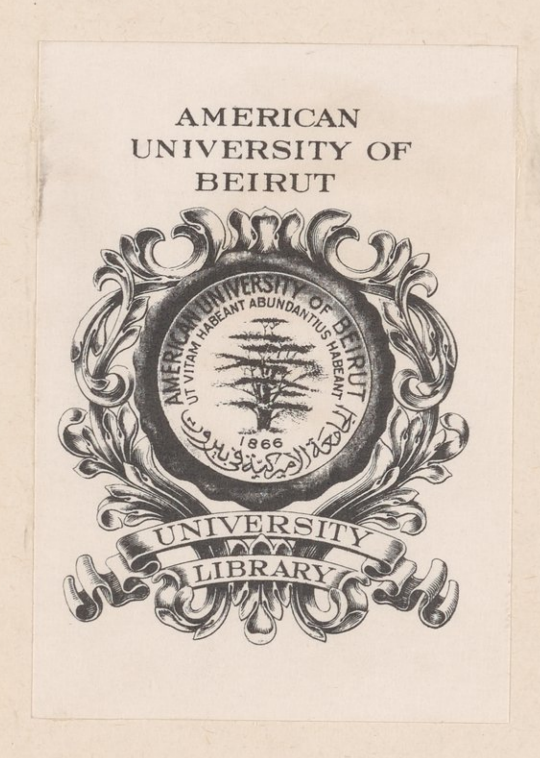



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت
UNIVERSITY
LIBRARY



الكتاب الثاني

فلسفة التاريخ العثماني

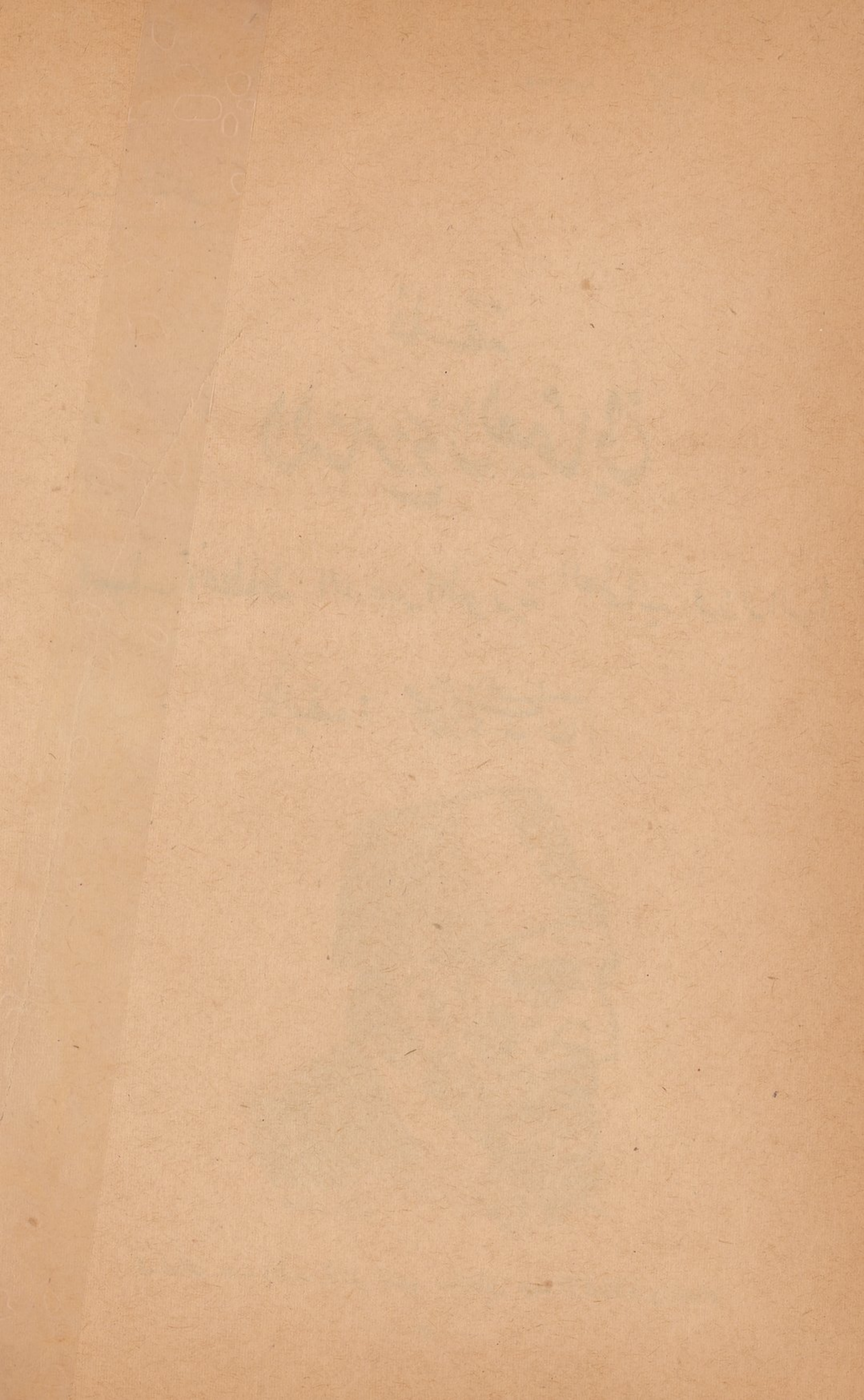
اسباب انحطاط الامبراطورية العثمانيه وزوالها

تأليف: محمد جميل بيهم



السلطان عبد الحميد الثاني اشهر سلاطين عهد الانحطاط وادهاهم

صدر سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م.



كتاب سياسي اجتماعي يتناول تاريخ العالم السياسي ، خصوصاً ما كان منه يتصل بالعرب والمسلمين ، وذلك خلال استعراض الاسباب التي ادت الى انحطاط الامبراطورية العثمانية ، وافضت الى زوالها . وهو اذ يلم بالتطورات الدولية اثناء التمدن الحديث يأتي على الكفاح المستمر بين الشرق والغرب بشتى مظاهره ، وذلك منذ الحروب الصليبية ، حتى قيام الجمهورية التركية .

مقدمة الكتاب

التى السلطان ياوز سليم الثاني (١٥١٢ = ١٥٢٠ م) نظره على خريطة الارض ،في يوم من الايام، فاستصغرها وقال: **«وهل تتسع هذه الدنيا لاكثر من ملك واحد ؟ »**

ثم التفت الى ناحية الغرب فرأى تخوم دولته تنبسط انبساطاً شاسعاً في اوروبا الشرقية ، فتدخل ضمنها ممالك كثيرة كانت تعتز بنفسها في الامس ، وصارت اليوم في عداد رعاياها .

فاليونان والالبان وبلغاريا والصرب والبوسنه والهرسك والافلاق اين هي ؟

ـ انها اصبحت كالقرم ، وبيزنطة جزءاً من الامبراطورية العثمانية مذربض الاسد العثماني في قسطنطينية عند ملتقى آسيا واوروبا ،وعلى شاطىء البوسفور والدردنيل .

ثم حول السلطان سليم وجهه شطر الشرق فبدت عليه علائم الغضب ، ذلك أنه ما ان وقع نظره على ايران القوية حتى مرت بخاطره ذكريات مؤلمة : فقد ذكر صمود هذه الدولة في وجه مطامع آل عثمان بالشرق ، وذكر تحفزها للانقضاض على السلطنة اسوة بتيمورلنك ،فضلاً عن مؤامراتها ضد العثمانيين مع مماليك مصر وغيرهم .

« **اذن فلنبدأ بايران** » قال في نفسه والشرر يتطاير من عينيه ؛ « **اجل يجب ان يزول هذا الحاجز ، ويجب ان يتم اخذ الثار** » فاذابه يدخل عاصمتها تبريز منتصراً ، ويستولي على ديار بكر ؛ ثم يلحق بها مصر وبلاد الشام انتقاماً من اصحابها المماليك .

واذا بالحجاز وتهامة تدينان له ، وتخطبان باسمه ؛ واذا بمكة المكرمة تهديه الاثار النبوية والصحابية ، وتسلم له مفاتيح الحرمين الشريفين .

كان سليم يلقب « **بسلطان** » و « **خان** » اسوة بآبائه ، فاستحق بانتصاراته لقب « **ياوز** » ، أي القاطع الماضي ، واستحق لقب « **شاه** » من جراء تدويخه عاصمة فارس . ثم خطب له باسم « **خادم الحرمين الشريفين** » مذخضعت له الحجاز . فماذا يحول ،بعد ذلك، بينه وبين لقب

« **خليفة المسلمين** » وحامي حمى الدولة والدين : فيجمع بذلك بين « **سلطان البرين وخاقان البحرين** » وبين السلطة الروحية على كل المسلمين ؟

لم يكن من اليسير بسط سلطانه على العالم كله ، كما يشتهي ويريد ، الا ان الخلافة كانت تؤمن له شطراً من هذه الامنية الصعبة.

اليس من شأنها ان تجعل سيادته تمتد في اقطار العالم وامصاره الآهلة بالمسلمين فتخترق معاقل البلاد التي لا تزال خارج حكمه ؟

بلى ! وهذا امر هين لم يكلفه سوى نقل الخليفة العباسي من مصر الى استامبول ، وانتزاع الخلافة منه ، ومن العرب الذين اصبحوا من رعاياه . ولعله كان يريدها خلافة ذات وجه عربي حينما فكر باتخاذ لغة القرآن لغة لدولته الرسمية . خصوصاً وانه كان يحسن اللغة العربية وآدابها ، ويقرض الشعر فيها[1]. ولعل ولده السلطان سليمان الفاتح (١٥٢٠=١٥٦٦م) ورث ، مع العرش ، مطامع ابيه في صدد فتح العالم . ولكن انى له بلوغ هذه الامنية بسهولة ، وقد كان يربض الى جانبه امبراطور آخر عظيم يزاحمه على هذا الهدف ؟ امبراطور اتسع ملكه حتى شمل المانيا والنمسا وايطاليا وهولنده واسبانية مع مستعمراتها الفياضة ، واستأثر بسيادة البحر ايضاً بسيطرته على ثغور برشلونـــه ، ونابولي وميوركا ، وصقلية ، واوران ، وبسط سيطرته على جنوا وفلورنسة ، فضلا عن صداقته للبندقية ، التي اهدت اليه جزيرتي كورفو واكريد عربوناً على الولاء. واعني به « **شارلكان** » الذي كانت اوروبا تنظر اليه ، على رواية المؤرخ الفرنسي لافاليه ، على انه منقذ المسيحيين ومرعب الكافرين [2]

ومن ذا الذي بقي تحت قبة السماء تراوده نفسه في ان يرفع الرأس عالياً تجاه هذا الامبراطور ، وقد رأى العالم ، بام عينه ، مصير ملك فرنسا العظيم حينما جرب حظه ؟

الم يقع فرنسوا الاول في قبضة شارلكان في معركة بافي بايطاليا (١٥٢٦ م) ، وترك بلاده فرنسا عرضة للفتح حتى بلغت جيوش الامبراطور ثغر مرسيلية ؟

ولكن السلطان سليمان لم يفقد ، مع ذلك ، مزية الاعتداد بالنفس ؛ وما ان استنجد به ملك فرنسا لانقاذه من الاسر وانقاذ بلاده من الاحتـــلال حتى خف « **السيد الاعظم : سيد**

---

١ — المؤلف . اوليات سلاطين تركيا صفحة ١٧ و١٨

2 - Lavallée . Histoire de la Turquie T. I. P. 325

العصر »[١] لتلبيته، معرضاً عن شارلكان الذي جرب ان يغريه بعقد معاهدة صداقة قصد القضاء المبرم على فرنسا ، ومتناسياً دعوة ملك فرنسا المشار اليه في مؤتمر كامبري ، الذي عقد في الامس القريب ، واقتراحه وقتئذ من اجل تحالف اوروبا ضد تركيا .

وكانت حروباً هائلة في البر والبحر نشبت بين سليمان وشارلكان انتهت بفوز العثمانيين فوزاً باهراً ألحق الخزي واليأس بالامبراطور حتى اختار التخلي عن تاج اوروبا ، الذي كان يمني النفس به ، والاعتزال سنه ١٣٥٥م في ناحية ما على مقربة من دير القديس العادل (Saint Juste)[٢]

وقد خلا الجو ، من بعد . للسلطان، فاستأثر بالسيادة على البر والبحر ، وهو يحكم امبراطورية تترامى تخومها من ضفاف نهر الدانوب شمالاً ، الى منابع النيل والمحيط الهندي جنوباً ؛ ومن سلسلة جبال القفقاس في الشرق الى جبال اطلس في الغرب ، امبراطورية تقدر مساحتها بـ ٤٠٠ الف ميل مربع[٣] ، كانت تدخل فيها كل مدينة شهيرة في العالم القديم باستثناء روما . نذكر منها اثينة ، وكورنثية ، وسبارطة ، وثيباس ، وقسطنطينية ، وانطاكية ، وسلوقية ، واستفان ، وبابل ، ونينوى ، وبغداد ، واورشليم ، ودمشق ، ومكة ، والمدينة ، والاسكندرية ، والقاهرة ، وممفيس ، وطيبة ، وقرطاجنة ، فضلاً عن ثغور فينيقية[٤] .

ولكن « **كل شيء يصل الى حده ينقلب الى ضده** » فهوت تلك السلطنة بعد من على بمثل السرعة التي ارتفعت بها ، والتقى بدء انحدارها بمنتهى ارتقائها في عهد السلطان سليمان المشار اليه . حتى اذا كان القرن التاسع عشر بلغ ضعفها حداً اباح للقيصر نقولا الاول ان يقول :

« **يوجد رأيان بين وزرائي بشان تركيا : فبعضهم يعلن انها بلغت مرحلة الاحتضار ، وبعضهم يعتقد انها لقيت حتفها ، وعلى كل حال فما من شيء يحول دون مماتها العاجل** »[٥] .

---

١ — بهذا لقب ملك فرنسا السلطان سليمان في رسالته اليه . بينما ان السلطان لقبه في الجواب على الرسالة بفرنسيس بك ملك ايالة فرنسا . وقد اوردنا في كتابنا الاول « فلسفة التاريخ العثماني » نص الرسالتين . ولا تزالان في مكتبة باريس الكبرى ؛ كما فصلنا هناك هذا الموضوع تفصيلا .

2 - Dic. P. Larousse P. 979

٣ — محمد شكري . اسفار بحرية عثمانية الجزء ٧ الصفحة ٩٣ ؛

٤ — جريدة الورلد الاميركية تعريب جريدة الهدى « نيورك » العدد ٤ السنة ١ الصفحة ٦

5 - René Pinon. l'Europe et l'empire Ottomane P. 10

غير ان التوازن السياسي القائم (Statuquo) خيب أمل روسيا وقيصرها ، ومد في اجل تركيا مدة جيل آخر ، حتى اذا قضي عليها القضاء المبرم داخلياً بُعث قومها بعثاً جديداً استقر على اساس الجمهورية ،وعلى سياسة التقرب من الغرب .

على ان الامبراطورية العثمانية وان انقرضت الا انها خلفت في التاريخ حسنات وسيئات . فمن حسناتها بالنسبة للمسلمين انها تناولت راية الاسلام من يد « **السلجوقيين** » بعد ان تفرق شملهم وانطفأت شعلتهم ، ورفعتها عالياً خفاقة فوق اوروبا الشرقية ، وسارت بها منتصرة ، في بعض الاحيان ، الى اواسط اوروبا .

ومن سيئات هذه الامبراطورية بالنسبة لقومنا العرب انها استثمرت خيراتهم ، مدة حكمها لهم قرابة اربعة قرون ، واضعفت قوميتهم ، وتركتهم يتمرغون في اوحال القرون المظلمة ، بينما كان العالم المجاور يمشي قدماً في النور والى النور . ولولا اختلاط بعض الامصار العربية بالاجانب وذلك بالمواطنة والهجرة ، وبالمدارس لظل جميع قومنا في جهلهم يعمهون .

وعلى ما في تاريخ آل عثمان من حسنات وسيئات فهو ، في الواقع ، يعتبر حلقة من سلسلة تاريخ المسلمين ، كما يعتبر مرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب ، ولاسيما في الشرق الادنى . هذا الى انه فصل من الفصول المهمة في سفر التكوين الاوروبي .

وهذا ما اثار النشاط في نفسي ، منذ زوال هذه الدولة ، لوضع سفر مطول مؤلف من كتابين ، يستعرض اولهما اسباب ظهورها ونجاحها ، ويبين ثانيهما مصادر سقوطها وزوالها ،وذلك في الناحيتين الداخلية والخارجية ؛وفي الجهتين المكانية والزمانية ، قصد كشف الستارعن جانب مغمور من جوانب تاريخنا القومي ،وبغية سد الفراغ في المكتبة العربية .

وقد اصدرت الكتاب الاول بعنوان« **فلسفة التاريخ العثماني** »في سنة ١٣٣٤هـ=١٩٢٥م. مختاراً هذا الاسم لان الكتاب انما يعني بدراسة الاسباب التي كانت مصدراً للاحداث التاريخية، ثم يرد التاريخ فيها من قبيل الامثلة والاستدلال.ومن حسن الحظ ان الكتاب قوبل وقتئذ بتقدير عظيم من العلماء والادباء ؛ وقرظه بعضهم اطيب تقريظ . من ذلك ما جاء في جريدة الاهرام بعددها الصادر في ٤ اغسطس سنة ١٩٢٥ من مقال لشاعر القطرين خليل المطران ؛قال :

« **اعلن بلا اغراق ان بانياً ايا كان قدره وعلمه والمامه بهذا الضرب من القياس والاستنباط اذا بنى بعد جميل بيهم لن يستطيع للاساس الذي وضعه تعديلا ، وان يقيم صرحاً في فلسفة التاريخ العثماني على رسم افضل من الرسم الذي قدمه .** »

ومن ذلك ما ورد في مجلة الهلال سنة ١٩٢٥ للشاعر الحكيم جميل صدقي الزهاوي :

« واحسن كتاب ظهر في فلسفة التاريخ في الشرق العربي هو فلسفة التاريخ العثماني الذي الفه اخيرا صديقي الاستاذ جميل بك بيهم . »

والى هـذا فان بعض المؤلفين الاجانب استندوا اليه ، واشاروا على طلاب هذه النواحي التاريخية بان يرجعوا اليه ؛ وترجم آخرون فصولا منه . وقد نشرت جريدة « **اجمال** » في الهند هذه الفصول تباعاً مترجمة الى اللغة الاوردية بقلم مولانا ابي الوفا عبد الحميد نعماني الهندي.

ولكن رغم هذا التشجيع فان احوال بلادنا السياسية في عهد الانتداب الفرنسي ، بالاضافة الى نضالنا المستمر في سبيل فلسطين ، كل ذلك قد صرفني عن اصدار الكتاب الثاني حتى الآن ، وجعلني اقبل على مواضيع اخرى كانت تستهوي قلمي ، كما كانت تستأثر باهتمام بلادي وقومي .

ورغم اني اصدرت اخيراً في مصر كتابي « **الحلقة المفقودة في تاريخ العرب** » استعرضت فيه تاريخ قومي المغمور خلال حكم آل عثمان فقد ظلت اشعر بواجب ملقى على عاتقي : اشعر باني ، وقد اصدرت الكتاب الاول من فلسفة التاريخ ، فانا مدعو لاستكمال البحث ولاصدار الثاني . خصوصاً وان هذه الدراسات التي قضيت السنين الطوال في وضعها ، يرجع بعضها ، ولا سيما ما كان منها يتعلق بالقرن الحاضر ، الى مشاهداتي ومسموعاتي ، وهي ، في الواقع ، دراسات لتاريخ بلادي وقومي وملتي لما كان لنا جميعاً من المشاركات الوثيقة في تاريخ السلطنة .

ويطيب لي ان احقق هـــذه الامنية باصدار هذا الكتاب المتواضع ، وانا ارجو ان يفي بالموضوع ، وان يقوم بالواجب ؛ والا فعذري اني ركبت ، في وضع هذا السفر ، مركباً صعباً لم يسبقني اليه احد.

بيروت في ١٢ شعبان ١٣٧٣ = ١٤ نيسان ١٩٥٤

المؤلف
محمد جميل
بيهم



الجزء الاول

الهيئات الحاكمة

يعود للهيئات الحاكمة ، ولا سيما اذا كانت اوتوقراتية ديكتتورية ، الفضل الاول في سعادة اممها ورقيها : كما يرجع اليها الذنب الاكبر والتبعة الاولى في شقاء رعاياها وانحطاطهم .

فالسلاطين الاوائل من آل عثمان كانوا ، في الواقع ، اصحاب الايادي البيضاء ؛ ومثلهم رجال حكمهم ، فيما ادركته السلطنة من سؤدد وعظمة وسيادة ؛ كما ان الاواخر منهم وذويهم هم المسؤولون عن المصير المخزي الذي انحدرت اليه الدولة. وهذا ما سنتحدث عنه في الفصول التالية :

١

السلاطين

لقد تبدل آل عثمان تبدلا عظيما مذ ابتعدوا عن فطرتهم وتخلقوا بالاخلاق البيزنطية : فحينما كانوا على شيء من البداوة كانوا ملوكا حقيقيين يتولون توجيه دولتهم ، ويقودون بانفسهم جيوشهم متفانين في سبيل رفعة شأنها واتساع رقعتها ، وحريصين على انتشار العدالة والرفاه بين رعيتهم. ولكنهم ما ان نقلوا عاصمتهم الى قسطنطينية : قاعدة الامبراطورية البيزنطية ، واقاموا سلطنتهم على انقاضها حتى هوت بهم الى الحضيض : الى حيث القت باصحابها السابقين . ذلك لان المدنية البيزنطية كانت قد امست ، عهد الفتح العثماني ، مدنية رذيلة وفساد . وكم طغت هذه المظاهر المدنية على اصحاب القلوب الطيبة والمبادىء الفطرية ؟

وسنخص هذا الفصل بالكلام على تأثير السلاطين في انحطاط الدولة والشعب ، وفي صدد زوال سلطنتهم ، مقسمين البحث على الوجه التالي :

١ ـ الزواج من الاجنبيات
٢ ـ تعدد الزوجات
٣ ـ تنافر الاسرة المالكة
٤ ـ ضياع الكفاءات
٥ ـ تحجب السلاطين
٦ ـ تبذير السلاطين

وهي العوامل الهدامة التي جعلت سلاطين آل عثمان الاواخر الذين اضاعوا الدولة يصبحون بعد قليل، بتأثير الوسط الاوروبي الذي اختاروه، غير آل عثمان المؤسسين الذين كانوا يقيمون في الجانب الاسيوي .

*

الزواج من الاجنبيات

لا ريب في ان العلل الفتاكة التي تسري الى الاجسام في مقتبل العمر، وابان اشتداد الصحة قد لا تظهر علاماتها في عهد الشباب والصحة، بل يتأخر ظهورها الى ان تضعف المناعة منذ سن الكهولة.

ومن هذا القبيل ما اصاب الامبراطورية العثمانية من جراء تهافت السلاطين على الزواج من الاجنبيات، والتسري بهن.

ان الاقتران بالاجنبيات رافق نشوء السلطنة، ولا سيما منذ جاورت الجانب الاوروبي. وكان اول من اقدم على هذه البادرة الامير اورخان بن عثمان مؤسس الدولة: فما ان انتزع عنوة الشطر الاسيوي من الامبراطورية البيزنطية، وجاور عاصمتها حتى حسبت هذه الحساب له، وارتعدت فرائصها منه. فاذا بالامبراطور جان باليولوج يستنجده سنة ١٣٥٥م، ويطلب مساعدته لدفع الملك اسطفان دوشان ملك الصرب الزاحف على قسطنطينية، ويعرض عليه ان يزوجه من ابنته فان هو لبى الدعوة. وكان مصاهرة الامبراطرة وافقت هوى الامير فما تردد. وكان بذلك اول عثماني يتزوج من اجنبية. ثم فشت هذه البدعة واصبحت سنة محببة للخلفاء الذين جاؤوا بعده

فان ابنه السلطان مراد الاول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٨) لم ينتظر ان تعرض عليه ابنة احد الملوك، بل اشترط في معاهدة الصلح التي وقعت فيما بينه وبين الصرب والبلغار ان يزوجه امير البلغار سيسمان ابنته؛ كما ان بايزيد الاول بن مراد (١٣٨٨ ـ ١٤٠٣)، الذي استهل حكمه بتوليته الامير اسطفان بن الملك لازار ملك الصرب على بلاد ابيه، بادر للزواج من شقيقته اوليفيا .

وربما كان للسلاطين الفاتحين في الزواج من الاجنبيات اهداف اخرى ، منها تأمين العصبيات لهم في تلك الاوساط التي تعتبرهم دخلاء . والواقع انه كان لهذا الزواج ذلك الحين بعض المنافع في هذه الناحية : فلما حمل الخطر العثماني الدول الاوروبية المهددة على الاتحاد والزحف ضد السلطان بايزيد المشار اليه رفضت الصرب الانضمام اليها ، ومشت في صفوف صهرهم السلطان لتشاركه في النصر الباهر الذي احرزه في موقعة نيكوبولي (٧٩٨ هـ = ١٣٩٦ م)

غير انه ما ان بدرت البادرة الاولى في ظهور آل عثمان بمظهر الضعف وذلك حينما اسر تيمورلنك هذا السلطان حتى اعلنت الصرب استقلالها اسوة بسواها من الامارات .

وقد مات بايزيد في الاسر ، وتنازع ابناؤه على ما بقي في حوزتهم ، وبلغ من طمعهم بالملك ان احدهم سليمان الذي بويع في ادرنه ، تنازل عن سلانيك وسواحل البحر الاسود الى امبراطور قسطنطينية عمانوئيل الثاني لقاء الحصول على نجدته ؛ وزيادة في اغرائه ، رضي بان يتزوج من احدى قريباته .

ولكن القدر لم يسعف سليمان هذا بل سرعان ما اتيح لاخيه محمد جلبي ان يتفرد في الحكم (١٤١٣ — ١٤٢١) . ثم لما خلفه ولده مراد الثاني (١٤٢١ — ١٤٥١) نفد كل امل كان عند جورج برنكوفيتش امير الصرب في صدد استطاعته المحافظة على استقلال بلاده . فعقد الصلح مع السلطان على اساس اداء الجزية ، وتقديم الجند عند الحاجة ، هذا فضلاً عن تزويج ابنته مارا من جلالته .

وهكذا فان كيان الاسرة المالكة العثمانية شرع يتغير ويتطور منذ بداية علاقاتها باوروبا ، خصوصاً لامتلاء القصور بالسراري الاجنبيات والمحظيات . فكانت نتيجة ذلك ، بعد قليل من الزمن ، ان صار دم الاسرة خليطاً ، وان اصبحت قصور السلاطين آهلة بامهات مختلفات الاجناس والالوان : فالسلطان سليم بن سليمان ، (١٥١٢ — ١٥٥٠) وهو فاتح بلاد الشام ومصر ، كان ابناً لروكسلان الروسية الملقبة بخورم اي الباسمة ، والسلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٦) كان ولداً لايطالية اسميت صفية ، كما ان محمداً الثالث بن مراد (١٥٩٥ — ١٦٠٣) كان ابن صفا ، وهي جارية بندقية . وهلم جراً .

ومما هو جدير بالذكر ان المؤسسين الفاتحين من آل عثمان وان اختاروا الزواج من الاجنبيات لغاية سياسية . غير ان الذين اتوا من بعدهم اقتصرت غايتهم ، في هذا الزواج ، على انتقاء الحسناوات من الجواري والسراري . وقد قارن احد المؤرخين بين هؤلاء وبين خلفاء العرب فقال : « **ان الخلفاء العرب كانوا يختارون زوجاتهم من بنات الاسر العليا في مملكتهم ، او فيما يجاورها ،**

وكانوا كثيرا ما يرجعون اليهن في المشورة ، على حين ان السلاطين العثمانيين ما كان يحفلون قط بهذا الاختيار ، ولا يستشيرون نساءهم ، فمنوا بحكم المحظيات »[1]

وما ادراك ما حكم المحظيات ؟

انه مصدر بلاء السلطنة . حقاً ان اولئك الاجنبيات، اللواتي احتللن قصور السلاطين، تظاهر بالاسلام ، وبمحبة السلطنة؛ ولكنهن ظللن ، في الواقع ، غريبات لا يهمهن الا ارواء ظمأ انفسهن واذا تحسسن بأي شعور آخر فهو شعورهن لأوطانهن الاولى ، ولابنائها. وقد أتين من الدسائ ألواناً اودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلهـــا . من ذلك ان السلطانة روكسلا زوجة سليمان القانوني (١٥٢٠ ـــ ١٥٦٦) شاءت ان تتحول ولاية العهد عن الامير مصطفى بكر ابناء السلطان ، الى ابنها سليم . وتوصلاً لهذه الغاية سعت لتعيين رستم باشا صدراً اعظم وزوجته من بنتها ، وتآمرت معه على تحقيق امنيتها. حتى اذا نشبت الحرب بين السلطنة وفارس كتب الصدر الى السلطان بان ولده الامير مصطفى الذي كان يرافق اركان الجيش في الحرب يحرض طائفة الانكشارية عليه قصد خلعه والولاية مكانه. وكانت روكسلان قد هيأت افك السلطان لقبول هذه التهمة ، فخف جلالته الى اللحاق بالحملة متظاهراً بانه يريد ان يتولى قيادته وما ان ادركها حتى استدعى اليه الامير مصطفى ، وأمر بخنقه (٩٦٠ هـ = ١٥٥٣ م)

على ان هذه المأساة لم تنته باعدام هذا البريء الذي ذهب ضحية لأجنبية ، بل كانت ذات ذيول فقد حزن الامير جهانكير على اخيه الامير مصطفى حزناً افضى الى موته ، كما ان اخاهما باي ذهب ايضاً ، هو واولاده الخمسة ، ضحية لاخيه سليم ، وذلك من جراء وشاية نقلهـــا ا رجال القصر الى ابيهم السلطان سليمان فامر بقتلهم . وكانت هذه الحادثة نقطة سوداء في تار هذا السلطان الذي يعد من اعظم سلاطين آل عثمان . على ان هؤلاء الاجنبيات اللواتي احتل قصور السلاطين سيئات اشد ضرراً من تفسخ الاسرة المالكة . ذلك لانهن كن العامل الفع في القاء مقاليد السلطنة بين ايدي الاجانب ، واكثرهم من الذين تظاهروا بالاسلام، وتلبسوا بالعثما قصد جر المغانم لانفسهم ، او لخدمة ممالك اخرى باعوا انفسهم لها .

ان المؤرخين يرجعون الى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـــ ١٥٩٦) بدء ظهو انحطاط السلطنة. والواقع ان بداية هذا الانحطاط ترجع الى ما قبل هذا الزمن ، ولكنها لم تظهر جا من قبل : حتى اذا لعبت بمقدرات السلطنة ايدي رجال الدولة الاجانب ، في حكم السلطان مراد

1 - K. Kanem . Les Sultans Ottomans T. II. P. 10

كان لهم ما كان في استفحال الفساد برزت للعيان علامات الضعف: ففي هذا العهد تعاقب على ادارة الدولة نفر من الاجانب باعوها بابخس الاثمان، ولم يصلوا الى اعلى المراتب الا بمساعي جواري السلطان، لاسيما محظيته بوفا البندقية. وقد لعبت هذه السيدة دوراً سياسيا عظيما في ادارة الدولة حسب هواها وذلك في عهد زوجها، ثم في عهد حكم ابنها السلطان محمد الثالث (١٥٩٦ـ١٦٠٣). خدمت بصورة خاصة بلادها: ورغم ان البندقية تجاوزت الحدود ايام السلطان مراد فهي لم تُصب باذى قط، بل استطاعت بنفوذ السلطانة بوفا، ان تجدد المعاهدات بينها وبين آل عثمان، وان تعدل شروطها بما فيه نفعها.

ولنترك الكلام هنا الى احد المؤرخين الذين تعرضوا لهذه السلطانة وتصرفاتها خلال حكم محمد الثالث. قال: « لقد كانت السلطانة الوالدة تستعين على حفظ نفوذها، واستمرار سلطتها بتقديم السراري الملاح، واحدة بعد واحدة، الى ابنها السلطان ـ وان سنان باشا وجيغالازاده، وحسن التاسي، الذين قبضوا على زمام السلطنة، وقتئذ، كانوا، في الواقع، دخلاء على الاسلام وعلى العثمانية، ولم يبلغوا هذه المراتب العليا الا بوسائل منحطة. ثم ما ان قبضوا على زمام الدولة حتى اخذوا يمتصون دماءها: فكانوا يبيعون الضرائب والمكوس بالمزاد، ويزيفون العملة، ويقررون رسوماً لمصلحتهم. فكانت الاموال التي يختلسها هؤلاء تحرم المشاريع العمومية والنفقات الضرورية كثيرا من المخصصات لها، بل تحرم الجنود رواتبهم. وكم ادى التقتير على الجنود الى نشوب ثورات وفتن ما كان السلطان ليستطيع اخمادها لولا العداوة التي كانت مستحكمة بين جيشي السباهي والانكشارية. »[1]

*

تعدد الزوجات والسراري

لسنا نريد من البحث هنا في تعدد الزوجات الاشارة الى ضرر هذه العادة ام نفعها. وانما نود ان نبين ما كان لها من الاضرار على السلطنة نظراً لان الذين زاولوها هم رجال الامر والنهي.

بل وما اشد ما كان لتعدد الامهات في حاشية السلاطين من المضار الشديدة على الدولة. ذلك ان اختلاف الامهات ادى الى التنافر بين السلاطين وابنائهم، فضلا عن التناحر بين الاخوة.

---

1 - Lavallée, histoire de la Turquie T. IV P. 36

هذا الى ان ضياع ثقة السلطان باخوانه افضى الى الحجر على ابناء الاسرة المالكة . ومعلوم كم كان لهذا الحجر من سيئات ، ولا سيما من حيث حرمان المرشحين للحكم من جميع المؤهلات ، واضعاف كفاءاتهم . اضف الى ذلك ان حياة « **الحرم** » التي كانت حافلة بالسراري والجواري فضلا عن الزوجات ، نقلت شطراً كبيراً من السلطة العليا الى الخصيان . فكم من الامتيازات التي اعطيت ، والتبرعات التي منحت ، والاحكام التي صدرت كانت تقع بفضل وساطات الخصيان لدى الحرم السلطاني ؟

ونحن لا نزال نذكر شيئاً من هذا النفوذ الذي كان لهم . فقد كان كبيرهم **اغا دار السعادة** في عهد السلطان عبد الحميد الثاني يتمتع برتبة وزير ، ولكنه كان يتمتع بنفوذ اشد من نفوذ الوزير . ويا ويل دولة وضعت مصيرها في قبضة هؤلاء العبيد الجهلاء .

*

تنافر الاسرة المالكة

« **كل بيت ينقسم على نفسه يخرب** » . هذا ما ورد عن لسان السيد المسيح . وهو ما صح على آل عثمان . فلقد كان التضامن بين اسرة آل عثمان على اتمه في صدر الدولة . وبلغ الى حد ان الامير علاء الدين ، وهو بكر السلطان اورخان الاول ، آثر اخاه مراداً على نفسه ، وتنازل له عن السلطنة مكتفياً بالوزارة . ولكن ما اسرع ما تحول ذلك العاطف الى بغضاء ، وما اشد ما قام مكان الحنو العائلي من قساوة لا مثيل لها في تاريخ الاسر المالكة . هذا سلطان يأمر بقتل ابنه لمجرد وشاية ، وذاك يعدم اخوته واولادهم معهم ليكون في مأمن من اي طامع بالحكم . انها وايم الحق لفظاعة قاسية . واغرب منها ان تمسي هذه العادة سنة تقليدية متبعة مدة طويلة من الزمن .

وهذا جدول وضعناه مبينين فيه ما وصل الينا من هذه المنكرات مع الاشارة الى اسبابها .

رقم السلطان في التسلسل	المعتدى عليهم	اسباب القتل
مراد الاول بن اورخان — ٣ —	قتل ابنه صاووجي	لانه ثار عليه مع ابن عاهل قسطنطينية
بايزيد الاول بن مراد — ٤ —	اعدم اخاه يعقوب	لانه كان مهاباً فخاف منه ، فقتله

السلطان		الحادثة	السبب
محمد الاول بن بايزيد	٥	قتل اخوته كافة ماعدا مصطفى الذي سلم لاحتمائه بامبراطور قسطنطينية.	بعد موت بايزيد مأسوراً لدى تيمورلنك قام كل واحد من اولاده على جزء من السلطنة حتى اذا غلبهم اخوهم محمد أعدمهم
مراد الثاني بن محمد	٦	قتل عمه مصطفى، وألحق به اخاه مصطفى	بسبب التنازع على العرش
محمد الفاتح بن مراد	٧	قتل اخاه احمد	وهو في سن الرضاعة
بايزيد الثاني بن محمد	٨	حاول قتل اخيه الامير جم ولكنه لم يدركه، بل فر الى اوروبا، وعاش فيها.	بسبب التنازع على العرش
سليم الاول بن بايزيد	٩	قتل اخوته وابناءهم، وقيل انه دس السم لأبيه	اغتصب الملك من ابيه، وفتك باخوته ليأمن غائلتهم
سليمان الاول بن سليم	١٠	قتل ابنيه مصطفى وبايزيد، واتبع ببايزيد اولاده	نوهنا في هذا الفصل بالاسباب
سليم الثاني بن سليمان	١١	يرجع اليه السبب في مقتل اخيه، بايزيد واولاده في حياة ابيهما	نوهنا في هذا الفصل بالاسباب
مراد الثالث بن سليم	١٢	قتل اخوته الخمسة	لا لشيء الا ليطمئن باله على العرش
محمد الثالث بن مراد	١٣	امر بخنق اخوته، وهم ١٩، لدفنهم في الوقت الذي وارى فيه والده	لا لشيء الا ليطمئن باله على العرش
عثمان الثاني بن احمد	١٦	قتل اخاه محمداً	ولكنه أبقى على غيره من اخوته
مراد الرابع بن احمد	١٧	قتل اخويه بايزيد وسليمان	من جراء تهمة وصلت اليه
مصطفى الـ٤ بن عبدالحميد	٢٩	قتل اخاه سليماً الثالث	حينما حاول مصطفى باشا البيرقدار اعادته الى العرش.

ويلاحظ في هذا الجدول ان هذه البدعة الوحشية سرعان ما رافقت السلطنة منذ الثالث من عواهلها ، وظلت مرعية دون انقطاع الى عهد السلطان الرابع عشر ، وذلك مدة قرنين ونصف القرن . وما اهملت الا ايام السلطان ابراهيم الاول ، في اواسط القرن السابع عشر ؛ وهو يأتي الثامن عشر بين السلاطين . واما مقتل السلطان سليم الثالث بعد ذلك فقد كان المبرر له عند اخيه محاولة انصار سليم اعادته الى العرش بالقوة .

*

ما هي اسباب تنافر الاسر المالكة ؟

ليس الحنو الوالدي غريزياً فحسب ، بل هو ابن التربية ايضاً . فتعدد زوجات السلاطين افضى الى تعدد قصور الحرم ، والى فقدان الحياة العائلية المستقرة ، فلم تتعرف الاسرة المالكة بالتالي الى عيشة الحنو التي تعيشها العيل ، ولم تشعر بالمحبة المتبادلة بين افرادها ؛ ولا بدع فقد كان الاخوة والاخوات لا يعرفون بعضهم البعض ، واذا جرتهم الصدف للتعارف باعدت بينهم الوحشة ، فلا يتآلفون . وان هذا التعدد بالزوجات والقصور افضى الى قيام التباغض بين الاخوة من جراء الطمع بالعرش ، وبتأثير الغيرة التي تستحكم بين السلطانات . فكان احدهم اذا بلغ العرش تخامره الريبة بذويه ، وهو لا يشعر باية عاطفة حنو نحوهم ، فلا يتردد ، في سبيل تأمين راحة باله ، عن التضييق عليهم ، ان كان من الراحمين؛ والا فهو يأمر بقتلهم بقسوة .

على انه كان لنظام التوارث عندهم تأثير كبير في ناحية اثارة التنازع بينهم : فالى عهد السلطان الرابع عشر ، وهو احمد الاول (١٦٠٣ ــ ١٦١٧ م) كان نظام الوراثة يقوم على اساس انتقال العرش من البكر الى الاكبر فالاصغر من ابنائه ؛ وهكذا فان اخوان السلطان وابناءهم الذين يبوؤن بالحرمان ، بمقتضى هذا النظام ، كانوا كثيراً ما يغتنمون الفرص للخروج على السلطان املا باستخلاص العرش لانفسهم . يقابــل ذلك ان السلطان القائم كان يفقد الثقة باخوانه فلا يتورع عن الفتك بهم .

*

كيف الغيت عادة الفتك بالاخوان ؟

كان السلطان احمد الاول (١٦٠٣ــ١٦١٧) اول من عدل نظام الارث في السلطنة ، وجعل العرش ينتقل من الاكبر فالاصغر بين اخوة السلطان ، بدلا من انتقاله الى الاكبر فالاصغر من بنيه ؛ كما

ان هـذا السلطان خالف سنة اسلافه فابقى على حياة اخيه مصطفى ، محجوزاً عليه في قصر من القصور ، فكان ذلك مما خفف من غلواء روح التنازع بين الاخوة في الاسرة المالكة نظراً لان كلا منهم اصبح يؤمل ان يصل اليه الدور في السلطنة . على ان هذه العادة القبيحة : عادة القتل ، لم تبطل ، مع ذلك ، دفعة واحدة ، بل خفت الى ان عفي اثرها حينما اصبح الزمن لا يسمح بها . فقد قتل عثمان الثاني اخاه محمداً (١٦١٨ — ١٦٢٢) دون سائر اخوانه ، وقتل مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) اخويه بايزيد وسليمان لوشاية بلغته عنهما .

ثم جاء دور الانكشارية في التمثيل بالسلاطين انفسهم ، وذلك منذ اوائل القرن السابع عشر : فخلعوا مصطفى الاول مرتين ، وقتلوا تباعاً عثمان الثاني وابراهيم الاول ، ، وخلعوا محمد الرابع ، فصح على السلاطين ، في ابان سيطرة الانكشارية ، ما وصف به الشاعر خلفاء العباسيين في عهد الطغيان التركي حيث قال :

خليفة في قفص — بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له — كما تقول الببغا

على ان اخوان السلاطين وان نجوا في هذا العهد من القتل ، ولكنهم لم ينجوا من السجن . وقد ظلوا سجناء في قصورهم لا يخالطون احداً حتى زوال آل عثمان . كما ان اولياء العهد انفسهم الذين كانوا من قبل يساهمون في بعض مهام الدولة ووظائفها الكبرى اقصوا عنها منذ عهد محمد الثالث (١٥٩٥ — ١٦٠٣ م) .

☆

مغبة تنافر الاسرة

نكون على حق اذا وجهنا اللوم الشديد الى السلاطين الذين كانوا يفتكون باخوانهم واقربائهم . ولكن لو كان لهؤلاء مجال القول في الدفاع عن انفسهم لأشاروا الينا بامثلة كثيرة عن خروج ذويهم عليهم حباً بالعرش .

والواقع ان التربية المتفككة التي كان ينشأ عليها آل عثمان جعلت من تاريخهم سفراً حافلا بالفتن يثيرها الاقربون على ولي الامر : فقد ثار الامير صاروجي على والده السلطان مراد الاول اثناء ما كان يناضل ذات اليمين وذات الشمال ، لانقاذ الدولة من شرور الامراء المجاورين لها في آسيا ، ومن الدول الاوروبية المتحدة عليها .

ثم تنازع ابناء السلطان بايزيد ، في مطلع القرن الخامس عشر ، بعد ان وقع والدهم في اسر تيمورلنك ، على حين انهم كانوا في مثل هذه المحنة اشد الناس حاجة للاتحاد. ودامت الحروب بينهم احدى عشرة سنة ونيف حتى كانت الغلبة لاحدهم محمد جلبي فلم يرحمهم.

وبينما كان مراد الثاني يحاول جاهداً اعادة الامارات والولايات الاسيوية التي استقلت عن السلطنة اثر نكبتها بتيمورلنك ، اتفق عمه الامير مصطفى مع امبراطور بيزنطة ، وخرج عليه سنة ١٤٢١ . على ان بيزنطة لم يطل عهدها من بعد ، وامحت من سفر الوجود اثر استيلاء آل عثمان على قسطنطينية ، ولكن هؤلاء وان ازاحوا عقبة كأداء من وجههم الا ان الطريق ظلت وعرة بما جابههم من الاتحاد الاوروبي . ذلك ان نبأ سقوط بيزنطة بين مخالب النسر العثماني زلزل اوروبا زلزالا ، فتنادت باسم الدين لصد الزحف الاسلامي . وكان في طليعة الزاحفين لاسترداد قسطنطينية ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ ـ ١٤٩٨)

وكان يشجع هؤلاء ما احاق بالسلطنة عقب وفاة السلطان محمد الفاتح (٨٨٦ هـ = ١٤٨١) من المشاكل الداخلية والخارجية ، ذلك ان الامير جم سرعان ما خف للخروج على اخيه بايزيد الثاني ينازعه على العرش ، كما سارع ابناء هذا السلطان للتمرد عليه اثناء ما كان الشاه اسماعيل يتآمر مع مصر ويهاجم السلطنة بقوة ودون هوادة .

فهذا التنافر الذي ابتلى به آل عثمان ، اضاع عليهم الفرص السانحة ابان عهد الفتح ، كما انه افضى الى خسرانهم الحروب اثناء عهد الدفاع . هذا فضلا عن ان ضياع التواثق بين الاسرة المالكة التي اولياء العهد وسائر افرادها في حياة قصور محاطة بالاسوار ، فكانوا فيها سجناء محرومين من النور فنشأوا نشأة لا تؤهلهم للحكم .

*

تعاقب غير الاكفاء على العرش

لاريب في ان وراء ما نسميه منطقا اسراراً لا ندرك كنهها ، ومنها ما يعرف بالحظ : فلما كان الحظ يخدم آل عثمان كانت الكفاءات متوفرة في اشخاص الذين تسنموا العرش منهم فاتيح لهم ما اتيح من ادراك ذروة العظمة . واذا تخلل هذا العهد المزدهر حكم سلاطين قلائل انغمسوا في الملذات فلم تستفد الدولة من كفاءاتهم كالسلطان بايزيد بن مراد (١٣٧٨ ـ ١٤٠٣ م) ، ام حكم

سلاطين محرومين من المواهب كالسلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ ـــ ١٥١٢ م)، فان ذلك لم يكن يترك اثراً مذكوراً نظراً لكثرة الاكفاء بين السلاطين.

واما في عهد الانحطاط، الذي تلاقى بدؤه مع نهاية عهد السؤدد خلال حكم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ـ١٥٦٦ م)؛ فقد انعكست الحال اذ تعاقب على عرش آل عثمان دون انقطاع سلاطين عدة كانوا غير اكفاء، واعني بهم سليم الثاني، ومراد الثالث، ومحمد الثالث. وكانوا، فضلا عن ذلك، يتلهون عن الملك باسباب مسراتهم. ثم اذا تخللهم سلاطين آخرون كانوا يتمتعون بالمقدرة على وقف تدهور السلطنة مثل عثمان الثاني ومراد الرابع فان هؤلاء كانوا يموتون شباناً، فلا تتاح فرصة الانتفاع بجداراتهم واستعداداتهم.

على اننا وان ارجعنا بعض عوامل الانحطاط الى الحظ ولكنا، مع ذلك، لا نتجاهل الاسباب المعروفة التي قررت مصير آل عثمان: فان السلطان احمد الاول، الذي ولي السلطنة في غرة القرن السابع عشر، وان عدل عن سنتي قتل اخوان السلاطين وحرمانهم من ولاية العهد، الا ان عادة سجنهم بين الجواري، اللواتي اختارهن لهم ولاولياء العهد، قضت على مواهبهم حتى اذا تبوأ احدهم سدة الملك احتاج الى شبه وصي يتصرف به على هواه. وهذا ما جرى حينما صارت السلطنة الى مصطفى الاول، وعبد الحميد الاول، ومصطفى الرابع، والى سائر من خلفهم؛ الا من رحم ربك.

وقد بسط روحي بك الخالدي صورة لتربية ابناء السلاطين ولتصرفاتهم اثناء الحكم يجدر بنا الاستشهاد بها قال [1]: «**اذا ولد لاحد السلاطين العظام مولود تربى في حجر والدته الجركسية على دلال السراري والاغوات الى تمام السنة الثانية عشرة من عمره، ثم تبدل تلك السراري بالحظيات فيتخذ منهن حرماً ينزوي بهـــن في القصور. وتبقى الاغوات والمماليك على ما كان عليه ايام صبوته. وربما جاؤوه بحافظ يحفظه القرآن، ومعلم يعلمه مبادىء العلوم. ولكن اكبر معلم للانسان هو الوسط الذي يكون فيه. وكيف يتعلم المرء بدون ان يخرج من بيته، ويحتك بالعلماء ورجال الدولة؟ فيبقى ولي العهد على هذه الحال ينتظر دوره في الملك وهو محبوس في قصره، وعليه العيون والجواسيس، لا يمكنون احدا من التقرب اليه، ولا المرور بجانب قصره؛ فضلاً عن محادثته بالمسائل العلمية والسياسية. ومتى جاء دوره وجلس على سرير الملك سعى طواشيته السودان ومماليك البيضان في**

---

[1] ـ مجلة الهلال السنة ١٧ صفحة ٧٣

وضعه تحت نفوذهم ، وحرصوا على ان لايفلت من ايديهم ، وفتشوا عن اضعف نقطة في قلبه واخلاقه ،فلا يمضي عليهم كثير حتى يكتشفوها. فيستميلون قلبه اليهم من تلك النقطة، ويستفيدون منها لانفاذ كلمتهم . فيتألف من خدمة القصر الملوكي حزب قوى يسمى كامريلا Camarilla ؛وهي كلمة اسبانية معناها جماعة المتنفذين في قصر الملك. فيتداخلون بالمسائل ويعارضون في السياسة ، ويستولون على الامور . واذا رأوا السلطان مال لصدر اعظم او وزير انقضوا عليه ولاكوه بألسنتهم ، وافتروا عليـــه بأفكهم ونسبوه للعجز والتقصير ، وسعوا في تنزيل قدره وتذليله لاجل وضعه تحت سيطرتهم . ولذا كان في الغالب للقهوه‌جي باشي ،والاثوابجي باشي ،او الابريقدار والسجاده‌جي باشي ، والبستانجي باشي ،حتى البلطه‌جي باشي ،وهو الحطاب ، نفوذ كلمة وحيثية اكثر من الصدر وبقية الوزراء ورجال الدولة ،سيما في المسائل المالية وجر المنافع وتوظيف المنتسبين اليهم .ولم تزل رتبة اغادار السعادة معادلة لرتبة الصدر الاعظم والخديوي المعظم . ولهم بالفرنساوية لقب سون التاس Son Altesse ،كامراء الافرنج وابنـــاء ملوكهم العظام . ولم يزل اكثرنا متذكرا نفوذ بهرام اغا وامثاله . »

هذا وقد اتيحت لنا الفرصة لنرى بانفسنا نتيجة تلك التربية التي كان ينشأ عليها ابنـــاء السلاطين ، ولنرى فيهم الحرمان المطلق من الكفاءة التي يجب ان يتحلى بها المرشحون لتولي العروش . اتيحت لنا هذه الفرصة حينما هبط بيروت الامير سليم ، ولي عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وسكن فيها عقب انتزاع الرئيس اتاتورك كل سلطة من اسرة آل عثمان ، واجلائهم عن عن تركيا الحديثة.وقد كنا ايام المدرسة نعتقد ان ولي العهد المشار اليه هو الذي سينقذ السلطنة متى صار الامر اليه نظراً لما كنا نسمع عن كفاءته . وقد رحبنا به وبافراد اسرته الآخرين الذين هبطوا ايضاً مدينتنا ، ونزل سموه ضيفاً على صهرنا السيد بديع سوبره وشقيقتنا دريه ، ولكن اخذتنا الدهشة حينما استقبلناه : فلقد كان سموه على حالة من الارتباك لا توصف . كان يتلفت دون حاجة ،ذات اليمين وذات الشمال ، حين اختلط بمستقبليه حتى خيل لنا ان اعتياد سموه على الحجر الطويل بعيداً عن الناس جعله يضيّع شيئاً من توازنه عند الاختـــلاط بهم فجأة .

على اني لا اذكر الامير سليماً وجميع اسرته الا مع التنويه الشديد بما ألفيناه عندهم من القلوب الطيبة الخيرة والمزايا العالية .

تحجب السلاطين

الى فتح قسطنطينية كانت ادارة السلطنة وتقاليدها ، كما كانت حياة رجالاتها لا تزال على سنة البساطة تراعى فيها خطة الاقتصاد والتقشف .

وكان السلاطين ، حتى ذلك الحين ، يشرفون على الشؤون الادارية ، ويرئسون ، في بعض الاوقات ، دواوين القضاء ، ويقودون جيوشهم الى ساحات النصر . ففي عهد السلم تسود روح العدل والنظام ، وفي ابان الحرب يثير وجودهم بين الجيش ، روح التضحية والبطولة . غير انهم ما ان استولوا على الامبراطورية البيزنطية ، واقاموا قاعدة دولتهم على انقاضها في القسطنطينية حتى انقلبوا رأساً على عقب . فأخلاقهم ، من بعد ، لم تعد كأخلاقهم من قبل ، وتقاليدهم من ثم صارت غير تقاليدهم بالامس . اجل ، منذ السلطان محمد ، فاتح قسطنطينية ، اتخذ سلاطين آل عثمان ابهة الامبراطورية البيزنطية ، واختاروا تقاليدها الرسمية . قلدوهم في قصورهم ، وحاشيتهم ، وحتى في حرمهم . وجعلوا بينهم وبين رعيتهم حجاباً ، وأسلموا ادارة السلطنة الى بعض المقربين .

ثم لم يلبثوا الا قليلاً حتى تخلوا عن قيادة الجيوش ، بدأ بذلك السلطان سليمان القانوني ، فأفسدوا الانكشارية الذين كانوا قد اعتادوا ان لا يخرجوا للحرب الا والسلطان يقود حملتهم .

وكان من نتائج تحجب السلاطين انهم اصبحوا في معزل عن معرفة الحقائق في شؤون الدولة والامة . خصوصاً وان الحاشية كانت تحتاط كيلا يصل الى مسمع جلالته غير ما تشاء .

وهذه حادثة اوردها الاستاذ محمد فريد تدل على تعمد الحاشية اخفاء الحقائق عن السلاطين[١] . قال :

« بايام سليم الثالث نهض نفر من زعماء الدولة المتضاء على النظام العسكري الجديد الذي كان ادخلـه السلطان ، ولبثوا يدسون الدسائس باسم الدين حتى شبت الثورة بالاستانة بين الجنود المنظمة وغيرهم . فلما سمع السلطان الضوضاء ، وسأل عنها ابهم عليه ، واخفي السبب حتى اتم المفسدون غايتهم ، فابطلوا النظام العسكري الجديد ، ثم خلعوا السلطان نفسه خوفاً من ان يعود اليه . » وذلك سنة ١٢٢٢ هـ = ١٨٠٧ م .

وهذه حادثة ثانية اقرب الينا من الاولى : **« لقد شاء السلطان محمود الثاني (١٨٠٩-١٨٣٩م) ، جرياً على سنة التجدد التي سار عليها ، ان يتفقد مملكته . ولما قصد الى الروملي احتاط رجال الدولة للامر ، فلم يصل الى مسامعه الا الثناء العاطر والشكر الوافر على الادارة**

---

١ — محمد فريد . تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ؛ ١٩٤

والمديرين ، وغمروه بالحفاوات فلم تجد سفرته شيئاً . »[١]

على ان الضرر الاشد الذي نجم عن تحجب السلاطين هو الذي وقع من جراء تخليهم عن قيادة الحملات الحربية ، لان هذا التخلي ، الذي أفسد الانكشارية ، كما قلنا ، وكانوا عصب السلطنة ، افسد معهم سائر الجيش . اجل فان قيادة السلاطين للجيش اثناء الحروب كان لها اثر بالغ في تقرير المصير . والادلة على ذلك تكاد لا تحصى . وهذا واحد منها رواه لافاليه بمناسبة الحرب التي كانت قائمة بين السلطان ياوز سليم والشاه عباس ، قال : « **كان الجيش العثماني كثير التافف من هذه الحرب القاسية والتذمر ، وتمرد قسم منه ولم يلحق بالحملة . ثم ازدادت الحالة سوءا حينما تجرأ الانكشارية على طلب الرجوع بصراحة الى ثكناتهم . ولكن ما ان برز السلطان امامهم ، وطفق يؤنبهم ويقول لهم : « على الجبناء ان ينفصلوا عن اصحاب القلوب الكبيرة الذين اعدوا انفسهم لقتال الاعداء . » ما كاد السلطان يقول هذا حتى ارتد الحماس والنشاط الى الجيش كله ، وزحف شطر تبريز** [٢] » وانتصر على الشاه في واقعة شالديران ١٥١٤ م .

والى هذا فلما تعاقبت هزيمة الجيوش التركية في اوروبا امام الدول المتحدة ، التي كان على رأسها امبراطور المانيا والنمسا اشار بعض اهل الرأي على السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م) بان يعود الى سنة اجداده فيقود بنفسه الجيوش . وما ان فعل وسار الى بلغراد ، ومنها الى ميدان الحرب حتى ثارت الحمية في الجيش ففتح قلعة ارلو الحصينة ، التي كان السلطان سليمان قد عجز عن تذليلها سنة ١٥٥٦م ، ودمر جيوش المجر والنمسا تدميراً[٣] .

ووقع مثل ذلك ايضاً في عهد السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ ــ ١٦٢٢) : فقد اشرف هذا السلطان بنفسه على ادارة السلطنة فاستقام امرها . ثم قاد جيوشها حتى فتح مدينة تبريز عاصمة فارس . ولكن ما ان تخلى عن القيادة وترك الجبهة حتى كر الفرس على جيشه واخذوا يطاردونه . ثم عاد السلطان كرة اخرى للقيادة فعاد النصر لصفوفه[٤]

كذلك فقد توالت هزائم الجيوش العثمانية في عهد السلطان مصطفى الثاني (١٧٣٠ ــ ١٧٥٤م)

---

1 - A du Velay . Essai sur l'histoire financière de la Turquie P. 78

2 - Lavallée . Histoire de la Turquie T. I. P. 295

٣ ــ تاريخ جودت باشا صفحة ٥٢

٤ ــ محمد فريد . تاريخ الدولة العلية العثمانية ص: ١١٨ ــ ١٢٢

امام الدول المتحدة : بولونيا وروسيا والمجر، ولكن ما ان نشط السلطان ، وسار بنفسه الى ساحات الوغى حتى تبدل الموقف واصبح النصر حليف تركيا .

والواقع انه لا حاجة لايراد الامثلة على فوائد قيادة السلاطين لجيوشهم بانفسهم، هذه الفوائد الجلى التي كان من المنتظر لتركيا ان تجنيها ، من قبل ، اي عهد الارتقاء ؛ ولكنها اضاعتها من جراء تحجب السلاطين فيما بعد وتخليهم لغيرهم عن قيادة الجيوش اثناء الحروب ، واضاعت معها اخلاق رجال الحكم بفعل هذا التحجب. اجل فان الاحتجاب عن الناس حوّل مجاري افكار السلاطين عن الشؤون العامة الى اللهو في قصورهم والانغماس في الملذات تاركين مهام الامور الى دخلاء وخلطاء كانوا ، في اكثر الاوقات ، غير مخلصين ، وكان بعضهم عمالاً للاجانب ، يوجهون دفة الحكومة وفقاً لاهوائهم . وما اكثر عدد ملوك آل عثمان الذين تركوا مهام المملكة الى هؤلاء الدخلاء ؛ ثم هم لم يعودوا يفكروا بشيء من التبعات الملقاة على كواهلهم . فاثناء ما كانت السلطنة غارقة في حروب غير موفقة اثارتها عليها فارس كان السلطان محمود الاول (١٧٣٠ ــ ١٧٥٤) لا همّ له الا اشادة القصور وتزيينها واختيار اسمائها . فهذا قصر السعادة ، وذاك قصر الانشراح ، وذلك قصر الربيع ، وهلم جرا . وكان على الصدر الاعظم ان يؤمن لجلالته النفقات الباهظة بالتقتير على الجنود في ساحات الوغى ؛ لذلك فما استقام له امر،[1] ولا بدع :

فمن رعى غنماً في ارض مسبعة　　　وغاب عنها تولى رعيها الاسد

☆

تبذير السلاطين

كان آل عثمان في صدر دولتهم شديدي التقشف والاقتصاد ، وعلى شيء كثير من بساطة العيش شأن الشعوب التي هي قريبة العهد من البداوة . فلما مات السلطان عثمان ، مؤسس السلطنة ، لم يخلف من المتروكات سوى ثوبين وفرس .[2]

غير انهم ما ان اتخذوا قسطنطينية قاعدة ملكهم ، واختلطوا بالبيزنطيين حتى غلبت عليهم

---

١ ــ في عهد هذا السلطان تولى الصدارة محسن زادم عبد الله باشا وهو سوري من حلب

٢ ــ تاريخ ملوك المسلمين صفحة ٩١

مدنية العنصر المغلوب المحكوم.

« **فالتقاليد والعوائد والاشكال والمناهج الادارية والمالية والبلدية ، فضلا عن اصول (التشريفات) كل ذلك وغيره قد اقتبسوه عن البيزنطيين حتى يمكن ان يقال انهم قلدوهم في حياتهم الاجتماعية جملة واحدة** » . [١]

ونظراً لان مدنية الروم الشرقيين كانت قد منيت بالفساد وقتئذ ، وكان فسادها هو الذي افضى الى سقوط دولتهم ، فان الترك وان استفادوا شكلاً من النظام الدولي ومن اداب السلوك والمعاشرة الاجتماعية الا انهم خسروا اخلاقهم ، وفقدوا « **روحهم الطيبة ، فضلا عن العاطفة الدينية ، وسائر الصفات التي تحيا بها الامم .** » [٢]

وكان في جملة ما اضاعه العثمانيون بسبب اقتباس مدنية بيزنطة تلك البساطة في عيشهم ، وذلك الاقتصاد في حياتهم . بلى وما اتى عليهم الا جيل واحد في القسطنطينية ، حتى عمّ البذخ بينهم ، وغمرهم الترف الى حد « **ان محيط اهل الغرب اصبح في عهد السلطان سليمان القانوني على شيء كثير من الحقارة بالنسبة لمحيط القسطنطينية** » كما صرح بذلك المؤرخ لافاليه في تاريخ تركيا .

على ان ما بلغته السلطنة في ذلك الحين من الاتساع والثروة كان يجعلها في مستوى لا تتأثر معه باي اسراف وبذخ وتبذير . ولكن ما ان شرعت تنحط وتتدهور ، واخذ جيرانها الطامعون الحاقدون يشنون عليها الحروب المتواصلة ، ويثيرون الفتن ، في بلادها الشاسعة ، حتى صارت تتأثر من كل اسراف ، وتنوء تحت اثقال سلاطين وامراء وحكام اعتادوا البذخ ، وموظفين خصوا انفسهم بباهظ المرتبات ، ثم هم لم يراعوا حالة عسرها ، بل ظلوا يواصلون استنزاف دمها : خزنة فارغة وحكام متطلبون فما الحيلة ؟... ولما لم يجدوا مخرجاً لذلك المأزق الخشن خفوا لمصادرة الاغنياء ، ولتخفيض مرتبات صغار الموظفين ، وللشح على الجنود ، فكانت الفوضى ، وكانت الرشوة ، ثم كان الخراب فالزوال ، ولا بدع « **فالظلم ان دام دمر .** »

. . . . .

لما رفع الانكشارية السلطان سليم الاول الى العرش (٩١٨ هـ = ١٥١٢ م) كافأهم بتوزيع

---

1 - Lavallée, Histoire de la Turquie T. I. P. 280
2 - Drapper, Histoire du developpement intellectuel de l'Europe. V. II P.340

العطايا الكثيرة ، فاصاب كل واحد منهم ثلاث الاف اقجاية . ومنذ ذلك اصبحت هذه العطايا تقليداً متبعاً تمنح عند مبايعة كل سلطان جديد .

وقد جرّت هذه العادة البلايا على السلطنة ، خصوصاً في ايام عسرها ، وذلك لان عدد الانكشارية كان قد ازداد كثيراً في حين ان الضائقة المالية كانت قد غمرت الدولة . ولان اولئك الاجناد ، رغبة منهم في هذه العطايا ، صاروا يعمدون الى خلع بعض السلاطين دون ما سبب ، ويولون سواهم . على ان هذه العطايا اخذت تتزايد يوماً بعد يوم ، واصبحت من قبيل الرشوة والتغرير .

لقد كان مااصاب الانكشارية من عطايا السلطان محمد الثالث نحو ستماية الف دوكا ؛ ولكنهم لما خلعوا ، بعد ذلك ، مصطفى الاول ، ونصبوا عثمان الثاني مكانه وزع عليهم السلطان الجديد ستة ملايين دوكا .

وصارت هذه العطايا في نظر الانكشارية كحق مكتسب ، واذا ما حاول احد السلاطين منعها كانوا يثورون عليه ، ويعربدون الى ان يرضخ لارادتهم . وهذا ما حدث للسطان سليم الثاني .

وظلت هذه العادة متبعة تشغل عاتق الحكومة سنين عديدة حتى ولي السلطان عبد الحميد الاول (١١٨٨ هـ =١٧٧٤م) الذي وجد له بالحرب التي كانت مستعرة مبرراً في الغائها ، ولا سيما لفراغ الخزنة حيال الحاجة الماسة للمال .

. . . . .

على ان اللوم الموجه للسلاطين في صدد التبذير لم يكن ناشئاً عن اسرافهم في الاعطيات التي اصبحت اضطرارية ، وانما هو يوجه اليهم ، في الواقع ، من جراء نفقاتهم دون حساب على قصورهم وافراحهم وعلى كل شؤونهم الخاصة . من ذلك نفقات السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ ــ ١٦٠٣) على حفلات اقامها بمناسبة ختان نجله ، وظلت قائمة مدة شهرين في العاصمة ، والناس تتقاطر اليها من اطراف البلاد . فلقد اثقلت هذه الحفلات عاتق الخزنة . حتى تسرب الخلل الى الجيش بسبب نقص الاموال التي كانت معدة له ، وانفقت في غير سبيلها .

هذا فضلا عن ان مخصصات السلاطين في ميزان الدولة كانت تبلغ رقماً عالياً لا تتناسب ، في حال من الاحوال ، مع العسر الذي اصبح يتفاقم ، ولا تتلاءم مع حاجات السلطنة الملحة للاستعداد الحربي والاصلاح : ففي عهد السلطان محمد الرابع بلغت موارد الدولة سنة (١٠٦٢ هـ =١٦٥٢ م) ٥٠٠،٧١١،٤٩٢ اقجاية . وكان يذهب ثلث هذه الموارد على نفقات السلطان ؛ وهذا بعضها :

١٢،٨٤٨،٠٠٠	المخصصات للحرم السلطاني واولادهن واغوات الحرم
٥،٠٣٨،٣٦٥	« للوكلاء على خيم السلطان والسقاة
٢٢،٤١٥،٣٨٨	« لمواكبي السلطان والحرس والسقاة
٨،٦٠٠،٠٠٠	« للمطابخ السلطانية
٦،٦٢٦،٣٩٢	« للحطب وثياب الخدم
٨،٠٦٥،٧١٢	« للاسطبلات
١،٥١٦،٢٨٨	« للعلف والشعير
١٣،٠٠٠،٠٠٠	« للحوم والمآكل
٧٨،١١٠،١٤٥	اقجاية

يضاف الى ذلك ان قيمة الفرو الذي كانوا يبتاعونه كل عام للحرم كانت تعادل ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ اقجاية، واثمان الالبسة والفروشات ١٨،٣٨٦،٠٣١ اقجاية. هذا فضلاً عن جملة ملايين كانت تنفق على الحدائق السلطانية التي لم يكن فيها اقل من اثني عشر الف بستاني [1]

حتىٰ ان السلاطين اضطروا، من بعد، لانقاص نفقاتهم الخاصة تحت تأثير العسر المالي، ولا سيما منذ قضى السلطان محمود الثاني على جيش الانكشارية وقام بتنظيم الجيش النظامي وبعض اصلاحات تجددية؛ غير ان مخصصاتهم ظلت، مع ذلك التخفيض التوالي، عظيمة بالنسبة لميزان السلطنة المالي.

وبحسب « الميزانية » التي وضعها اوبيسيني [2] على اساس تقديرات كور Cor، اذ لم تكن للسلطنة ميزانية، فان المخصصات للسلطان وحده عبد المجيد، (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) كانت تتجاوز عشرة في المئة من دخل الحكومة العام: فقد كانوا يقدرون هذا الدخل، وقتئذ، بثمانية ملايين واربعماية الف ليرة ذهبية افرنسية، وكانت مخصصات السلطان منها تبلغ ٨٦٢،٥٠٠ ليرة ذهبية افرنسية. بينما ان مرتبات موظفي الدولة جميعهم كانت لا تدرك هذا الرقم، وفي حين ان مخصصات وزارة الحربية كانت لا تتعداه؛ كما ان ايّ مخصص لأية دائرة من دوائر الحكومة كان يقل عنه.

ولو وقفت نفقات السلطان عند هذا الحد لهان الامر، ولكن البادشاه كان كثيراً ما يأمر

1 - K. Kanem. les Sultans Ottomans T. II P. 12

2 - M. A. Ubicini . La Turquie actuelle P. 75

بصرف اموال لا تدخل في مرتب جلالته، وذلك لاشادة القصور واقامة الحفلات والافراح. وكان على الخزنة مهما كانت في عسر، ان تؤمن هذه النفقات. ولما عقد قران علي غالب افندي على كريمة السلطان عبد المجيد قدرت نفقات الافراح باربعين مليون فرنك ذهبي. وكانت السلطنة آنذاك قد لجأت الى اوروبا لعقد اول قرض قصد الانفاق على حرب القرم؛ فضلاً عن تأديب الثائرين في الهرسك والبوسنه والجبل الاسود ولبنان، وبغية القيام بالاصلاحات التي وعدت بها، فاضطرت الحكومة، بعد ان هدرت الاموال في سبيل الافراح، ان تلجأ ثانية لاوروبا لعقد قرض آخر؛ وما تمّ لها ذلك الا بشروط مجحفة جداً [1].

وابان ما كانت السلطنة تلجأ الى اوروبا في طلب القرض اثر القرض، وتجد كثيراً من الصعوبات في تأمينها تخلصاً من العسر المالي، أمر السلطان عبد المجيد بتشييد قصر «**طولمه بغجه**» الذي كلف سبعين مليون فرنك ذهبي. ولما اكتمل بناؤه وزخرفه سأل السلطان مدير الخزنة الخاصة عن مقدار ما كلف القصر، فأجاب بتواضع: «**مولاي صاحب الجلالة انه لم يكلف الا مبلغاً زهيداً: لقد كانت ثلاثة الاف وخمساية قرش كافية له !!!**»

وكان المدير يريد ان يقول ان الخزنة لم تخسر الا مقدار قيمة الورق، واجرة المطبعة، لاصدار كمية من الاوراق المالية كانت تعرف باسم (**القائمة**) [2].

على انه مهما قيل عن السلطان عبد المجيد فهو يسير ازاء ما يروى عن تبذير خلفه السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦م). ولا بأس ان ننحدر الى مطبخه ونسمع ما يرويه عنه المؤرخون: قيل انه كان يطبخ فيه كل نهار خلال ايام كثيرة، خمساية رأس من الغنم، ويستهلك فيه يومياً من الف وخمساية الى الفي اقة من السمن بالاضافة الى مقدار كبير من البقول واللبن والفواكه والحلوى، مقدار اذا ذكر يكاد ان لا يصدق. اما اللبن فما كانت القسطنطينية وما حولها تنفق منه طيلة شهر بمقدار ما تبدده السراي في يوم واحد. هذا فضلاً عن الشعير والتبن التي تحسب على الاسطبلات بمقدار يزيد اضعافاً مضاعفة عما يستهلكه دواب جملة فصائل من من الخيالة [3].

على ان التبذير الذي صدر عن السلطان عبدالعزيز ابان زيارته مصر (١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢م)

---

1 - Kalil Ganem. Les Sultans Ottomans T. II. p. 244
2 - A du Valey. Essai sur l'histoire financière de la Turquie P. 124
3 - K. Ganem Les Sultans Ottomans p. 268 - 269

وباريس (١٢٨٤هـ = ١٨٦٧ م) ، واثناء ما زارت القسطنطينية الملكة: اوجني زوجة نابليون الثالث (١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ م) فقد كان فوق المعقول حتى ادهش الناس عامة، والعقلاء خاصة، ولا سيما اولئك الذين يعلمون حالة الخزنة من العسر. ويعرفون انها كانت بسبب افلاسها تدفع فوائد باهظة بلغت ٢٥٪ اوائل سنة ١٨٧٤[1].

ولا ريب في ان هذه الحالة الشاذة كانت لا ترضي احداً حتى ان السلطان مراداً بن عبد المجيد (١٨٧٦ — ١٩٧٦) لم يسعه الا ان يعلن في الفرمان الذي نشره عقب توليه الملك انتقاده للاسراف، ورغبة جلالته في تخفيض المخصصات السلطانية. قال: «**لما كانت المصالح الاميرية هي احدى الامور العظيمة التي اوقعت الدولة في المشاكل كان من الواجب ادخال المعاملات المالية تحت التأمين. اي انها تربط بقاعدة وثيقة، وتوضع تحت نظارة قوية تمنح على العموم تأمينا على عدم صرف اي مبلغ خارج عن الميزانية. ومساعدة لهذا التدبير قد نزلنا من تخصيصات خزينتنا الخاصة ستين الف كيس. وتركنا كذلك الى خزينة المالية ادارة معدن الفحم في اركلي، وسائر المعادن وبعض المعامل وحاصلاتها باجمعها. فبناء عليه يلزم الاعتناء كذلك باجراء مثل هذه التعديلات والتصرفات في سائر الجهات تسهيلا لحصول الموازنة في الامور المالية**»[2]

ولا ادري أكان السلطان مراد، يحقق ما نشر، فيما لو طال حكمه. ام انه كان يجري مجرى اسلافه ومجرى خلفه السلطان عبد الحميد الثاني الذي وعد ولم يف. فلقد امر عبد الحميد بالاصلاح المالي في الخط الهمايوني الذي اعلنه سنة ١٨٧٦ بمناسبة تنفيذ القانون الاساسي، اذا استهل الخط الهمايوني بهذه العبارة: «**ان التدنيات العارضة منذ ازمان على قوة دولتنا الصلبة نشأت عن الانحراف عن الطريق المستقيمة في ادارة الشؤون الداخلية اكثر مما نشأت من العوائل الخارجية.**» ونوه بالاصلاح والاقتصاد ايضاً في خطبة العرش يوم افتتاح البرلمان العثماني، ولكنه لم يفعل وتمادى كاسلافه في التبذير، حتى كأن هذا المرض اصبح عضالا لا طاقة للسلاطين بالتخلص منه.

ان خوف السلطان عبد الحميد على حياته كلف الخزينة زيادة عما كانت تبذله على القصور السلطانية، والعطايا الشاهانية اموالا كثيرة لم تكن في الحسبان: فقصر يلديز، الذي اعده السلطان مسكنا له وجعله جنة ومعقلا في وقت واحد، كلف الخزنة الملايين. كما ان العطايا

---

1 - A du Valey. Essai sur l'histoire financière de la Turquie p. 246 - 301

٢ — محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية صفحة ٣٢٥

والمرتبات التي كان يأمر بها جلالته للمريدين، وللجواسيس كانت تزيد العسر عسراً.

هذا الى ان السلطان خلق في سبيل الاسترضاء وظائف لاحاجة بها، وفصائل اضافية الحقها بحرسه، كما زاد الرواتب لصنائعه، ولكبار الدولة: **« كان راتب الصدر الاعظم الشهري ٣٠٠ ليرة عثمانية (ذهبية) فجعله ١٢٠٠٠ . وكانت رواتب سائر الوزراء لا يتعدى كل منها ٢٥٠، فرفعها الى ٥٠٠ ، وجعل راتب شيخ الاسلام ٦٠٠ ليرة ذهبية ، وفرض الرواتب المشايخ كابي الهدى والشيخ ظافر »** [1]

ولم يقتصر السلطان على دار السلطنة في اجراء الرواتب على المريدين، بل عممها في الولايات.

. . . .

ولسنا نزعم اننا قديرون على وصف قصور حرم السلاطين حق الوصف وتعداد ما كان فيها من زوجات ومحظيات وسرار وخدم، فضلاً عن الخصيان البيض والسود، وما كان فيها من رياش ثمين، وامتعة فاخرة، وجواهر مكنونة نفيسة. لذلك فاننا نقتصر على الاشارة الى ما دوناه فيما بعد، في الفصل الرابع من هذا الكتاب، عند الكلام على حاشية السلطان عبد الحميد الثاني الداخلية، مع التنويه بان عدد النساء اللواتي كن في قصور « طوغان » و« طوله بغجه » عهد السلطان عبد المجيد، بلغ الفي امرأة.

فهذا التبذير ابان عسر الخزنة جاء ضغثاً على ابالة خصوصاً وانه قد اتى بعد تحجب السلاطين في قصورهم، وما نتج عن ذلك الاحتجاب من حرمان الصاعدين الى العرش من الكفاءات، واتى ايضاً، بالاضافة الى اقبال السلاطين على تعدد الزوجات واصطفاء الاجنبيات اللواتي كن يعملن للدول الاجنبية، فتضافرت هذه العوامل على زعزعة اركان السلطنة حتى افضت بها الى الزوال.

---

١ ـ مجلة الهلال سنة ١٧ صفحة ٥٨٨

٢

الوزراء

ليس الوزراء دون السلاطين مسؤولية في تحمل تبعات الحكم. واذا كان الانتقاد يوجه الى السلاطين من جراء اهمالهم شؤون الدولة في السلم والحرب وتركها الى الوزراء، وبسبب اصدار اوامرهم من عل، دون التحقق من عواقبها، فان الوزراء مسؤولون كذلك مباشرة عن ملك وكل اليهم، وشعب صار رعية لهم. ومسؤولون ايضاً عن ميعانهم اذ كانوا حكاماً، وذلك حباً في التقرب من السلاطين، يمالئونهم ويصانعونهم ويعنون بتنفيذ اوامرهم مهما كانت ضارة، ثم هم يخفون عنهم الحقائق بغية ادراك اهدافهم الخاصة.

نحن لا نجهل انه قد تعاقب على كراسي وزارات السلطنة كثيرون من الاكفاء المخلصين، كآل الكوبرلي، وكوجك حسين باشا، ومحمد صقللي باشا، ومصطفى البيرقدار باشا، فضلا عن الذين خلفوهم امثال رشيد باشا، وعالي باشا، وفؤاد باشا، ومدحت باشا. ولكن هؤلاء الذين نجلّهم ونستثنيهم كانوا بالنسبة لغيرهم كوميض برق في ظلام دامس. اما السواد الاعظم ممن تولوا الوزارات فكانوا احد رجلين: امّا جاهل اوصلته الظروف الخاصة، واكثرها عن طرق غير شريفة، الى مرتبته العالية، فخبط فيها خبط عشواء، تاركاً لغيره زمام امور الدولة. واما كفؤ كان محروماً من الصدق والاخلاص، واذا عمل فانما يعمل لنفسه.

وعلى هذا الاساس نعالج الموضوع.

☆

جهل الوزراء ومفاسدهم

كان القرن الثالث عشر الذي نشأت فيه دولة آل عثمان، والقرن الذي تلاه حيث عظم شأنها، زمني فترة في تاريخ المدنيات العالمية. ذلك لان المدنية العربية الاسلامية كانت، ولاسيما في الشرق،

قد تركت الميدان لجهالة مظلمة كاسحة ، بينما كانت المدنية الغربية الحديثة لاتزال في المهد. وهذا ما حمل المؤرخين على اطلاق اسم «**القرون المظلمة**» على تلك الحقبة التي سبقت التمدن الحديث.

وفي مثل تلك الحقبة كان غير مستغرب تغلب قبيلة من البدو الرحّل على الامارات المجاورة لها ، خصوصاً بعد ان تسنى لها ان تجد في الاسلام مهدياً وموجهاً ، وفي اصول الحكم التي ورثتها عن الدول العربية مرشداً. وكان غير مستغرب ايضاً ان تجد في فساد مدنية بيزنطة ، اواخر ايامها ، عوناً على اكتساح هذه الامبراطورية التي كانت رابضة في البرزخ الذي يصل بين الشرق والغرب.

حدث هذا اثناء ما كانت اوروبا الغربية ميدان عراك افكار ومبادىء بين القديم والحديث اثر تسرب المدنية العربية اليها بواسطة اسبانيا وصقلية والحروب الصليبية. او بكلمة اخرى ابان ما كانت جراثيم الحياة المدنية قد انتشرت في اصقاع اوروبا مع انتشار العلوم والمبادىء الاسلامية. ذلك انه لما استولى آل عثمان على قسطنطينية غادرها الى اوروبا الوسطى والغربية رجال كانوا لا يزالون يحتفظون بعلوم روما واليونان. وهم غير بعيدين عن البعث الاسلامي. فأفضى انتشار هؤلاء العلماء في اوروبا الى رجحان كفة التجدد على الجمود ، رجحاناً اوحى الى بعض المؤرخين ان يعتبروا دخول القسطنطينية في حوزة آل عثمان بداية عهد التمدن الحديث.

وبينما كان هذا التمدن ينضج ويختمر بسرعة ، وتنشأ خلاله دول قوية على الاصول العلمية والفنية ، كان آل عثمان قد شيدوا ملكهم على انقاض الامبراطورية البيزنطية ، وشرعوا ينعمون في مفاسد بيئتها التي قضت على اصحابها. وهم على غرورهم وكبريائهم ، يعتقدون ان عناصر القوة التي حققت لهم امانيهم العسكرية خلال الاجيال الماضية لاتفتأ صالحة للمحافظة على فتوحاتهم وصيانة امجادهم. على حين ان التقدم المطرد عند اخصامهم اصحاب التمدن الحديث كان يجعل معدات العثمانيين واستعداداتهم قديمة لا تصلح للنضال في الحياة الجديدة. اضف الى ذلك انه بينما اخذت اوروبا تعتمد على التخصص في العلوم والتبحر ، وصارت تتكل على ارباب الاختصاص وحدهم في جهازها الحكومي وقواها الحربية حمل الغرور تركيا على اهمال هذه القاعدة. خصوصاً مذ تحجب سلاطينها وتلهوا في قصورهم ، وتركوا للحاشية فرصة سانحة لتوزيع المناصب فيما بينهم ، واسنادها الى المقربين اليهم.

قال جودت باشا : «**كان منصب الصدارة لا يسند الا الى الوزراء الذين يثبتون لياقتهم بالكفاءة والاخلاق ، اولئك الذين تولوا تباعا المناصب الكبرى ، وتدرجوا من امارة السنجق ، فأمارة الامراء ، فأمارة امراء الاناضول ، الى امارة الروم ايلي. غير ان حضرة**

السلطان سليم خان حاد عن هذه القاعدة الثمينة ووجه مقام الصدارة مباشرة الى ابراهيم اغا (خاص اوطه باشي) رئيس غرفته الخاصة .

ونظراً لان السلطان المشار اليه كان هو القيم على الدولة ، وما الوكلاء الا كآلات بيده لم يظهر اي اثر سيء ، في زمانه ، عن تولي الصدارة رجل غير اهل لها ، غير ان الضرر لم يلبث ان ظهر من بعد جلالته ، حينما اخذ خلفاؤه يحتذون حذوه في نصب من يشاؤون على الوزارات من الشبان الذين لم تسبق لهم تجارب ، ولم يعرفوا شيئاً من اصول الحكم . وكان هؤلاء ، اعتزازاً منهم بما كسبوا من اقبال الحضرة الشاهانية ، يتصرفون بالاحكام على اهوائهم دون الرجوع الى اهل المعرفة ودون الاستناد الى القانون . » [١]

على ان السلطان سليمان القانوني المشار اليه (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) لم يقتصر في هذه البادرة على ابراهيم آغا ، بل شمل آخرين من الخدم بهـذا العطف الملوكي : فخسرو باشا الذي كانت وظيفته في القصر محصورة بتذوق طعام السلطان قبل تقديمه الى جلالته نصبه اميراً للامراء اي والياً عسكرياً . وكان بمفاسده من العوامل التي انهكت جسم السلطنة . وجرى السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤ م) مجرى ابيه سليمان في ايكال مهام الدولة الى بعض الخدم الجهلاء والجنود المقربين ، فنصب احد اغوات الانكشارية اميراً على الاسطول . فكانت النتيجة ان الاسطول لم يلبث الا قليلا حتى التهمته النـيران في مرفأ اينابختي بسبب جهل هذا الامير .

ثم ان السلطان محمود الاول (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤ م) نصب احد اخصائه من الشراكسة الارقاء مكان حكميزاده في الصدارة العظمى . خلال الحرب التي كانت ناشبة بينه وبين فارس فساء المصير . كما ان السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٧٤) عين (قيزلر آغاسي) اي آغا البنات في السراي مديراً عاماً للاوقاف !

واذا تساءلت عن المؤهلات التي رفعت الآغا المشار اليـه الى هذه الادارة الواسعة فلا يسعني الا ان اصارحك قائلا : انه كان يتمتع برضا بنات القصر ! وماذا ترى يحتاج للرفعة اكثر من هذا الرضاء ؟ هذا ولقد ذكر اوبيسني في سيرة رضا باشا الذي بلغ مرتبة القيادة العليا في الجيش العثماني ان السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ ـ ١٨٣٩) كان يسير في سوق مصر باستامبول فوقع نظره على شاب يقف في دكان تلوح على وجهـه الحسن امارات الذكاء . فتوقف السلطان عنده وسأله عن اسمه . ثم قال له : « **اتبعني يا رضا بك** » . فكان محظياً في القصر ، ثم تدرج في مناصب

---

١ ـ تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ١٠٣

الجيش حتى اصبح (سر عسكراً) وكان هو نفسه القائد الاعلى، في حرب القرم سنة ١٨٥٤ للجيوش العثمانية [2]. ويظهر ان سوق مصر باستامبول انبتت اكثر من واحد من رجالات السلطنة : فقد قرأت في «سالنامة ازمير» المطبوعة سنة ١٣٠٣ هـ ان محمد امين عالي باشا الذي تقلد منصب الصدارة العظمى اربع مرات في حكمي السلاطين عبد المجيد وعبد العزيز هو ابن علي رضا افندي احد تجار هذا السوق.

وهاك جدولا وضعناه ودرجنا فيه الذين وصلت الينا انباؤهم ممن تولوا منصب الصدارة العظمى، وكانوا من قبل خداماً في القصور.

الاسم	المهنة السابقة	في مدة السلطان	تاريخ صدارته		تاريخ انفصاله
خادم علي باشا	خادم في القصر	بايزيد الثاني	٩٠٧	هـ	٩٠٩
قوجه مصطفى باشا	من مشائخ القصر	محمد الفاتح	٩١٧	»	٩١٨
خادم سنان باشا	خادم في القصر	ياوز سليم	٩٢٠	»	٩٢٣
ابراهيم باشا	اوطه باشي السلطان	سليمان القانوني	٩٢٩	»	٩٤٢
خادم سليمان باشا	خادم في القصر	سليمان القانوني	٩٤٧	»	٩٥١
خادم مسيح باشا	خادم في القصر	مراد الثالث	٩٩٣	»	٩٩٣
لاله محمد باشا	مربي السلطان	سليم الثاني	١٠٠٤	»	١٠٠٤
خادم حسن باشا	خادم في القصر	محمد الثالث	١٠٠٥	»	١٠٠٥
يوله محمد باشا	مربي السلطان	احمد الاول	١٠١٣	»	١٠١٥
قره ابراهيم باشا	خادم فراري مصطفى باشا	محمد الرابع	١٠٩٥	»	١٠٩٧
عربه جي علي باشا	سائق عربة	احمد الثاني	١١٠٢	»	١١٠٣
دال طبان مصطفى باشا	خادم قره ابراهيم باشا	مصطفى الثالث	١١١٤	»	١١١٤
محمد باشا البلطه جي	كان حطاباً في القصر	احمد الثالث	١١١٦	»	١١١٨
خوجه ابراهيم باشا	احد مشائخ القصر	احمد الثالث	١١٢٥	»	١١٢٥
عوض حاجي محمد باشا	احد الاغوات	محمود الاول	١١٥١	»	١١٥٣
داوتدار محمد باشا	مأمور دواة الداماد ابراهيم باشا	محمود الاول	١١٦٣	»	١١٦٥
سعيد محمد باشا	اول من زاول مهنة الطباعة بتركيا	عثمان الثالث	١١٦٩	»	١١٦٩
علي مولود قاندجي	كان بستاني القصر	مصطفى الثالث	١١٧١	»	١١٧٢

1 - M. A. Ubicini. La Turquie actuelle p 181

الاسم	المهنة السابقة	في مدة السلطان	تاريخ صدارته	تاريخ انفصاله
محمد امين باشا	ولد احد باعة المناديل	مصطفى الثالث	١١٧٣هـ	١١٧٤
قلفات محمد باشا	بلغاري الاصل كان مزارعاً عند روستجقلي جلبي محمد	عبد الحميد الاول	١١٩٥هـ	١١٩٣
غازي حسن باشا	احد الجنود	سليم الثالث	١٠٢٣هـ	١٢٠٤
حلمي ابراهيم باشا	اغا الانكشارية	« ومصطفى الرابع	١٢٢١هـ	١٢٢٢
بوستانجي باشي عبدالله باشا	بستاني	محمود الثاني	١٢٣٨هـ	١٢٣٨

ويوجد كثيرون غير هؤلاء بلغوا منصب الصدارة العظمى وكان من رجال الجيش ؛ ومنهم سلحدار محمد باشا (١١٤١ — ١١٤٣ هـ) وسلحدار سيد محمد باشا (١١٤٨ — ١١٥٠ هـ) وسلحدار ماهر حمزه باشا (١١٨٢—١١٨٣ هـ) وسلحدار محمد باشا (١١٨٤ — ١١٨٥ هـ) وسلحدار محمد باشا (١١٩٣ —١١٩٥ هـ) وسلحدار مصطفى باشا (١٢٢٣ — ١٢٢٣ هـ) وسلحدار علي باشا (١٢٣٩ —١٢٤٠ هـ) وغيرهم

وبعد فان سلطنة متسعة الارجاء ، كثيرة العناصر والاديان على قدر كثرة الاعداء التي مقاليد شؤونها العامة الى رؤساء وزارات هذا منشؤهم وهذه كفاءآتهم اي مصير ينتظر لها ؟

سؤال لا يختلف في الجواب عليه اثنان ، خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار التقـــدم الفني والعسكري والميكانيكي الذي بلغته اوروبا في هذه الحقبة ، وذكرنا ان اوروبا هذه كانت تعتبر تركيا دخيلة في قارتها ، وعدوة لها في الدين ، وكانت تصليها حروباصليبية متتابعة باسم **«الاتحاد المقدس»** ولقد كانت تلك الحروب نضالا بين العلم والجهل . وبعد فلمن تكون العاقبة ؟

لقد جاوب على هذا السؤال القرآن الكريم حيث قال :

١ ــ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟

٢ ــ ان الارض يرثها عبادي الصالحون

هذا ولا بأس من التحدث عن نوادر هؤلاء الوزراء الذين ألقيت على عواتقهم مقاليد السلطنة فهووا بها الى محيطهم الذي ترعرعوا فيه : روى لافاليه المؤرخ الفرنسي قال : **«لما نشبت الحرب سنة ١٧٦٨ بين تركيا وروسيا ، خف سفير فرنسا الى الباب العالي لاعلامه عن ثورة في اليونان كانت على وشك الظهور بمساعي روسيا ، ولابلاغه بان روسيا اعتزمت سوق اسطولها الى بحر الارخبيل ، تجاه البـــلاد اليونانية ، امداداً للثائرين ، وتهديداً للعاصمة . وقد تلقى الوزراء هذه الانذارات ، التي نقلها رسول باريس ، بالهزء والسخرية ، وقيل له :**

« ايمكن للاسطول الروسي الذي يرسو امام بطرسبرج ان يصل الى استامبول ؟ » [١]

ولما قرأت هذا الخبر شككت في صحته قائلا ان هو الا واحد من الانباء المختلقة التي تصوغها مخيلة الكتاب الاوروبيين ؛ ولكني لم البث ان عثرت على ما يؤيده في المجلة التركية (دونما) [٢] تعليقاً على هذا الخبر : قرأت فيها ما يلي : **« على اثر تحـــذير سفير فرنسا الدولة عقد مجلس « فوق العادة » للمداولة في مضمون هذا الانذار ، وبعد البحث قرر المجلس ان لا قيمة لهذا الانذار اذ لا يوجد اتصال ما بين بحر البلطيك وبين بحر سفيد! » « وكفى المؤمنين القتال »**

ومن نوادرهم ايضاً تلك الحادثة المشهورة التي وقعت بين القائد العام محمد بلطه‌جي باشا وبين القيصرة كاترنيا : كان هذا القائد الذي اسند اليه مقام الصدارة العظمى مرتين في عهد السلطان احمد الثالث ، حطابا في النصر فساعدته الظروف ان يتزوج بواحدة من نسائه اللواتي كن رائجات في الحرم السلطاني ، وقد بلغ بواسطتها الدرجات العليا . وكانت روسيا قد اخذت على عاتقها اجلاء الاتراك عن شرقي اوروبا ، ولا سيما عن القسطنطينية ، فلا تترك فرصة الا وتثيرها حربا شعواء على السلاطين . وفي حرب من هذه الحروب استطاع قائد الجيش العثماني المشار اليه محمد ان يضيق الحصار على الروس في جوار نهر بروث (١١٢٣هـ = ١٧١١م) وعلى رأسهم القيصر بطرس الاكبر ورفيقته كاترنيا ، وما كان لهما سبيل للخلاص لولا ان هذا البلطه‌جي باشا لم يستسلم الى هذه السيدة الجميلة المغرية حينما دعته للخلوة والمباحثة . وما كاد يجتمع اليها حتى اصدر امره برفع الحصار عن الجيش الروسي ، فسلم الروس وعاهلهم من اسر لو تم لغير وجه التاريخ بالنسبة لروسيا وتركيا .

وكان شارل الثاني عشر ملك اسوج قد لجأ الى تركيا عقب ان دحره القيصر بطرس الاكبر في واقعة بولتافا قبل سنتين من هذه الحادثة ، وبقدر ما كان فرحه شديداً ، عندما بلغه نبأ القاء الحصار على القيصر ، انقلب فرحه الى حزن لما افلت هذا من الاسر . وقد علق احد المؤرخين على هذه الحادثة بما يلي : **« قيل انه لماوبخ ملك السويد المشار اليه محمد باشا البلطجي لاضاعته فرصة لا تسنح في الدهر مرة اخرى اجابه الباشا : « وماذا عساك تفعل لو كنت في موكزي ؟ » قال الملك : « كنت اسحبه اسيراً الى ادرنه » قال الصدر « اوت افندم » ولكن من ذا الذي يحكم روسيا في غيابه ؟ »** [٣]

---

1 - Lavallée . Histoire de la Turquie p. 211

٢ — دونما مجلد ١ صفحة ٢٥٥

3 - K. Ganem . Les Sultans Ottomans T. II. P. 66

ان هذا التعليق وان كان اقرب للتفكهة منه للحقيقة ، ولكنه ليس غريباً بالنسبة لاناس لاعهد لهم بادارة الدول ، ولا علم عندهم يرشدهم الى سواء السبيل ، وهم اولاد الصدف والظروف . الم يكن احدهم في شبابه حطاباً ام بستانياً ، او ممن يتقنون مهنة اضحاك السلطان وسراريه بالتهريج ، او خدمة الوزير وسراريه بالمؤامرات ، فاذ هو ، من بعد ، يصبح صاحب الأمر والنهي في السلم والحرب ؟ . وهذا ما اتاح المجال للكونت نسلرودة ناظر خارجية روسيا لان يظهر شفقته على الترك اعدائه لسفير انكلترا حيث قال سنة ١٨٤٢ :

« مساكين الاتراك . ليس لهم سياسة حكيمة لا في الشؤون الداخلية ولا في الشؤون الخارجية . ذلك لان رئيس المنجمين او الخصيان العبيد وامثالهم كثيراً ما يوجهون سياستها وادارتها الى حيث يشتهون[1] . »

هذا ولو ان مساوىء هؤلاء كانت تنحصر في حدود الجهالة لكان ضررهم محدوداً رغم ان الجهالة هي ام الكبائر . ولكن ضررهم لم يكن له حد نظراً لمنشئهم واصلهم : فما كان احدهم يتبوأ منصباً سامياً ، لم يكن يحلم به حتى يصير همه الوحيد استرضاء من فوقه ، واستمالة نساء القصر فيأتي ، في سبيل ذلك ، باعمال لا يجوزها قانون ، بل قد لا يجوزها الشرف ، كما يصبح هدفه الاخر خدمة اقربائه واصدقاء الصغر ، فاذا بهم يهرعون اليه من كل صوب ، بالاضافة الى اهل قريته . واذا بالوظائف يخسرها المستحقون لتسند الى الجهلاء والمنافقين .

وكان حديثو النعمة هؤلاء لا يستقر لهم قرار الا بتأمين حاضرهم ومستقبلهم فيصبح همّ احدهم ، وقد ساعده القدر بما لم يكن في حسبانه ، ان يجمع الاموال كيف ما اتفق الامر ليسترضي بها اولياء امره ، ولتكون عنده ذخيرة وعدة للمستقبل عملا بالقول « **خبىء الدرهم الابيض لليوم الاسود** » . وفضلا عن ذلك فهو يحرص على اخفاء ماضيه بالمظاهر البراقة التي يسدلها على حاضره : فيبذل في هذا السبيل بذل الامراء والملوك . وما من احد يجرأ على ان يقول له : « **من اين لك هذا ؟** »

ولنضرب مثلاً على ذلك مصطفى باشا الصدر الاعظم (١٦٧٦ ـ ١٦٨٣ م) : فقد كان في قصره ، على ما قيل ، ١٥٠٠ سرية و ٧٠٠ من الطواشية (الخصيان) وعدد لا يحصى من الخدم . واما خيول القصر وكلاب الصيد والطيور المختلفة فكانت تقدر بالآلاف[2]

واذا احتجنا الى مثال آخر فعندنا سركيس الارمني : قلفا السلطان عبد العزيز . فقد كانت

---

١ ـ تاريخ مشروطيت . ج ٢ ص ١٠٠

1 - LaVallée. Hre de la Turquie T. II. P 142

نفقاته تقدر بالملايين . وقيل انها كانت تكفي لتجهيز جملة كتائب في الجيش[١] ، وكان سركيس يستسلم لهذا التبذير بينما بلغ من افلاس الخزنة في عهده انها اضطرت لان تستقرض بفائدة ٢٥ في المئة سداً للعجز[٢] !!

وهذه المهازل في صفوف الوزراء اتيح لنا ان نشاهد امثالها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م) وان نشاهد بالتالي مغبة هذا الوضع الشاذ .

☆

خيانة الوزراء

لم تصب دولة بما اصيبت به السلطنة العثمانية من ضعف في وطنية كل من حكامها ورعيتها على السواء وذلك من جراء تعدد الدخلاء الذين قبضوا على زمام جهازها الحكومي ، وبسبب وفرة عناصر شعبها الذين رضخوا لها عنوة وبالقوة .

وان وفرة عناصر السلطنة يرجع الى اتساع نطاقها الجغرافي والى قيامها على انقاض ممالك مختلفة ، واما تعدد الدخلاء في جهازها الحكومي فيعود الى اسباب عدة اهمها ما يلي :

ا ـ لم يكن لبني عثمان عهد سابق بادارة الدول. فسرعان ما شعر طلاب المنفعة من الاجانب بما ينتظرهم عند هذه الدولة الناشئة من الاقبال والمنافع ، فتهافتوا عليها مذ قامت في الاناضول ، وتظاهر اكثرهم باعتناق الاسلام ، وبالاخلاص للترك. ثم لما فتح العثمانيون قسطنطينية ونقلوا اليها عاصمتهم وعمدوا الى التشبه بالبيزنطايين في اساليب الحكم وفي طرق المعاشرة والتصرف اقبل عليهم الاجانب من كل صوب ، ولا سيما من الامصار والامارات الاوروبية التي اصبحت تستظل برايتهم .

ب ـ ان حياة الترف والبذخ التي غمرت دار السلطنة في ايام عزها من جراء اتساع الفتوحات وتوفر الاموال جعلتها اكبر سوق عالمية للنخاسة ، واوسع مستودع للسراري والمماليك من كرج وجركس والبان وصقالبة وحبشان وسودان . ولما آل النفوذ الى اهل القصر السلطاني

1.- K. Ganem . Les sultans ottomans P. 268

2 - A. du Velay. Essai sur l'histoire financière de la Turquie P. 173 — 350

وساهم فيه الندماء والمخنثون والمحظيات فتح الباب امام اولئك المماليك والخدم للتسرب الى المناصب العليا شيئاً فشيئاً؛ وما ان ملكوا اعنتها حتى قربوا اليهم امثالهم وذويهم، واكثرهم من الطبقات المنحطة.

ج ــ كانت الانتصارات في حقبة من الزمن حليفة للانكشارية، ومعظمهم من غير الترك؛ فثارت فيهم شهوة الحكم، فاذا بهم يصبحون في اعلى مناصب السلطنة، واذا بهم يختصون ذويهم بها، وكلهم ليسوا على وطنية تردعهم، ولا على كفاءة تبرر عملهم.

فلهذه الاسباب اصبحت الامبراطورية العثمانية، ولا سيما بعد نقل عاصمتها الى قسطنطينية، تركية اسماً، واصبح جهاز الحكم فيها تركياً في الظاهر، على حين ان الامبراطورية قد صارت، في الواقع، خليطاً من العناصر المختلفة، وعلى حين ان جهاز الحكم فيها صار في حوزة اناس هم اتراك في المظهر، ولكنهم اجانب في الحقيقة. وهذا ما حمل الاستاذ خالد بك (مبعوث) انقره في البرلمان العثماني الحميدي واستاذ اللغة التركية في كلية اوكسفورد سابقاً على القول:

«لو دققنا في اصول الذين تغلبوا على الدولة، وارتكبوا تلك المظالم باسم الترك لتبين لنا ان تسعين بالمئة منهم ليسوا اتراكاً [١].»

ان الاجانب وجدوا عند السلاطين، منذ تأسيس الدولة، صدراً رحباً اذ اعتمدوا عليهم في جميع اجهزة الدولة حتى اسندوا اليهم قيادة الجيش: فالسلطان عثمان الاول (١٣٠٠ ــ ١٣٢٦م) اسند منصب القيادة الى كل من كوسه مخائيل احد امراء الروم في آسيا الصغرى، وافرنوس بك الذي كان عامل القيصر البيزنطي على بورصة قبل ان فتحها الترك. والسلطان مراد الاول (١٣٦٠ ــ ١٣٨٨م) اعتمد على ديمورطاش باشا، وعهد اليه في بعض الشؤون الادارية العالية لتنظيم السلطنة، كما اسند اليه منصب القيادة في الجيش. والسلطان بايزيد الأول (١٣٨٨ ــ ١٤٠٣م) ولى الامير سليمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون. ولكن الاجانب هؤلاء لم يدركوا مع ذلك منصب الصدارة العظمى الا بعد ان فتح الترك قسطنطينية. ومنذ ذلك اصبحت الوظائف العليا وقفاً عليهم الى حد ان الصدارة العظمى، وهي ارفع وظيفة في الدولة، لم يتولها الترك بمقدار ما استأثر بها هؤلاء الدخلاء حديثو النعمة.

وقد حملنا الدرس على التأكد من هذا، واتيحت لنا معرفة اسماء الصدور العظام منذ تأسيس

---

١ جريدة الرأي العام العدد ٩٥٧ سنة ١٩١٢

السلطنة الى مطلع القرن الرابع عشر للهجرة ، وبعد التدقيق في اصول كل منهم ادركنا النتيجة التالية :

٩٢ واحداً نشأوا بين الترك وفي مكدونيا ؛ و كثيرون منهم مشكوك في أصولهم ،وغلبت عليهم التركية .

٠٢ عرب احدهما عباسي اسر والده في تبريز ، والثاني حلبي

١٠ كرج

٠٣ جراكسة

٠٨ من ولاية البوسنة ، وهي الآن تابعة ليوغوسلافيا

٠٦ من كرواسيا في بلاد المجر

٠٤ من الموره في بلاد اليونان

٠٢ من ولاية الهرسك ، وهي الآن تابعة الى يوغوسلافيا

٠٢ من جزر بحر سفيد اليونانية . احدهما من ساقز ؛ والآخر من فوجه

١٨ من البانيا

٠٨ من اوروبا

٤٢ لم نستطع الجزم في اصولهم

١٩٧

هذا وقد علق فيكتور بيرار على تغلب الاجانب على المناصب في السلطنة بما يلي :

رحبت السلطنة بالاجانب منذ ثلاثمائة سنة كمدربين ، وما كانت تتطلب منهم الا اعتناق الاسلام ، وما ان يتعمم اولئك النمساويون او البندقيون او الفرنسيون او الالمان او البولونيون حتى كانت السلطنة تمنحهم تمام الثقة ، وتقبل نصائحهم واوامرهم . وكم من هؤلاء انيطت بهم قيادة الجيوش ، وامارة الاساطيل ، والشؤون السياسية الدولية وذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد ؟ واشهرهم بنفال (الفرنسي)نظراً لمنزلته ومنزلة اسرته بين الاوساط المسيحية .

غير ان اوروبا لم تعد منذ القرن التاسع عشر ، تقدم الدولة من هؤلاء المتطوعين ، فاعتمد الباب العالي من ثم في اختيار وزرائه على رعيته الاوروبية التي اعتنقت الاسلام ولا سيما على الالبان ، والاكريتين وأهل الارخبيل ، وسكان استامبول ـ [1] ـ .

---

1 - V. Béard . La mort de Stamboul. P. 95

هذا ومن الانصاف القول أن هؤلاء الاجانب لم يكونوا كلهم ناكري جميل وخونة ، بل كان منهم مخلصون اوفياء ، وفوا الخدمة حقها ككال الكوبرلي من البانيا ، وخير الدين باشا باربروس من جزر اليونان . ولكن المخلصين منهم قلة بالنسبة للآخرين الذي ظلوا ، في الحقيقة ، يشعرون في قرارة انفسهم بأنهم غرباء . وكان همهم تأمين الاستفادة الخاصة على قدر المستطاع خدمة للدول التي يمتون اليها . فضلاً عن ان هؤلاء الخونة كانوا اكثر حرباً على المخلصين ، واذا استعصى عليهم واحد منهم اثاروا عليه الانكشارية . وهذه بعض الأمثلة على ما نقول :

١ ـ الصدر محمد باشا صقللي قال عنه محمد فريد بك : « حافظ على نفوذ الدولة بعد موت السلطان سليمان ، وتمكن بسياسته ودهائه من ابرام الصلح مع دول اوروبا المعادية ؛ وانشأ عمارة بحرية بعد واقعة ليبانته ، وفتحت جزيرة قبرص بتعليماته وارشاداته ؛ ولكنه كوفىء على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه ، او لجناية ارتكبها ؛ بل لدسائس حاشية السلطان والاجانب الذين لا يروق لهم وجود مثل هذا الوزير[1] » . وقد قتله جيرار تيغ الأجنبي ؛ وما يدرينا ان يكون لاحدى الدول الاجنبية يد في قتل هذا المصلح .

٢ ـ احمد جاني الدفتردار كان مخلصاً مصلحاً في عهد السلطان احمد الثاني فضلاً عن تمتعه بالاقتدار فلم ترق مساعيه المقربين ، لان الاصـلاح يقضي على مواردهم وعلى نفوذهم فعزل بدسائسهم .

٣ ـ علي باشا داماد : قال عنه جودت باشا « ان اخلاصه وشدته على مقوضي اركان الدولة وفرا عدد اعدائه الى حد انه لما عاد الخلل بعدموته وانهزم الجيش كانوا مع ذلك يقولون شامتين . « وان كان الجيش قد هزم الا اننا نلنا الاماني بموت الداماد . وسننتقم من الاعداء فيما بعد[2] » .

٤ ـ حاجي علي باشا : انتصر لاحمد جاني المشار اليه ، واراد اعادته لمنصبه ؛ ولكن اصحاب الغايات وقفوا في وجهه سداً منيعاً فاعتزل .

٥ ـ حسين باشا عموجه زاده : كاد يسترجع مكانة السلطنـــة في عهد مصطفى الثاني ؛ ولكن المؤامرات التي حاكها ضده المقربون بالاتفاق مع شيخ الاسلام فيض الله افندي حملته على الاستقالة . ولما كان الشيخ المشار اليه احتكر المناصب له ولذويه فاثار الفتن وافضت تصرفاته

---

١ ـ محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية

٢ تاريخ جودت باشا ـ ج ١ . صفحة ٦٨

الى ايقاع الخلل في الشؤون الملكية والعسكرية[١]

٥ ــ كوبرلي حسين باشا استثقل وجوده المفسدون فظلوا يحرجونه حتى أخرجوه؛ واختار ان يتخلى عن الصدارة خوفاً من شرهم؛ وذلك في عهد السلطان مصطفى الثاني. (١٦٩٥ــ١٧٠٣م)

٦ ــ رامي محمد باشا : اثار موقفه في منع المظالم اولئك الذين يصطادون في الماء العكر فأغروا به الانكشارية الذين نحوه عن منصبه، وعزلوا ايضاً السلطان مصطفى الثاني الذي كان ظهيراً له.

٧ ــ داماد حسن باشا : اضطر السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ــ١٧٣٦ م) الذي رأى العبرة في غيره، ان يعتبر ويعزله رغم حزمه وجدارته واخلاصه وذلك تحت ضغط اصحاب الغايات؛ ولكن السلطان لم يسلم، مع ذلك، من شرهم فخلع بعد حين.

٨ ــ حكيم زاده : خشيت روسيا نتيجة الاصلاحات التي اخذ يقوم بها هذا الصدر في عهد السلطان محمود الاول (١٧٣٠ــ١٧٥٤) فدست الى كبير الطواشية من افسد بينه وبين الصدر. ولعل المرأة لعبت دوراً كبيراً في هذا الافساد؛ وظل الآغا يوالي الوشاية على حكيم زاده حتى تمكن من ابعاده عن منصبه ونصب السلطان مكانه مملوكاً تركياً انكشارياً ليس على شيء من الاقتدار، فازدادت الحالة سوءاً على سوء[٢].

٨ ــ مصطفى باشا البيرقدار : ساعد السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ــ١٨٣٩) على تحقيق اهدافه الاصلاحية شطر التجدد، فكان جزاؤه القضاء عليه حرقاً من قبل الانكشارية.

١٠ ــ القائد ناظم باشا : والي بغداد : اهاج الانكليز الشعب ضده لانه كاد يقضي على سياستهم هناك في عهد السلطان محمد الخامس (١٩٠٩ــ١٩١٨)، واستعانوا بذويهم في العاصمة فعزل، ثم قتله الاتحاديون في استامبول (١٣٣١ــ١٩١٣) اثناء حرب البلقان، وكان ناظراً للحربية في صدارة كامل باشا.

هذا وقد اظهر السلطان عبد الحميد الثاني استغرابه من وفرة الافرنج الذين تقدموا لجلالته يطلبون الاستخدام، ولو خصيانا بين الحرم، فقال في هذه المناسبة : **وكان يدهشني دائماً ان اعلم بان كثيرين من الاوروبيين كانوا يتوسطون للحصول على الخدمة ولو حراساً للحريم.**

---

١ ــ جودت باشا الجزء الاول صفحة ٦٢ و٦٣

2- K. Ganem. les Sultans ottomans. T. II P. 86

خصوصاً واني تناولت في اسبوع واحد ثلاث رسائل من ثلاثة منهم كانوا على شيء كثير من الادب والتهذيب يريدون هذه الخدمة المستهجنة، وكان احدهم موسيقياً في باريس، والثاني كيائياً المانياً، والثالث تاجراً سكسونيا». وعلق السلطان على هذا بقوله: «وماذا اقول، بعد ذلك، عن انحطاط الاخلاق في اوروبا عندما ارى كثيرين منهم لا يريدون التخلي عن دينهم فحسب، بل يرضون بفقدان الرجولة في سبيل خدمة الحريم؛ على حين ان هذه الخدمة تستلزم ان يكونوا خصيانا؟

لاريب انهم اذا اقدموا على مثل هذا الطلب انما كانوا يؤملون النفع المالي الكبير.» [١]

ونحن لا نظن ان السلطان المشار اليه المشهود له في النباهة والحنكة يعتقد ان اولئك الافرنج طالبي الخدمة بين الحريم انما هم طلاب مال فحسب، والواقع انهم عمال الدول الاجنبية التي تؤمن بنفوذ النساء في القصر السلطاني، وتتوخى الاستفادة منهن في تأمين مصالحها السياسية. وما اكثر ما استخدمت الدول بعض رجال السلطنة، ونساء القصر؟

قال لافلليه: **«ان النمسا لم تجد بداً، في حكم السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ــ ١٥٧٤) من ارشاء الوزراء العثمانيين باربعين الف دوكا (قطعة ذهبية) للوصول الى عقد صلح يتفق مع رغباتها. هذا وكان الصدر الاعظم قره مصطفى يبيع، بيع السلع، المعاهدات الدولية وامر تجديدها، فضلا عن السماح بمقابلة ممثليهم السلطان، كما يبيع الوظائف والرتب. وامثال هذا الصدر لا يدخلون في حصر» [٢]**

وربما ان المؤرخ لافلليه تحاشى ان يذكر الخونة الذين كانوا يتقاضون الاموال الاجنبية بطرق افظع من الرشوة، واعني بهم عمـــال الاجانب الذين كانوا يندسّون في جهاز الحكم ويتربعون احياناً في المناصب الكبرى.

على ان وزراء آخرين من وزراء السلطنة قد ابتلوا بامراض أخرى اخلاقية كان لها ايضاً التأثير البالغ في انحطاط الدولة؛ واعني بها تلك الادواء التي شكا من استفحالها السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ــ١٧٧٤). فقد هال جلالته الخطر الداهم حينما اشهرت روسيا عليه الحرب وترقب ان يجد حوله وزراء يشاركونه في الاخـلاص والتضحية، ولما استولى عليه اليأس يتمالك عن التصريح لخان القرم بقوله: **«ماذا استطيع ان افعل وحدي؟ وماذا افعل وقدامى كل**

١ ــ من المذكرات المنسوبة للسلطان في القسم الرابع من الجزء الاول

2 - Lavallée. Histoire de la Turquie

باشاواتي مخنثين وفاسدين ، ولا همّ لهم في الحياة الا الاعتكاف في التصور بين العازفين والراقصين ، وبين الحسان والقيان .

لقد كان همي ان يسود الامان والنظام في مملكتي ؛ ولكن ما من احد يريد ان يعاونني !»

واما الخيانات التي كان يرتكبها الكثيرون من وزراء الدولة فلا تعد ولا تحصى ، نذكر منها ، على سبيل المثال ، حادثتين متأخرتين للعبرة والذكرى .

١ ـ خيانة احد القادة يوسف باشا ، في حكم السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ـ١٨٣٩) وذلك بتسليمه مدينة وارنه الحصينة للروس الذين كانوا يحاصرونها ، والتجائه الى بلادهم[١]

٢ ـ خيانة احمد باشا القبودان العام للاسطول العثماني وذلك بتسليمه لمحمد علي باشا عزيز مصر هذا الاسطول خلال الحرب التي كانت ناشبة بينه وبين السلطان عبد المجيد ١٨٣٩ـ١٨٦١م[٢])

واما الرشوة فحدث عنها ولا حرج لانها كانت عامة بين الاوساط الحكومية كبيرها وصغيرها : ولا نزال نذكر كيف كان سماسرة الوزراء ينتشرون في الولايات ، ايام عبد الحميد الثاني ، ويعقدون الصفقات على شؤون الدولة ، ثم لا تلبث ان تصدر « **الارادات السنية** » وفقاً لعقودهم حتى كانت الصحف تطفح كل يوم بانباء التعيينات والاحسانات ومنح الاوسمة . وفي احدى هذه المناسبات حدثنا احد الاصحاب قال : اذن لاحد الحواة بان يستعرض العابه في حضرة السلطان عبد الحميد المشار اليه . وما كان اشد دهشة جلالته حينما رآه يبتلع ثعبانا كبيراً .

وكان دلي فؤاد باشا حاضراً الجلسة ، وهو مشهور بجريته حتى لقب بدلي اي المجنون ونفي بعد ذلك الى دمشق ؛ فتبسم هذا الباشا وقال لجلالته : « **لا تعجب يا مولاي . ذلك لان في استامبول ما هو اعجب . عندنا حسن باشا ناظر البحرية يبلع الباخرة دون اي انزعاج !** »

وكان يشير بذلك الى ما كان يتهّم به وزير البحرية المشار اليه من انه كلما اخرج الولة طراداً من الترسانة في استامبول كان يخرج وراءه باخرة خاصه به .

١ ـ محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ؛ ٢٢١

٢ ـ محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٣٧

٣

عمال السلطنة ومظالمهم

سلكت السلطنة تباعاً في الحكم الاداري ثلاثة مسالك مختلفة - ١ - اللامركزية -٢- التلزيم -٣- المركزية . فجمعت بذلك بين المتناقضات. ذلك لان اللامركزية والتلزيم منحتا عمالها في الولايات سلطات واسعة جداً افضت الى المظالم والمفاسد ؛ كما ان المركزية الضيقة التي اختارتها، فيما بعد، حصرت السلطة بيد الباب العالي فاستأثر بها المابين استئثاراً جعل عمالها في خارج العاصمة مجرد آلات منفذة .

وبعد حرب البلقان (١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م) وضعت حكومة استامبول قانوناً للادارة وسعت فيه سلطة الولاة، وذلك تحت تأثير الحزب اللامركزي الذي كان يعارض سياسة الاتحاديين المسيطرين دعاة التتريك ؛ ولكن لم تحصل الفائدة المرجوة من هذا القانون لان الحرب العالمية الاولى التي داهمت العالم بعد عام من اعلان هذا القانون، تلك الحرب التي اشتركت فيها تركيا، منحت الفرصة للاتحاديين للاستئثار بالسلطات، وربط الولايات بالعاصمة ربطاً اشد متانة من قبل.

*

اللامركزية وعمالها

اختارت السلطنة في صدرها الاول اساليب الحكومات الاسلاميـــة السالفة في طريقة الحكم والادارة ، وذلك على اساس لامركزي واسع ، يشبه استقلال كل قطر في ادارة نفسه، وفقاً لاجتهاد عامل السلطان واهل شوراه ومن يعتمد عليهم من اهل البلاد. والى هذا فقد شطت السلطنة في حسن الظن حينما كانت تثق بامراء البلاد التي تفتحها ، وتستبقي مقاليد الاحكام في حوزتهم على ان يحكموا تحت الراية العثمانية ، ويؤدوا لها ، الجزية او ما يماثلها كجعل سنوي مقرر .

حقا ان هذه الرحابة في معاملة الامصار المفتوحـة ، قد سهل لها سبل الفتح خلال ما كانت

تتمتع بالمهابة والقوة؛ ولكن ما ان بدأ ضعف السلطنة حتى كانت تلك الرحابة من اهم اسباب سقوطها.

ولعل السلطان سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠م) ادرك مغبة هذه الطريقة، كما انه انتبه الى الخطر المداهم من جراء الوثوق بامراء اوروبا الشرقية الذين دخلوا عنوة في حكم العثمانيين، فتشبث بجعل العناصر العثمانية شعباً واحداً تديره حكومة تتشعب منها سلطات محلية تنسج على منوالها [١]، كما انه تحول في الفتح شطر آسيا الوسطى على امل انشاء قوة كبيرة تكون اشد اخلاصاً للدولة من الاتساع العثماني في اوروبا المسيحية.

ولكن السلطان المشار اليه لم يوفق لانقاذ السلطنة من سياستها المتبعة الداخلية والخارجية؛ وحتى آخر حكم ولده سليمان القانوني، في اواسط القرن التاسع عشر، ظلت السلطنة تجري على تلك الرحابة في الاعتماد على الامراء الاجانب ابناء الاسر حكام بلادهم قبل دخولها في حوذة آل عثمان؛ وتجري ايضاً على طريقة اللامركزية الواسعة في ادارة الامصار.

وقد شرح جودت باشا هذه الطريقة بقوله: «**كانت الدولة تحكم بلادها وتدير شؤونها بمعرفة الامراء من ضباطها الذين تعهد اليهم ايضاً بتنظيم الشؤون العسكرية في مقاطعاتهم: فامراء السناجق ايام الحروب هم في منزلة الضباط الامرين، وامراء الامراء هم في مرتبة رؤساء الفرق، وامراء الايالات (الولايات) يكلفون تنظيم الشؤون العسكرية؛ وبناء على عرضهم كانت تمنح جميع التوجيهات. فكان امراء الامراء يوجهون المرتبات (اي الوظائف) المحلولة الى مستحقيها، وتصدر الارادة السلطانية وفقاً لمراسيمهم [٢]**»

وفي صدر الدولة حيث كان النظام سائداً، والعدالة راجحة، كان هذا الاسلوب القائم على الحكم العسكري اللامركزي من اسباب نجاحها، ولكن لم يلبث أن تحول الى عامل من عوامل خرابها مذ استحكم الخلل في ادارة الدولة الرئيسية بالعاصمة: ولما تولى خسرو باشا منصب امارة الامراء في سلطنة سليمان القانوني، وكان قبلا مندوباً لأن يذوق طعام السلطان قبل تقديمه الى جلالته، شرع بتوجيه الاقطاعات الى العسكريين بالرشوة. ونهج خلفاؤه نهجه، ثم تجاوزوه الى ابعد حد حتى ضاق الناس بهم ذرعاً، وتحولت اكثر الاراضي لهؤلاء الحكام؛ كما تحولت اليهم الاموال الكثيرة بالاتفاق مع ضامني المكوس والاعشار شركائهم.

وكان هؤلاء «**الملتزمون**» آمنين لان (المتسلمين) حكام المقاطعات كانوا ايضاً شركاء

---

١ — جريدة المقطم في العدد رقم ٧٣٠١ من مقال مترجم عن احدى الصحف الانكليزية

٢ — تاريخ جودت باشا ج ١ ص ١٠٠

لهم يحمونهم ، فضلا عن شركائهم الآخرين في العاصمة ؛ وكانوا مطمئنين من جهة اخرى اذ لم تكن توجد اسلاك برقية ، ولا سكك حديدية ، ولا طرق معبدة تسهل ايصال الشكاوى الى الباب العالي ، وقد قال دوفايه عن هؤلاء العمال ما يلي: «**المتسلمون كانوا يحتاجون دائماً لدراهم كثيرة لتأمين نفقاتهم الباهظة ، ولتأدية الاموال دون انقطاع الى استامبول فكانوا يتفننون في تحصيل الاموال حتى انهم كانوا لا يتورعون عن توجيه الاتهامات الجنائية لبعض الناس في سبيل سلب املاكهم[1]** ».

وهذا ما سندلل عليه في الفصول التالية :

الضمان (الالتزام) وعماله

ترجع بدعة تضمين الامصار الى عهد السلطان سليمان القانوني : فان الصدر الاعظم رستم باشا كان اول من باشر هذا الاسلوب في الادارة ثم لما اشتدت حاجة السلطنة الى تأمين الاموال ، ولا سيما حينما اتحدت اوروبا لاجلائها عن بلادها ، اضطرت لاختيار هذه الطريقة دون سواها تأميناً للاموال التي هي في حاجة ملحة اليها . خصوصاً وان المصارف المالية لم تكن قد نشأت في بلادها ، وان القروض من الدول الاخرى كانت غير متوفرة لها . فأخذت تسند الى (الملتزمين) ادارة الامصار التابعة وسياستها ، مختارة منهم الذين يؤدون المال الاوفر ، دون التفات الى مؤهلاتهم وصفاتهم . وحملتها الحاجة الماسة الى المال ، مرات عديدة على تجديد ، الضمان للملتزم مهما كانت تصرفاته وبشروط مجحفة للخزنة ، وذلك قبل انتهاء موعد الضمان الاول .

ومن ذا الذي كان يقبل على هذه (الالتزامات) ؟ لقد اجاب على ذلك جودت باشا حيث قال : « **لما ابى الاعيان اصحاب الدين والانصاف اخذ الالتزامات اقبل عليها الارازل والاسافل ، فكان ذلك سبباً آخر لتخريب القوى الهمايونية والاقطاعات . وقد خربت المدن من جراء المظالم التي ارتكبت والاعتداءات . ووقع الرعايا ، وهم في الحقيقة خزنة الدولة ، في اشراك الفقر[2]** . »

وكان الضمان يجري في العاصمة على طريقة المزاد (الحراج). ولكنه في الواقع كان مزاداً صورياً:

---

1 - A du Velay . Essai sur l'histoire financière de la Turquie P.350

٢ — تاريخ جودت باشا . الجزء الاول . ص ١١٥

ذلك لان الوزراء، الذين هم في الواقع شركاء الملتزم، كانوا يحتالون كيما يكون الضمان من نصيب شريكهم دون سواه، وببدل بخس.

وكان الملتزمون كثيراً ما يستلفون الاموال من مصارف غلطه باستامبول بوبا فاحش بغية تأمين الرشوة للمتنفذين، وتأدية الاقساط الاولى. حتى اذا بلغوا مقر ولايتهم تفننوا في اساليب ابتزاز الاموال؛ فكانوا يضعون الضرائب الباهظة، ويطلقون ايدي ملتزمي الاعشار والمكوس، ثم لا يتورعون عن المصادرات واتهام الابرياء بالجنايات قصد ابتزاز الاموال.

قال جودت باشا: **«وجعل اصحاب الاقطاع والزعامات يلزمون اراضيهم باجور باهظة، وشرع الملتزمون منهم يكلفون الرعية بما لا طاقة لها به في سبيل استرداد الاجور التي دفعوها اضعافاً مضاعفة؛ فاكرهوا بذلك اكثر الاهالي على هجر اوطانهم، الى البلاد الاجنبية؛ لا سيا غير المسلمين منهم؛ هذا فضلا عن ان كثيرين من الاهالي هبطوا الى الاستانة واستوطنوا فيها حتى غصت بهم.»** [١]

وكان السلطان مصطفى الثاني يلاحظ، عندما كان ولياً للعهد، مضار تلزيم البلاد على هذا النحو، وكان يؤثر فيه بصورة خاصة، جور الملتزمين في اواخر مدة ضمانهم، حيث كانوا يعتقدون ان كل قرش يدخل جيوبهم انما هو ربح اضافي لهم؛ فما ان بويع جلالته بالسلطنة (١١٠٦هـ = ١٦٩٥ م) حتى اصدر ارادة سنية يأمر فيها بأن لا يمنح، من بعد، اي ضمان للولايات لمدة محدودة؛ بل يجري الضمان على قاعدة التلزيم طيلة الحياة. وذلك رغبة من جلالته في ان يرى الضامن الجديد من صالحه معاملة الرعية بالعدل والاحسان تحسيناً لموارده الدائمة. غير ان هذه الطريقة ساعدت على استئثار الملتزمين واستبدادهم، وشجعتهم احياناً على الخروج ضد السلطنة في سبيل الاستقلال التام؛ هذا فضلاً عن انها جعلت تركيا اشبه شيء بامارات متحدة اكثر منها دولة. حتى بلغ من هؤلاء الملتزمين انهم اخذوا، من ثم يحلون مشاكلهم الخاصة بينهم وبين جيرانهم بالتراضي احيانا، وبالحروب احياناً أخرى، دون الرجوع الى الباب العالي. وقد قال لامارتين في مؤلفه الذي وضعه بعد زيارة الشرق الادنى خلال سلطنة محمود الثاني (١٨٠٩ — ١٨٣٩ م) ما يلي: **«حالة البلاد العربية والبانيا والصرب والافلاق ومولدافيا والجزائر وتونس وطرابلس الغرب وسوريا وجبل لبنان ومصر كانت اشبه شيء بامارات متفقة.**

---

١ — تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ١١٧

منها بدولة واحدة». وقد فصل ذلك تفصيلاً اوسع اوتون الانكليزي W. Eton فنوه بما صارت اليه الاحوال في بغداد وارمينيا وطرابزون وازمير وجبال بلاد الشام ، وكيف اصبح حكم آل عثمان فيها اسميا من جراء طريقة التلزيم لكل الحياة التي جرت عليها السلطنة .

وفي رواية اوسون Ohsson ان السلطنة كانت في عهد السلطان محمود الثاني مؤلفة من ٢٢ لواء يحكمها عمال ضمنوها لمدى الحياة ، بينما ان ثلاث معاملات (ولايات) منها كانت لبشوات تحكمها بالتوارث . »

وقد علق على هذه الحالة المؤسفة دوفالاي بقوله : « **حقاً انه كان يوجد في كل مدينة مجلس ادارة من اعيانها ، ولكن هؤلاء الاعضاء كانوا ، لجهلهم ، كآلات حادة في يد (المتسلم) العامل يستخدمهم لمصلحته وضد مواطنيهم .** »[1]

هذا والى جانب هؤلاء الحكام ، الذين كانوا ضربة قاضية على الرعية ، ولا سيما على الفلاحين منها ، كانت فئة اخرى تتمادى في طغيانها ، واعني بهم ملتزمي الاعشار شركاء الحكام الذين جعلوا الفلاحين يتخلون احيانا عن قسم من اراضيهم الى الاغوات والبكوات ليحموهم من جورهم. وانا نترك الكلام هنا الى م. ستيك Mr. Steeg قنصل فرنسا في سالونيك . قال سنة ١٩٠٢ : « **ان المظالم التي تنتج عن تلزيم الاعشار لا تدخل في حصر ، خصوصاً وان الملتزمين من البكوات النافذين كانوا يستثمرون سلطة الحكومة لارتكاب افظع المظالم . واذا كان الدليل على ذلك لازماً فحسبنا الاشارة الى الثورتين الاخيرتين في مكدونيا . فهما كانتا نتيجة لجور هؤلاء الملتزمين ، ولذلك فقد استهلتا بالفتك ببعضهم**[2] . »

وكانت هناك طغمة اخرى تساهم في خراب الشعب : اولئك هم ملتزمو الاعاشة وكسوة الجند : فقد كان هؤلاء ، حبا باسقاط الاثمان في اسواق المملكة ، يستصدرون ...سنية في منع خراج انتاجات البلاد ، فيربحون بذلك قليلاً ، ولكنهم يضيعون ك... الحكومة عام ١٨٣٢ الى مليون كيل من الحنطة ، فمنعت تصد... ابتياعها بثمن بخس ، فكانت نتيجة هذا التدبير خراب عشرة... الاثمان سقوطاً قدر بماية مليون[3] . »

...ire financière de la Turquie P. 47. 59 et 60
...ire Ottomane p. 155
...t. 1845

اضف الى هؤلاء ملتزمي الجمارك الذين كانوا ايضاً شركاء بعض الحكام والعمال. فقد روى أوسون Ohsson ان جمرك سلانيك كان يضمن ، اثناء حكم السلطان محمود الثاني ، في اوائل القرن التاسع عشر ، باربعين الف قرش فحسب ، في حين ان موارده كانت تبلغ مماية وستين الف قرش. فيربح الملتزم وشركاؤه كل هذا الفرق ؛ بينما كانت الخزنة تشكو من قلة الموارد وتهدد بالافلاس.

والخلاصة فان تلزيم الولايات ، وموارد الدولة كان ، كما قال نجيب بك الحج ، **«يخرب المملكة ويضعف نفوذ السلطان ، ويفضي الى اضعاف الحكومة »**[1].

ومن المؤسف ان السلطنة وان عدلت فيما بعد عن عادة تضمين الولايات ، فان تلزيم الاعشار وغيرها ظل مرعياً حتى النهاية ، ولم يلغه قانون الولايات ، ولا الدستور . وقد شاهدنا بنفسنا مفاسده ، ولا سيما على الزراع الذين لم تقم لهم قائمة خلال العهد العثماني .

☆

المركزية وعمالها

نشط السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ ــ ١٨٣٩م) ، بعد ان أتى بما لم تستطعه الاوائل من حيث الايقاع بالانكشارية وابادتهم ، الى الاصلاح الفعلي في السلطنة. ولاسيما بتنظيم الجند النظامي. ولكن خروج محمد علي باشا عليه ، واشهار روسيا الحرب المعروفة بحرب القرم صرفاه عن الشؤون الداخلية . ثم القياه بالتالي بين أيدي بعض الدول الاوروبية التي انقذت سلطنته من مصر ثم من روسيا . على ان الضعف الذي استحوذ عليها اثر انكساراتها المتوالية في الحربين المذكورتين قد ساعد الشعب على رفع صوته شاكياً من عمالها المستأثرين الظالمين ، وحمل الدول الحليفة على التدخل استجابة لنداء الشعب المتذمر فشرعت تنصحها بان تبادر للاصلاح ، ولا سيما في احوال المسيحيين العثمانيين . وهذا ما دفع السلطان عبدالمجيد بن محمود (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) لاصدار **« خط كلخانه »** عقب ارتقائه الى العرش ، وعلى نشر **« خط همايون »** سنة ١٨٥٦م المتضمنين الاوامر والوعود من اجل القيام بالاصلاح على اساس المساواة بين الرعية كلها ، والعدل الشامل .

وكان من نتيجة ذلك الغاء السلطنة بعض ضروب الالتزام ، وسنها القوانين الادارية والمدنية ، ومنها قانون الولايات الذي فصلت فيه بين القوتين العسكرية و المدنية . وجعلت مأموري المالية تابعين للحاكم المدني. ثم عدلت هذه القوانين في ايام السلطان عبدالعزيز بمقتضى مصلحة الدولة والشعب.

---

1 - .N Haj. Leçons du passè p. 51

ولكن وضع هذه القوانين الحديثة وان جعل السلطنة تتمشى على غرار اوروبا الناهضة في القواعد الادارية والعدلية الا انه لم يكن باستطاعته استئصال شراهة القسم الاعظم من عمال الدولة، وتقويم اعوجاج الجهاز الحكومي؛ ومتى كان القانون كفيلاً بتبديل ما اصبح بمثابة الغريزة عند الناس تبديلا فجائياً؟

وقد كتب اللورد رودكليف سفير انكلترا وقتئذ في استامبول الى لندن في هذا المعنى وقال: **«ان الخط الهمايوني الاصلاحي ما وضع حتى الان موضع الاجراء. يحملني ذلك على الريبة في نوايا السلطنة الطيبة؛ ولكن مما لا شك فيه، ان الرشوة والسعاية والشراهة هي التي تحول دون تنفيذ الاصلاح[1].»**

وظلت هذه المفاسد، التي نوه بها اللورد رودكليف، مستحكمة، والرعايا تتظلم، والثورات تتوالى في مكدونيا حتى اضطرت الدول لتأليف لجنة، اثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، اي في اواخر القرن التاسع عشر، عُهد اليها النظر في مشروع الاصلاحات التي وضعها الباب العالي. وقد ورد في ختام التقرير الذي وضعته هذه اللجنة، ورفعته الى دولها ما يلي: **«ان الانظمة الحسنة لم تكن في يوم من الايام مفقودة في تركيا، ولكن تطبيق هذه الانظمة والقوانين كان ولا يزال غير مستوف.»**

ونعتقد ان المشاكل السياسية التي غمرت السلطنة في اواخر ايامها، كانت تدفعها احياناً الى خرق تلك القوانين: فالسلطان عبد الحميد الثاني لم يجد بداً من ان يقابل العناصر الثائرة في مكدونيا وارمينيا، وذلك بتحريض روسيا وغير روسيا، بشدة ترافقها سياسة ترمي الى الايقاع بين التركي وغير التركي، والمسلم وغير المسلم؛ فيداس القانون من جراء ذلك وترتفع الشكاوى.

وقد عاصرتُ هذه السياسة التي طبقت في بلادي حينما تسرب الوعي القومي الى العرب، وعملت فرنسا على اثارة اخواننا المواطنين النصارى في لبنان ضد السلطنة. فاذا بي اشاهد سياسة السلطان عبد الحميد الثاني تولي وجهها شطر التفريق بين العناصر، وتقوم على مبدأ الايقاع بين المسلمين والمسيحيين في البلاد العربية.

وفي مطلع القرن العشرين اسند السلطان الى رشيد بك منصب ولاية بيروت، فجاءنا فارغ الجيب، ولكنه لم يمكث بيننا الا قليلا حتى اصبح من اصحاب الثراء؛ ومثله كبار الموظفين

---

١ – جريدة استامبول تاريخ ١٤ حزيران ١٨٥٨ م

الذين رافقوه . نكتفي بذكر احدهم الدفتر دار ادهم بك. واما بيروت قاعدة الولاية فكانت كدار حرب في ايامه بين النصارى والمسلمين ، ولا سيما بين محلتي البسطة والمزرعة . ولم يمض يوم الا وكنا نسمع فيه انباء حوادث تقتيل بين المواطنين . وحوادث كرّ وفرّ بين المحلتين . وكانت هذه الفتن تتعدى احيانا بيروت الى الجبل فنسمع باحداث مؤلمة تقع بين الدروز والنصارى . نذكر منها حادثة قرية بتاتر التي شهدتها بنفسي .

وكانت ترافق هذه الفتن حـالة شاذة في ولاية بيروت وغيرها من الولايات كانت للوالي وحاشيته ولشركائه في استامبول مورد رزق خصب، ولا سيما ما رافقها من بيع الرتب والاوسمة . وما ان يتجرأ احد على تقديم الشكوى الى حكومة العاصمة حتى كان شركاء الوالي هناك يقلبون الحقائق ظهراً على عقب ، ويبلغون جلالته ان عبده والي بيروت يستمطر له الدعوات الخيرية ، وذلك بعدله بين الرعية فتصدر الارادة السنية بترقيته ومكافأته .

واخيراً تدخل قناصل الدول عقب مذبحتي سنة ١٩٠٦ في بيروت وبتاتر بالجبل واتفقوا على تقديم الشكوى الجارحة من رشيد بك الى سفرائهم في استامبول، وتحميله تبعات هذه المذابح والخلافات فارتحنا لهذا النبأ ، اعتقاداً منا أن الوالي سينال جزاءه . وما كان اشد دهشتنا حينما جاء الامر على خلاف الامل : اذ صدرت الارادة السنية بترفيع عطوفته ونقله الى استامبول ، حيث نصب «أميناً للشهر » ، اي رئيساً عاماً لبلديتها ، ولولا ان اعلن الدستور ، بعد قليل ، ونفي رشيد بك الى رودس لكان اوفر الوزراء حظاً في التربع في الصدارة العظمى جزاء خدماته الجلى !

٤

حاشية السلطان

« **ليس بين العوامل جميعها ، التي افضت الى تدهور السلطنة ، عامل يضاهي تأثير الحرم مباشرة، وتأثير السراي السلطانية في تقرير هذا المصير** » .[١] هذا ماقاله خليل غانم من قبل ، وهو ما نقولة الآن ، لان السلاطين اصبحوا بعد انتقال عاصمتهم الى قسطنطينية، حبيسي الحرم، وسجيني القصور ، يقولون ما تقول حاشيتهم كما تقول الببغاء .

كان السلاطين الاولون يعيشون عيشة ديموقراطية ليس فيها حواجز تباعد بينهم وبين رعيتهم . ولكن السلطان سليمان القانوني اخذ يقلد اباطرة بيزنطة في الحياة الاريستوقراطية : فتحجب عن الرعية ، واستصفى لنفسه طائفة من الرجال ، وطائفة اخرى من النساء ، وبنى لهما القصور الى جانب قصوره ، فكانت الحاشية التي نعنيها .

على انا لا نستطيع ان نزعم بأن نفوذ هذه الحاشية على السلاطين كان على مستوى واحد ، وان تأثير الحرم ، الذي كان مستفحلا في ايام السلاطين احمد الثالث ومحمود الاول وعبدالمجيد الاول وعبد العزيز ، كان مستفحلا بهذا المقدار في عهود عثمان الثالث ، ومصطفى الثاني ، وسليم الثالث ، ومحمود الثاني ، الذين اشتهروا باندفاعهم في سبيل رقي السلطنة .

ومع ذلك فان الحاشية السلطانية ظلت قائمة ، واستمرت تستأثر بالنفوذ استئثاراً يزيد او ينقص بمقدار اهتمام السلاطين بها . وقد اخذ الحرم السلطاني ، منذ السلطان محمود الثاني يتجدد في مظاهره ، ويتزيا بالازياءالاوروبية، وابعد عنه الخصيان البيض . ولكن رغم ذلك، فقد ظل « الحرم السلطاني » قائماً ، وظل نفوذه مستفحلا ؛ وقد اتيح لنا ان نعاصر هذا « **الكيان النسائي** » النافذ في عهد عبد الحميد الثاني ، وان نسمع اخباره التي تذكرنا بايام الاشوريين والصينيين ، فضلا عن بعض عواهل العرب .

---

1 - Kalil Ganem . Les Sultans Ottomans T. II. p. 41

انتقل السلطان عبد الحميد الى قصر يلديز الذي بني عام ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م، وقد اختاره السلطان على قصر طولمه بغجه القائم على البوسفور الذي كان يسكنه عمه عبد العزيز . وذلك لبعده عن البحر . واهتم باشادة الصروح والدساكر حول يلديز ، وجعلها على قسمين : داخلية وخارجية يفصل بينهما سور كبير ، ويحيط بالقسمين على السواء سور اكبر . وقد اسكن هذه القصور والدساكر حاشيته الخاصة ، فضلا عن حرسه واجناده . وكانت هذه الحاشيه تتألف من ثلاث فئات داخلية وخارجية ووسطى على الوجه التالي :

الحاشية الداخلية

ونعني بالحاشية الداخليـة « **الحرم السلطاني** » وكان يتألف من دوائر عدة كما يلي :

١ ـ دائرة « **السلطانة الوالدة** »

٢ ـ دائرة « **خزنه دار اوسطه** » : الخازنة

٣ ـ دوائر « **باش قادين** » وهي اربع ، ولكل زوجة من زوجاته الاربع واحدة

٤ ـ دوائر « **باش اقبال** » وهي ثلاث ، ولكل محظية من محظيات السلطان الثلاث الاوليات واحدة

٥ ـ دوائر « **قيزيده** » اي الفتيات المرشحات لبلوغ درجة المحظيات . والسراري المحظيات

٦ ـ دوائر « **قادين افندي** » اي امهات بعض ابناء السلطان وبناته

٧ ـ دوائر « **السلطانات** » الآهلات بالاميرات العزبات والعوانس من نسل الاسرة المالكة [1]

وقد علق على ذلك الاستاذ خليل غانم بما ترجمته : « **كان نساء السلطان خمس درجات : القادينات ، وهن الطبقة العليا ذوات الالقاب (اي السلطانات). واذا هجر السلطان احداهن كانت تحتفظ بمكانتها كزوجة من زوجاته . وتلقب امهات ابناء السلطان كازه كي** (Kasèki) **بينا تلقب امهات بناته بكازه كي قادين** (Kaséki Kadine) **. ومتى شاء السلطان رفع احدى السراري الى مرتبة « القادينات ذوات الالقاب » كان عليها ان ترتدي اثناء مثولها بين يديه ثوباً غالياً ، تعلوه اثناء فصل الشتاء فروة سمورية ؛ ويخصص لها ولحاشيتها واتباعها قصر**

1 - Dr Polycarpe Ventura. Le calvaire de la femme turque p. 209

من القصور الداخلية ».

ومتى اشتهى السلطان الاختلاء بها تقصد هذه السلطانة الجديدة الى قصره الخاص ، حيث تقوم في خدمته سرار على جمال نادر المثال بينهن اثنتا عشر جارية من طبقة المحظيات المقربات .

وتختار القادينات من هؤلاء المقربات ؛ واذا ما استمالت احداهن السلطان يطلق عليها لقب « **اقبال** » وتبقى كذلك حتى تحمل ، ومتى حملت احداهن تنتقل الى قصر خاص بها ، وتعرف من بعد بلقب « **قادين** ».

وهناك قيّمة على السراري والجواري يطلق عليها لقب « **كايا** » ووظيفتها تنظيم ليالي السلطان . وهي تختار الفتيات اللواتي في حدود السنة الثامنة الى العاشرة لاعدادهن لاملاء المراكز التي هي على وشك الفراغ .

ويقع اختيار « **الكايا** » ، بحسب التقاليد ، من « **الكاديكلو** » اي بنات الغرف اللواتي لا يتميزن في الجمال ، وانما يعرف عنهن الذوق والتفنن والنفوذ بحيث يستطعن تدريب « **المرشحات** » تدريباً يتناسب مع معاشرة السلطان ، ومستوى بيئته . وهو امر يتطلب الشيء الكثير من الدقة والرقة ورهافة الشعور .

وللوالدة ام السلطان نفوذ عظيم في القصر . وجرت العادة على ان تعنى الوالدة ، غاية الاعتناء ، بتنشئة بعض البنات الفاتنات وتربيتهن تربية فنية لائقة اعداداً لهن لمعاشرة ولدها ، ولاكتساب محبته . وهي بذلك تتوخى المحافظة على نفوذها عنده وتأييد سلطتها بين الاوساط الاخرى [1] .

وتزيد على ذلك ان السلطان كان يتقيد بالشرع من حيث عدد الزوجات ، فلا يتعدى الاربع . وهن المسميات ب « **باش قادينلر** ». وكانت والدة اكبر اولاده تلقب ب « **باش قادين** » اي السلطانة الاولى ، وتحتفظ بهذا اللقب طيلة الحياة ، حتى اذا توفيت تلتها الزوجة التي تكون أم اكبر اولاده . وحينما يخلو مكان زوجة من زوجات السلطان الاربع بالوفاة تحل محلها واحدة من المعروفات « **بقادين افندي** » ؛ اي من السراري اللواتي رزقن ولداً ذكراً من جلالته . ويراعى في اختيارها ان يكون ابنها اكبر سناً من سواه بالنسبة لابناء سائر هؤلاء السراري . مع العلم بأن محظيات السلطان الاوليات الثلاث لا تدخل واحدة منهن في عداد « **قادين افندي** »

---

1 - K. Ganem Les Sultans Ottomans T. II. p 14

الا متى رزقت ولداً .

واما دوائر « قيزيده » اي السراري المختارات فكانت حافلة بالصبايا الحسان دون حصر ؛ وانما الحصر في اختيارهن من ذوات الجمال الفائق ، والاناقة والادب . وكان يُعنى بتربيتهن وتثقيفهن تربية وثقافة تتفق مع منزلتهن ، وتتلاءم مع معاشره السلاطين . هذا فضلاً عن العناية بتعليمهن شتى الفنون الجميلة ، ولا سيما الموسيقى والغناء والرقص والتصوير. وكانت القصور المعدة لهؤلاء السراري « **الحبيسات** » تضم بين جنباتها انواع الترفيه ، وشتى اسباب التسلية واللهو ، والرياضة ، والالعاب؛ فضلا عن الحدائق الممتازة قصدان يخيل اليهن انهن في غنى عن العالم الطليق.

وكان السلطان لا يغشى هؤلاء السراري ، وانما يعدّهن لاختيار محظياته منهن ونسائه متى حان الحين ، او لاصطفائهن زوجات لابنائه ، ولسائر الشباب من اسرته . كما انه كان كثيراً ما يهدي منهن زوجات الى المقربين اليه . وقد اهدى الى احمد عزت باشا العابد اثنتين منهن : هما زوجتاه الاولى نبرس خانم ، ولا تزال على قيد الحياة ، وتسكن في باريس ، وهي والدة لمعة خانم . والثانية آسيا خانم ، وقد توفيت دون عقب .

واذ لم تكن للسلطان عبد الحميد والدة اثناء حكمه فكانت شقيقته الكبرى تقوم مقام الوالدة في انتقاء هؤلاء السراري . وكان السلطان يزورها بين الفينة والفينة فتصطف حين دخوله قصرها السراري الحسان اللواتي وقع اختيارها عليهن ، يرفعن بايديهن الشموع المضاءة . ويا حسن حظ الفتاة التي يعنى جلالته باطفاء شمعتها . انها تكون قد فازت باعجابه فتدخل ، من ثم ، في عداد السراري ، وتنقل الى دوائر « قيزيده » حيث تتأهب لان تكون في مرتبة المحظيات ، وتؤمل ان ترتفع الى سدة السلطانات .

وفي الواقع ، فهي قد احرزت « ورقة يانصيب » فقط ، واصبح نيل الاماني موقوفاً على حظها .

*

حاشية السلطان الخارجية

وكان « المابين » هو حاشية السلطان الخارجية. ومقره في صروح جميلة وقصور تحيط بها حديقة يلدز الخارجية . وكان رجال المابين صلة الوصل في المخابرات بين السلطان والباب العالي . وبينهم فئة تتولى تنفيذ اوامر السلطان مباشرة ، وفئة اخرى مهمتها المحافظة عليه .

وقد وصف ابراهيم بك المويلحي دوائر المابين الحميدي على الوجه التالي :

(أ) دائرة الجيب الهمايوني ـ هي عند باب السراي . كانت تحتوي على رئيس ومترجمين عليهم غير وظيفة التجسس ان يترجموا ما يأمر بترجمته السلطان من الجرائد الاوروبية وغيرها.

(ب) دائرة الباشكاتب ـ كانت اجل الدوائر قدراً ، واهمها عملا تحتوي على الباشكاتب ، وعلى عشرين كاتبا من ذوي الرتبة الثانية الى رتبة بالا . وهم من الشبان الناشئين على الاخلاق الجديدة ، و كلهم عيون على الباشكاتب وهو عين عليهم . وكان الباشكاتب الواسطة العظمى بين السلطان والحكومة اذ ترد اليه الاوراق الرسمية لعرضها على السلطان،وعنه تصدر اوامر الخليفة بشأنها ، وفوق ذلك كان تحسين باشا الكاتب الاول للسلطان عبد الحميد يتلقى اوراق الخفية (الجواسيس) فيستصدر اوامر مولاه بشأنها بسرعة غريبة ، وذلك عن اهتمام كلاهما بها في حين ان امور الدولة ربما تأخرت شهوراً .

ج ـ دائرة المابينجية ـ ويلقبون بالقرناء ، وهم ستة عليهم رئيس يتناوبون الخدمة . فيجلس صاحب النوبة على باب الحجرة التي يجلس فيها السلطان ينتظر الامر لتبليغ الارادات الى الكاتب الاول او غيره .

ـ ى ـ دائرة الياوران ـ وهي تحتوي على فحول القواد ، الا انهم غلبوا على امرهم فكسروا جفونهم للمطامع . وهم ثلاث طبقات: ياور وياور اكرم وياور فخري . وعليهم رئيس يسمى سر ياور . وكان يوجد من صنف الياور ١٢٠ ، والياور اكرم نحو ٢٠ كلهم من اعاظم المشيرين ، ومن الياور الفخري ١٣٠ تتفاوت مراتبهم من الملازم الى المشير .[١]

وقد عد الاستاذ المويلحي بين الدوائر الخارجية دائرة الباش آغا ، ولكننا اخترنا ان ندرجها بين الدوائر الوسطى . كما انه اغفل ذكر طبقة المشايخ المقربين ، الذين كان لهم من النفوذ ما يبزّ سلطة الصدور العظام والقادة المشيرين . وهم ابو الهدى الرفاعي من خان شيخون في ولاية حلب ، واحمد اسعد القيصرلي المدني ، والسيد فضل باشا المليباري المكي ، والشيخ محمد ظافر المدني المغربي . و كلهم من العرب ما عدا الشيخ احمد اسعد القيصرلي التركي ، الذي تعرّب اذ ولد في المدينة . وهذا يدل على تقريب السلطان عبد الحميد العرب الى جلالته مذ ارتاب في قومه الترك وغيرهم بعد الغاء الدستور وحل مجلس البرلمان. ولعلّ هذه السياسة التي اتبعها هي التي رفعت

---

١ ـ المويلحي مجلة الهلال سنة ١٧ صفحة ٥٨٩

احمد عزت باشا العابد السوري الى ما ادركه من السيطرة حتى كان ، وهو الكاتب الثاني ، صاحب الامر والنهي دون تحسين باشا الكاتب الاول ، الى حد انه كان يصدر الارادات السنية ، قبل ان يأخذ موافقة السلطان عليها .

*

الحاشية الوسيطة (او الوسطى)

ونعني بها الدوائر التي تتصل بالحاشية الداخلية اي الحرم السلطاني ، وبالحاشية الخارجية اي المابين . وهم جماعة الخصيان .

وكان هؤلاء (الطواشية) على نوعين : البيض والسود . فالبيض هم الذين خصوا خصياناً ناقصاً ، وكان يطلق عليهم « **قبواغاسي** » . وقد الغى السلطان محمود الثاني هذه الطائفة . واما السود فهم المخصيون خصياناً تاماً ، فكان يسمح لهم وحدهم ، دون غيرهم ، بالدخول على الحرم ، ومباشرة الخدمات فيه . ما عدا واحد من البيضان كان يلقب بـ « **خاص اوطه باشي** » . فيخصى خصياناً كاملاً ، ويسمح له بالدخول الى الحرم السلطاني بحكم وظيفته التي هي حراسة البراري .[1]

ورئيس هؤلاء « **الطواشية** » كان يلقب بآغاذار السعادة ، ورتبته تعادل رتبة الصدارة العظمى والخديوية ؛ وتوجه اليه القاب « **دولتلو عنايتلو افندم حضرتلري** » ، « Son altesss » باللغة الافرنسية اسوة بامراء الاسرة المالكة .

واما نفوذ هذا الآغا فحدث عنه ولا حرج : فان اتصاله المستمر بالسلطان ، وعلاقاته الدائمة مع الحرم ، على ما فيهن من ذوات النفوذ على السلطان ، اعدته لان يرتفع الى مقام « **الحل والعقد** » في الدولة ، حتى صار الوزراء يتملقون اليه ، واصبح المستوزرون يتقربون منه .

واشتهر منهم في العصر الحميدي بهرام آغا . وقد رووا مثالا على سيطرته حادثة مفادها ان زكي باشا ، الذي اتهم باضرام نار الفتن الارمنية ، ارادت الدولة ابعاده فعينته قائداً اعلى لجيشها في ليبيا ؛ فجاء يودع بهرام آغا قبل مغادرته العاصمة ، ووقف بين يديه وقال له متملقاً في مجلس حافل بالوزراء والكبراء :

1- K Ganem Les sultans Ottomans T. II. p 19 - 20

«**يا مولاي ان الدولة العلية نصبت عبدكم قائداً على عساكرها في طرابلس الغرب ،ولي امنية جئت التمس من عنايتكم تحقيقها ، ارجو ان تكون لي حرزاً من تقلبات الدهر ، وهي ان تأذنوا لي بتقبيل يدكم الشريفة !** » فتهته الآغا ضاحكاً ، وقال للباشا : « **متى تعدى قدرك رجلي حتى طلبت تقبيل يدي ؟** »

ولما اهدى الامبراطور غليوم ملك المانيا صديقه السلطان عبد الحميد وسام النسر الاسود حمله الى جلالته احد الامراء الالمان (برنس) فاحتفى به السلطان ، وانزله ضيفاً عليه في سرايه الخاص . فقيل لبهرام آغـا وقتئذ «**انه يستحب ان تذهب لزيارة البرنس ضيف القصر .**» فاستنكر (صاحب الدولة والعناية) هذه النصيحة ، وقال : « **كيف ازوره وهو برتبة التس Altesse وانا التس ؟ .**»[1]

ولما مات آغا دار السعادة بهرام آغا التيس المذكور خلفه شرف الدين آغا ثم نادر آغا .

هذا ويمكن احصاء فئات اخرى في جملة الحاشية الوسيطة وهم :

أ ـ المصـاحبون ، ومعظمهم من الطواشية ،ويشبهون « المابينجية » رجال المابين من حيث تبليغ الارادات السلطانية .

ب ـ الخزندار : الموكل بنفقات الحرم ، وبالاشراف على دائرة الالبسة التابعة للحرم السلطاني .

ج ـ البازركان باشي : ومهمته ابتياع الاقمشـة اللازمة للحرم والقصر .

د ـ البشكجي باشي : المكلف باستلام الهدايا التي ترفـع لجلالة السلطان ، سواء اكانت من الدول الاجنبية ، ام من رعيته العثمانية .

على ان هؤلاء كانوا ملحقين بكبير الاغوات : صاحب الدولة والعناية مثلما كانت سراري القصر رعية له يشرف عليهن . ويراقب اداءهن ويتحرى قصورهن ، وله ان يفرض العقوبات على المذنبات منهن[2] . فما اعظم نفوذه ؟

*

نفوذ الحرم السلطاني واضراره

ان السلطان سليمان القانوني الذي يرجع اليه نفوذ الحرم السلطاني واضراره وبدعة تحجب السلاطين ، وتقع عليه مغبة هذا التحجب والتلهي بين الحرم : ان هذا السلطان نفسه لم يسلم من نفوذ الحرم ، فكانت تتحكم فيه

---

١ ـ مجلة الهلال السنة ١٧ الصفحة ٥٩٢

2- K . Ganem Les Sultans Ottomans T. II P 20

امرأة، ولعلها هي التي حملته على ارتكاب بدعة ليست لها سابقة في تاريخ آل عثمان، اذ رفع من مصاف الخدم تابعه ابراهيم الى مقام الصدارة العظمى، واظهر تسامحاً حيـــاله وحيال الذين خلفوه في الوزارة، فاغتنوا على حساب الرعية والحكومة [١] ثم لما اسند السلطان منصب الصدارة العظمى، اكراماً لابنته وامها، الى صهره رستم باشا لم يمنحه النفوذ المطلق فحسب، بل غض الطرف عن تصرفاته المشينة. فشرع رستم باشا يبسط يده على قرى كثيرة من املاك الدولة، واخذ يوقف على نفسه وعلى خواصه بعض « التيمارات » التي هي من حق الغزاة المرابطين، فضلاً عن بيعه مناصب الدولة ورتبها. [٢]

ان هذا التسامح من قبل السلطان لم يلبث ان آتى أكله، بعد بضع سنين فقط من وفاته، حينما اصبحت مقاليد السلطنة موزعة على الحاشية من رجال ونساء وخصيان.

ولما صار الملك للسلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٦ م) كانت السلطة الحقيقية قد خرجت من قبضة الوزراء والقواد، واصبح زمامها في ايدي الحرم: ام السلطان واخواته، والسلطانة بافا البندقية Baffa. يضاف اليهن اثنتان من السراري المسيحيات كانتا تنازعان السلطانة على قلب زوجها. هؤلاء اللواتي كن الحاكمات الحقيقيات في المملكة. ثم يليهن في السيطرة تباعاً رئيس الخصيان، وكبيرة خادمات السراي، واستاذ السلطان، والمفتي (وهو بمثابة شيخ الاسلام وقتئذ). وكانوا يتنافسون في احكام الدسائس للاستيلاء على نفسية السلطان الضعيفة [٣]

وبلغ من نفوذ السلطانة بوفا على الدولة، انه رغم تجاوز البندقية نصوص المعاهدات التي بينها وبين آل عثمان، وذلك في مناسبات مختلفات، فان تركيا كانت تتحمل هذه التعديات اكراماً للسلطانة، وتستمر في منح الدولة المدللة المنح والامتيازات وتجديد المعاهدات.

وقد ذاع في اوروبا وشاع انباء نفوذ السلطانة بوفا البندقية حتى انه لما اوشكت الحرب ان تشتعل بين هنري الثالث ملك فرنسا وبين فيليب الثاني ملك اسبانيا، فرغم ان السلطنة كانت تميل الى مساعدة فرنسا التي رجت السلطان بان يمدها بالاسطول العثماني، وكتبت كاترين دومديسس الى السلطانة بوفا تو جوها تحقيق هذه الامنية فان السلطنة لم تفعل لان مصلحة البندقية وقتئذ كانت تتفق مع اسبانيا [٤] وهكذا فقد رجحت، اكراماً للسلطانة، وجهة نظر البندقية على مصلحة السلطنة، فلم تساعد

---

1 - Lavallée , Histoire de la Turquie T. II. P. 356

٢ ــ تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ١١٢ــ١١٥

3 - LaVallée. Hre de la Turpuie T. II . P 356

4 - Lavallée . Histoire de la Turquie T. II. P. 31

هذه صديقتها فرنسا على اسبانيا : وهي عدوتها التاريخية .

ولما خلف محمد الثالث والده مراد الثالث (١٠٠٥ هـ = ١٥٩٦ م) استطاعت امه السلطانة بوفا ان تحتفظ بنفوذها رغم انفة السلطان الجديد وحرصه على الاستقلال الذاتي . ذلك انها كانت تعرف نقطة الضعف فيه فتنفذ منها الى قلبه : فكانت تغمره بالسراري الفتانات فتصرفه عن اعمالها. هذا وان سنـــان باشا ، وجغالة زادة ، وحسن القاسي الذين خلفوها في النفوذ ، كانوا ، هم ايضاً ، دخلاء ومن اصول منحطة . وما ان بلغوا المناصب العليا حتى اسرعوا يبيعون بالمزاد موارد السلطنة ، ويزيّفون العملة ، ويضربون الضرائب الجديدة . وان الاموال التي استأثر بها هؤلاء ظلماً وعدواناً كانت تفضي الى حرمان الجند من حاجاتهم الضرورية . »[1]

واما السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠ م) فقد ارتقى العرش وهو ابن خمسة عشر سنة . ولما بلغ سن الرجولة ظهرت عليه علائم الحزم والصدق وحب الاصلاح والعدل ؛ ولكن السلطة التي كان يستأثر بها الحرم طمست على مؤهلات السلطان الطيبة .

ونظراً لقلة خبرته في انتقاء الوزراء ، ولكثرة استبداله اياهم ، ونظراً لقسوته وتقلبه جعل السلطة تنتقل من يده الى القصر ، كيما يقبض عليها « **قيزلراغاسي** » اي آغا الحرم واعوانه ، وهو رئيس الخصيان السود ، وهذا ما حمل احد الايطاليين عـــلى القول « **ليس بمعروف ، في الواقع ؛ من هو المتسلط على الدولة .** »[2]

على ان السلطان مراد الرابع وان اشتهر بالعزم والحزم وقوة الارادة ، فهو في الحقيقة ، لم يكن خيراً من اسلافه من حيث الاستقلال عن نفوذ الحرم ؛ بل كان كدمية بين ايدي محظياته ووالدته يلعبن به على حسب اهوائهن وشهواتهن [3].

وكانت النتيجة ان اصبحت مقاليد السلطنة بأيدي الدخلاء والاجانب وحديثي النعمة بينما أن الاسر الكريمة ، التي لا رواج لها في مثل هذه السوق السوداء ، التزمت بيوتها حزينة كئيبة ليس لها من الامر شيء . فكانت تنظر بعيون دامية الى هؤلاء الفاسقين يبيعون القرى والاراضي الاميرية ، ويوزعون « التيمارات » والزعامات المهمة على خدمهم واتباعهم ، ويبيعـون الالوية وسائر المناصب الى الذين يزيدون لهم في الاثمان . ويقول جودت باشا الذي طالما اعرب عن ألمه

1 - La Vallée . histoire de la Turquie T.II P. 36
2 - La-Vallée Histoire de la Turquie T. II P 60
3 - La Vallée Histoire de la Turquie T. II P 66

هذا المصير ، « **ان الوزارة صارت من ثم مبتذلة بنظر اصحاب الكرامة لأنها اصبحت تمنح الى بعض بكوات السناجق** »[١]

زد الى ذلك ما صار الدول الاجنبية بواسطة هؤلاء الدخلاء والدخيلات من مكنة على على تسيير عجلات السلطنة حسب اهوائها ومصالحها . على ان السلطانة بوفا لم تكن وحيدة في تاريخ آل عثمان : ولنتحدث عن امرأة ثانية استطاعت ان تحمل السلطنة على اشهار حرب ضد روسيا لتثأر منها لاسوج . وتفصيل ذلك ان العداوة كانت شديدة بين روسيا وأسوج في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠ م) . ولما انتصرت روسيا انتصاراً حاسماً اضطر شارل الثاني عشر ملك اسوج ان يلجأ الى استامبول محتمياً بآل عثمان .

وكيف السبيل الى اثارة حرب بين تركيا وروسيا قد تمكن هذا الملك اللاجىء من استرداد بلاده وعرشه ؟

هذا ما كان الملك شارل يمني نفسه به في نهاره وليله . ولكن هذه المهمة صعبة ، وليست تركيا مستعدة لقبولها. غير ان بانياتوسكي Paniatouski ، الذي كان زعيم البولونيين في استامبول ، قطوع لتذليلها . فعمل جاهداً على ادخال امرأة يهودية ساطعة الجمال الى الحرم السلطاني . فاستطاعت هذه المرأة ان تحظى بعطف السلطانة الوالدة ، وان تستأثر بمحبة محظيات السلطان ؛ وشرعت تؤثر عليهن بسرد انباء طريفة عن شجاعة ملك السويد ، وفظائع الروس ، وما زالت بهن حتى سخرتهن لارادتها ، او على الاصح لارادة الاجنبي ، فأثرن بدورهن على السلطان حتى أشهر الحرب على روسيا في عهدها الذهبي عهد بطرس الاكبر وكاترينا .[٢]

واما الدخلاء عمال الاجانب الذين تظاهروا بالاسلام ، فهم كثر. وحسبنا الاشارة هنا الى بونفال الفرنسي Bonneval الذي اعتنق الاسلام في عهد السلطان محمود الاول (١٧٣٠ — ١٧٥٤م) ، وتظاهر باخلاصه للترك ، واستطاع ان يتمتع بثقتهم حتى نصب قائد المدفعية باسم احمد باشا . ولكنه كان ، في الواقع ، عاملا لفرنسا وان تظاهر بانه طريد باريس ، وانه غادرها مغضوبا عليه. وان ننسى فلا ننسى ما بذل من المغريات حتى القى تركيا بين انياب حرب ضروس اشهرتها على روسيا والنمسا[٣] .

---

١ — تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ١٠٤ — ١٠٥

2 - K. Ganem Les Sultans Ottomans T. II. P. 74

3 - la Vallée Histoire de la Turquie T. II. P. 172

وبعد ماذا يكون مصير سلطنة القى اصحابها مقاليد حكمها بين ايدي الجواري والسراري والخصيان وائتمنوا عليها الدخلاء الاجانب ؟

لقد اجاب على هذا الدهر . وقدشار كنا آل عثمان في الالم حينما ساءمصيرهم ، ولكن الدهر لم يلن قلبه وتلا الآية : « **ولن يظلم ربك احداً** »

*

موبقات المابين ورجاله

اطلق على مجلس الوزراء «**الباب العالي**» في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ، ابان عصر الدولة الذهبي ، واثناء ما بلغت الذروة . وقد امر السلطان بتشييد صرح فخم لهذا المجلس ، وضاعف رواتب اعضائه ، واسمى رئيسه « **الصدر الاعظم**[1] »

وكان الباب العالي المرجع الاعلى في جميع شؤون السلطنة ، داخليـة كانت ام خارجية ، مدنية ام عسكرية . وظل كذلك الى بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩)

ولما سرح هذا السلطان مجلس « **المبعوثان** » سنة ١٨٧٨ ، وقبض بيده على هذه الشؤون اصبح ديوانه الخاص في قصر يلديز ، المؤلف من مستشاريه و كتبته ومرافقيه ، المرجع الاعلى دون الباب العالي . وقد اطلق على هذا الديوان لقب « **المابين** » ؛ وهي كلمة منحوتة من اللغة العربية لانه كان صلة وصل بين السلطان وبين الباب العالي ، فهو اذن « **مابين** » الفريقين .

واذ اصبح المابين في العهد الحميدي صاحب الحل والعقد تحت اشراف السلطان ساهم مساهمة فعالة في تحمل التبعات . وسنترك الكلام ، في هذا الموضوع ، للاستاذ روحي الخالدي نائب القدس في مجلس المبعوثان « **ولا ينبئك مثل خبير** » ؛ قال سنة ١٩٠٨ في مقـال له عنوانه **الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة** : « ان الحرب اليونانية اظهرت فتوة العثمانية ، وبعد انتصار العساكر العثمانية في هذه الحرب زاد غرور المابين واستبداده حتى انتقل مركز ادارة الحكومة من الباب العالي الى سراي يلديز ، واصبح مجلس الوكلاء لا حكم له ، والنظار ليسوا سوى منفذين لما يتقرر في السراي . واكثر رجالها اميون ، وكان يندر في كتاب المابين من يعرف الفرنسية ، فضلا عن غيرها من لغات اوروبا . ولا خبرة لهم بالسياسة ولا في المسائل الحاضرة ، ولذا كثرت

---

١ ـ المؤلف ارليات سلاطين تركيا ص ١٩

الغلطات السياسية ، وسوء الادارة واختلاس الاموال الاميرية ،وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل.

على انه قد صار لهم في الارتكاب وسوء الاستعمال خبرة الى ظرف ورقة وتورية . فلما شكل قضاء بئر السبع في التيه ، وعين له قائمقام من الاستانة ، قال له دولة الناظر: « **بالطه كير مامش اورمانه كوندريورم** » اي اني ارسلك لغابة لم تدخلها بلطة الحطاب . فذهب القائمقام وحطب في الناس حتى عزل .

هذا وبعد ان كان تعيين المأمورين يجري بانهاء الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب يصدر عن المابين مباشرة . وامتلأت دوائر الاستانة بالمأمورين ، ولم يكن الغرض من التعيين التحري على مأمور قادر على القيام بالوظيفة ، وانما ايجاد وظيفة وعمل للمقربين والملتمس لهم ، او للذين يخشى بأسهم . واختلت الموازنة المالية ، وكثر الظلم في جباية الاموال الاميرية ، واختلت دوائر العساكر البرية والبحرية ، واصبحت لا تمرن ولا تدرب على التعليم خوفاً من الهيجان وحصول الانقلاب . وكان الضباط يبيعون معاشاتهم المتداخلة[1] للسماسرة بأثمان بخسة حتى بيعت المائة غرش بأربعة غروش . ثم يتفق السمسار مع المحاسبه جي ومن فوقه ويربحون الفرق . ولذا كان الضباط في حالة يرثى لها . واصبحت قيادة العساكر وادارة المكاتب العسكرية في ايد اناس لا اهلية لهم ولا يهتمون الا بالتجسس ، وصارت ادارة التجسس والخفية من اعظم دوائر الدولة .لها مراكز وشعب كبيرة. فاذا قالوا« **فلان له قصد سيء لحضرة الخلافة** » أو « **له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة** » كانت هذه الالفاظ كافية لدخول منزله وتفتيش اوراقه. ثم نفيه وحبسه .

هذا ولم تباشر الحكومة امراً جدياً لعمران البلاد واستخراج ثروتها فكم نظر الولاة والمتصرفون شزراً الى مدرسة وطنية اسسها فرد ، او الى مدرسة سلطانية اسسها جماعة ؛ او الى شركة صناعية او مالية عقدها الاهالي. فما كانت تلبث حتى تعطل ويمحى اثرها.»

وقد علق الاستاذ الخالدي على هذا بقوله : دخلت يوماً على السيد جمال الدين الافغاني ، وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وتأتيه سفرة من (المطبخ العامر) فقال: «وما فائدتي بهذا القصر والخدمة والسفرة ، وانا اذا اشتهيت أكلة (بفتك) او نشر فكر في جريدة ، او التنزه في ناحية من المدينة لا استطيع . ايهنأ عيش لانسان بغير الحرية[1] ؟ .»

---

١ – ربما يريد بذلك التي تتأخر تأديتها في الاستحقات الشهرية

١ – مجلة الهلال الجزء الثالث السنة السابعة عشرة صفحة ١٦٣

الجزء الثاني

الاغلاط الادارية والسياسية

١

وجهة السلطنة في الفتح والتوسع

لا ريب في ان الانسان مسيّر اشد مما هو مخير ، وان لعقائده الدينية التأثير الاكبر في تحديد وجهته . وما يقال عن الافراد يقال عن الجماعات . وهذا ما حدث في صدد تقرير سلطنة آل عثمان وجهتها في الفتح والتوسع منذ عهد تأسيسها .

نشأت سلطنة العثمانيين في جيل كانت فيه روح الحروب الصليبية لا تزال تغمر العالم ، وقامت هذه السلطنة في الانطول على مقربة من اوروبا المسيحية ، وفي جوار بعض المقاطعات الاسيوية التابعة للامبراطورية البيزنطية .

فما ان نشط العثمانيون المؤسسون للتوسع حتى حملتهم عواطفهم الدينية الى الاتجاه شطر اوروبا : فبدأوا بتحرير القسم اليسير الاسيوي من ربقة البيزنطيين ، بينما كانوا يقضون تباعا على الامارات التي خلفت مثلهم السلطنة السلجوقية في الاناطول .

وكانت العداوة مستحكمة ، في ذلك الحين ، بين جان باليولوج امبراطور بيزنطة وبين اسطفان دوشان ملك الصرب الذي جمع حوله الصقالبة وزحف يريد الاستيلاء على قسطنطينية عاصمة الروم. وهنا برزت الفرصة الاولى لآل عثمان: فقد استنجد الامبراطور البيزنطي بهم على عدوه ، فلباه السلطان اورخان الاول . ولما مات ملك الصرب دون ان تتحقق امانيه ، تقمصت

هذه المطامع في سلطان آل عثمان. ذلك لان الحرب التي نشبت بين الصرب والبيزيطيين كشفت القناع عن سوء احوال هؤلاء وضعفهم العسكري.

وسرعان ما فكر السلطان باحتلال نقاط استراتيجية على الشاطىء الاوروبي، تكون له نقطة انطلاق شطر اهدافه الحربية. فما الحيلة، وهو لا يملك اسطولا يستطيع به ان يجتاز الدردنيل؟ ولكن العزم اذا صح لم تعدم الحيلة. فاذا ببكر اولاد السلطان سليمان يجتاز الدردنيل خلسة تحت استار الظلام الى العدوة الاوروبية (سنة ١٣٥٧ م) يرافقه اربعون شخصاً من اشد الجند، ويسحبون ما كان فيها من النوارب والمراكب الكثيرة الى الضفة الاسيوية، واذا بثلاثين الفا من الترك يستقلونها ويحتلون مرفأي ترنب وغاليبولي.

غير ان الاجل لم يمهل اورخان حتى يبلغ امنيته، وما ان خلفه ابنه مراد الاول حتى نشط لتحقيق هذه الامنية، ففتح قادة جيشه قطري ادرنه، وفيليبه التي كانت قاعدة مقاطعة الروملي الشرقية، ثم اتبعوهما بوردار وكاجمينا وبلاد الصرب. وواصل الفتح بعده بايزيد الاول ففتح رومانيا (الافلاق والبغدان) واضاف اليها بلغاريا، ولولا الكارثة التي فاجأته، وذلك بزحف تيمورلنك عليه واسره، لما عجز عن دخول قسطنطينية.

ولكن هذه الامنية: امنية فتح قسطنطينية كانت من نصيب حفيده جلبي محمد، الذي لقب من بعد بالفاتح ونقل عاصمته اليها، وارسل منها الحملات لاسترداد الامصار الاوروبية التي كانت استعادت استقلالها اثر كارثة تيمورلنك، كما ساق جيشاً واسطولا لفتح بلاد اليونان وجزر الارخبيل التابعة لها، وكانت كلها حملات موفقة ما عدا الحملة على البانيا حيث استطاع اهلها اسكندر بك ان يحافظ على استقلاله.

وقد عرضت ظروف استثنائية بعد فتح القسطنطينية اوقفت حدة الفتوحات العثمانية حتى عهد السلطان سليمان القانوني. وكان سبب ذلك أن السلطان بايزيد الثاني، الذي خلف اباه محمداً، كان اميل للسلم منه للحرب. ولعل جو القسطنطينية الفتان، وما فيها من مدنية بيزنطية ساحرة خدرا اعصابه، وحولا اهدافه الى التمتع بالحياة الجديدة التي لا عهد لهم بها من قبل. وحباً بالاستقرار شرع يعقد المعاهدات مع الدول الاوروبية التي كانت تتسابق الى محالفته.

ثم لما خلفه ابنه ياوز سليم اعتنق مذهباً آخر في صدد التوسع كان دليلا على اصالة رأيه: فقد انتبه الى الاضرار التي ستحيق بالسلطنة اذا استمرت تستوسل بالفتح في اوروبا، وذلك لتعدد العناصر التي ستدخل في حوزتها على قلة عصبيتها الاسلامية فيها، هذا فضلا عن ان الامصار التي تدخلها السلطنة وتلحقها بها عنوة كانت ذات تاريخ سالف، واستقلال طويل، لا تفتأ تحن اليه.

كما ان الدول الاوروبية التي تشاركها في الاماني والآلام ما انفكت تثير فيها هذا الحنين.

والى هذا فقد ادرك السلطان مغبة الطريقة التي اختارها اسلافه منذ السلطان اورخان الاول في ادارة البلاد ، وهي طريقة اللامركزية الواسعة ، واعتقد ان اللغة التركية لا تصلح لان تكون لغة امبراطورية تقبل عليها الشعوب المحكومة ؛ وتعتمد عليها في صدد خلق مدنية واحدة تتصل بالتاريخ . لذلك فان السلطان سليما حول وجهة السلطنة في الفتح نحو آسيا على امل ان تقوم هناك قوة تؤيده بين اقوام تجمع الجامعة الدينية بينه وبينهم ، فيتمتع بعصبية لا يجدها في اوروبا . ثم هو متى جمع بين الاقطار الاسلامية من حدود الصين حتى البحر المتوسط يصبح بمقدوره ان يكرّ على اوروبا ويبلغ اماني قومه منها .

وهو الى ذلك كان يرى وجوب جمع شتات المملكة بتوحيد السلطة وتوثيق الروابط بين الامصار والعاصمة ، فضلا عن السعي لوحدة الشعب بتوحيد العناصر المختلفة ، على ان يستعين باللغة العربية ، وبالمدنية الاسلامية لتحقيق هذه الاماني .

وقد تحققت بعض أماني السلطان في فتح العراق والشام ومصر بالاضافة الى الاناضول وديار بكر وأرمينيا ؛ وكان يؤمل ان يزيح الدولة الصفوية في فارس القائمة حاجزاً بينه وبين امارات ما وراء النهرين والافغان والسند . ولكن الاجل عاجله فماتت بموته خطته الحميدة . وذلك لان ولده السلطان سليمان القانوني لم يكن يشاطر اباه في هذا الاجتهاد ، ولم يلبث ان استأنف طريقة اللامركزية في الادارة ، وعاد للتوسع في اوربا ؛ فضلا عن الاحتفاظ باللغة التركية .

حقاً ان هذا العاهل وفق في افتتاح المجر ، كما وفق في الفوز على حليفتها النمسا حتى بلغ فينا عاصمتها ؛ وحقاً ان بعض خلفائه احرزوا انتصارات باهرة في حروبهم ضد اوروبا ، واصبحوا ، في حقبة من الزمن ، مرجع العالم ؛ ولكن ما اقصر مدى هذا العز ؟ لان مغبة اتجاهات آل عثمان شطر اوروبا لم تلبث ان تبدت ، وظهرت مضارها عاجلا مذ ذهبت روح هذا السلطان الى الملأ الاعلى . (٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م) .

اجل لقد بدأ انحطاط السلطنة ابان عصره الذهبي ، وظهر في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٦ م) ؛ وكمل في ايام احمد الاول (١٦٠٣ — ١٦١٧ م) . ثم كان الخلال قرين فوضى في سلطنة محمد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) . وشرعت الدولة منذ ذلك تتدهور عاماً بعد عام ويتقلص ظلها ، ولا سيما لان العناصر الاوروبية من رعيتها ما ان آنست في السلطنة الضعف ، وفي نفسها القوة على استرداد الاستقلال حتى اصغت الى الدول الاجنبية فخرجت عليها تباعاً . وكان ما كان من توالي الثورات الداخلية والحروب الخارجية . ثم كان ما كان من موت

« **الرجل المريض** » الذي بقي اكثر من جيل في حالة الاحتضار ، لا يمد في حياته الا التوازن السياسي الدولي .

ونحن نعتقد ان خلفاء السلطان سليم لو آثروا خطته الاسيوية الاسلامية على التوسع في اوروبا لكان مصيرهم غير هذا المصير . ولا سيما اذا قرنوا الفتح بالتجدد .

لقد كانت الطريق الاسيوية معبدة لفتوحاتهم اكثر من الطريق الاوروبية. فكم حاول اهل جاوة اقناع آل عثمان من اجل استلام زمام امورهم ؟ وكم اعرب اهل الهند عن رغباتهم في الانضمام الى دولة الخلافة ؟ وكم تنادى المغاربة في مراكش والجزائر وتونس لتوثيق عرى الحكم بينهم وبين امير المؤمنين ؟ وكم تمنى اتراك ما بين النهرين الى حدود الصين لو تتاح لهم الفرصة كيما يتصلوا بابناء عمومتهم الذين كانوا يرفعون رؤوس قومهم؟

ولكن كلمة « **لو** » لا تبدل التاريخ ، ولا ترد ما فات . ولعل السلطان عبد العزيز كان على هذا الرأي حينما حاول الاتفاق مع روسيا على محالفة هجومية دفاعية يكون من اهم شروطها اختصاص آل عثمان في التوسع بالشرق الاسلامي بينما يترك الى روسيا مجال التبسط في اوروبا الشرقية . وكان من محسنات هذه السياسة اتقاء شر بطرسبرج الطامعة بالاستانة؛ وكان من سيئاتها انتفاض لندن انتفاضاً ادى الى قتل السلطان . ذلك ان بريطانيا العظمى قضت على هذه المحاولة قبل نضوجها نهائياً : وما ان انتبهت الى اجتماع أغناتيف سفير روسيا مرات متوالية بجلالة السلطان حتى حسبت للامر الف حساب ، ونهدت الى التحريض ، بطرقها المعلومة ، على السلطان عبد العزيز ، ووسوست الى اولئك الساسة من قومه فخلعوه ثم قتلوه (١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م) .

ويطيب لنا ان نورد في هذا الفصل اهم العوامل الاخلاقية والجغرافية والسياسية التي افضت الى القضاء على آل عثمان من جراء قيام سلطنتهم على انقاض الامبراطورية البيزنطية ، وبسبب اتجاههم في الفتوحات شطر اوروبا .

☆

تخنث الاتراك الحاكمين

لما غمرت الموجات التركية والمغولية المنحدرة من اواسط آسيا العالم الاسلامي ، شرع امراؤها المتغلبون يقلدون الامويين والعباسيين في تنشيط العلم والعمران . وشملت هذه البادرة كبار الغزاة

كهولاكو وتيمورلنك، حسبما اوضحناه في كتابنا قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور.
وجرب الفاتحون من آل عثمان ان ينهجوا هذا المنهج، ولكن خلفاءهم، الذين غرقوا في بحر من المشاكل لوجود دولتهم في اوروبا، صرفتهم مشاكلهم عن تقليد الاسلاف، كما لم تترك لهم الوقت لاقتباس مدنية المعاصرين.

ولو ان آل عثمان ولّوا وجههم في الفتح شطر آسيا الاسلامية لكانوا استطاعوا، مع شعورهم بالحاجة الماسة لدعم ملكهم الواسع بمدنية تزينه وتتناسب مع عظمته، ان يحتفظوا بميزاتهم الحربية، واخلاقهم الفطرية السليمة. اما وانهم تربعوا في اوروبا على انقاض الامبراطورية البيزنطية، فقد كان لا مناص لهم من وراثة اخلاقها والتلقح بجراثيم ادوائها. فانقلبوا رأساً على عقب، واصبحوا في اوروبا اتراكاً في الاسم، ولكنهم بيزنطيون في الحقيقة؛ خصوصاً وان الدم البيزنطي اخذ يتغلب في عروقهم على الدم التركي، من جراء اقبال البيزنطيين وغيرهم (الذين اعتنقوا الاسلام) على الاقتران بالتركيات تقرباً منهم وزلفى، وبسبب تهافت الاتراك على الزواج من الاجنبيات واقتناء السراري، والمحظيات.

وقد وصف جودت باشا ما كان لهذا الاختلاط بين الترك والبيزنطيين من آثار سيئة اذ قال:
«ان الناس دخلت عليهم عوائد جديدة اعدت طبائعهم لاقتبال السفاهة؛ وفضلا عن السفاهة التي اصابت جهاز الجند وانظمته فقد كسفت انوار الاداب، وفسدت الاصول التي كانت مرعية منذ التقدم بين الناس؛ فسدت الى حد ان الروابط الطبيعية القائمة على التودد بين الزوجين اختل امرها.»

هذا الى ان الناس قد تلهوا بزخارف الحياة، فشيدوا القصور، وبنوا القاعات الجميلة، وزينوها بالرخام، وجملوا اطرافها بالازهار؛ واوقدوا المصابيح، واقاموا على ظهور السلاحف منارات كانت اذا تمشت السلاحف في القاعات، وتخطرت في الجنائن تشع الانوار من فوق ظهورها؛ وترسل اشعتها بترتيب يدعو الى الاعجاب. والى هذا كان الاعيان قد تقاسموا فيما بينهم سهل «**الكاغدخانه**» في الاستانة، وشيدوا فيه نحو ستين قصراً تكتنفها الحدائق الكثيرة الظاهرة التي امتدت حتى قرق اغاج. وقد اجروا نهر جاغليان بين تلك الحدائق والقصور، ونصبوا المنارات حوله، وفي كل مكان آخر مما يدهش الابصار. زد على ذلك ان الناس قد اسرفوا في السفاهات والفحش في الكاغدخانه حتى تجاوزوا الحدود، وبسطوا ايديهم كل البسط حتى بيع بصل اللاله (نوع من الزنبق الاحمر) بخمساية ربعية ذهبية[1].

١ – تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ٧٠–٧١

ومن المؤسف ان هذا الانقلاب الاخلاقي الذي اصاب اتراك اوروبا ، لم يرافقه اقبال على اكتساب المعارف والفنون التي كانت تتهافت عليها عدوتهم اوروبا ، وتتنافس في ترقيتها ؛ بل انصرفوا بكليتهم الى اللهو والشهوات . وهذا ما اراد جودت باشا التنويه به حيث قال : « **من المعلوم ان انتقال الامم من مستوى البداوة الى مرتبة التمدن ، وترقيها في هذه المرتبة يستدعي الاخذ بالتدابير اللازمة المتلائمة مع التمدن والزمن . فكان من واجبات وكلاء الدولة ، وقد اصبحت دولتهم في مستوى العالم المتحضر ، ان يوجهوا انظارهم الى اقتباس الفنون والصنائع والعمل على رواجها . وكان من واجبهم توسيع نطاق الزراعة والتجارة وتعليم العساكر وتدريبها اسوة بجند الامم المتمدنة ؛ وذلك تقوية لدعائم الملك، وتعزيزاً له . غير انهم بدلا من ان يغتنموا الفرص السانحة ، ويتشبثوا بالوسائل التي تضمن بقاء الدولة على حال من الحضارة مرموقة صرفوا افكارهم عن كل ذلك ، وضيعوا اوقاتهم في الشهوات وفي السفاهات** »[1]

أجل ولولا ان ترك الاناطول حافظوا على شعائرهم الدينية وحرصوا على اخلاقهم الفطرية ، واحتفظوا بقواهم الجسدية ، وكانوا يمدون السلطنة بجند ظل ، حتى اليوم الاخير ، موضع اعجاب الامم ببسالته وتحمله الشدائد ، لولا ذلك لكان الترك البيزنطيون ، الذين غلب عليهم التخنث ، اودوا بالدولة منذ زمن بعيد . ولا بدع « **فانك لا تجني من الشوك العنب** »

☆

وفرة العناصر و كثرة الملل

قال درابر : «تختلف الطبائع باختلاف مناخ البلاد . وكما ان نمو الدماغ ، وهيئات الناس واخلاقهم تختلف باختلاف اقاليم امصارهم فان التقاليد والعوائد ، بل ان المدنية نفسها تتباين بتباين اجواء البلاد الطبيعية . وهذه نقطة تستحق التوقف عندها لما لها من الارتباط بالسياسة . واعني بذلك ان الدولة التي تمتد مستقيماً من الشرق الى الغرب تكون اشد امتزاجاً بين فئات شعبها ، واشد تماسكاً بين عناصرها من تلك التي تمتد افقياً من الشمال الى الجنوب . ان الامبراطورية

---

١ – تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ١١٧

الرومانية كانت من القسم الاول ، واني لا ارتاب في ان هذا الوضع الجغرافي كان من الاسباب الرئيسيه في عظمتها ، وامتداد عهدها » . الى ان قال : « **ولهذه الاعتبارات كان على الولايات الممتدة من الشمال الى الجنوب ، والتي تجمع من جراء ذلك بين طقوس مختلفة ان تستعين بقدار كبير من الحنكة السياسية[1]** »

والامبراطورية العثمانية كانت كالولايات المتحدة تمتد افقياً من الشمال الى الجنوب فتشمل طقوساً مختلفة ، وتجمع بين سفوح رومانيا وتهامة اليمن ، وتضم بالتالي عناصر لا رابطة طبيعية بينها : فبينما تجمع في اوروبا الشرقية بين الافلاق والبغدان والسرب والمغار والالبان والبوسنيين والهرسكيين والسلاف واليونان ، اذا هي تتألف في آسيا من عناصر اخرى لا ترتبط بينها وبين الشعوب الاوروبية عقائد ولا عوائد ولا تشابه كالترك والتقفاسيين والعرب على اختلاف طبقاتهم ، والارمن والكرد وهلم جرا.

وقد تبدت اضرار هذه الكثرة في العناصر والاديان واللغات ، اكثرما تبدت ، بعد ان استحوذ الوهن على السلطنة . فكانت هذه العناصر ، ولا سيما تلك التي لاتجمع بينها وبين السلطنة الجامعة الدينية ، مدعاة قلق واضطراب للباب العالي ؛ لانها كانت تهتبل كل فرصة للخروج عليها ؛ هذا فضلاً عن انها كانت نقطة ارتكاز للسياسات الدولية الاجنبية في سبيل القضاء على دولة آل عثمان.

*

تألب اوروبا على السلطنة واتصال الحروب

كان الزمن زمن تضحية باسم الدين : وكما ان آل عثمان الفاتحين كانوا في زحفهم على اوروبا يشعرون شعور محمود الغزنوني قبلهم من حيث انه كان يقوم بواجب ديني في زحفه على الهند فان العالم الاوروبي تنادى ، مذ وطئت اقدام آل عثمان بلاد الكثلكة للتخلي عن خلافاته القائمة بين بعضه البعض ؛ وتقلد السلاح ، ومشى صفاً واحداً ، كما مشى من قبل عهد الصليبيين ، لدفع الخطر الاسلامي العثماني الداهم.

ان اوروبا لم تحفل ، اول الامر ، بآل عثمان حينما تعرضوا للامبراطورية البيزنطية ، ولم

---

1 - Drapper. Histoire du dev. Int. de l'Europe. T.IV . P. 19.

تستجب لنداء البيزنطيين والممالك الارثوذكسية المجاورة لهم، لان التباغض المذهبي بين الكاثوليك والروم كان مستفحلا الى حد ان الدول الاوروبية الغربية وشعوبها كان يلذ لها ان تشمت بالبيزنطيين وجيرانهم. وعلى رغم ان البابا اوربانوس الخامس كان قد حض اوروبا على انقاذ السرب فلم يستجب له احد منها (١٣٦٣ م). ويرجع تفاقم هذا التباغض الى الخلافات التي وقعت بين الروم واللاتين اثناء الحروب الصليبية [١].

لذلك فان الجيوش العثمانية لم تجد عناء اول الامر في تذليل بيزنطة، ولا في هزيمة السرب والبلغار والفلاخ والالبان التي اتحدت عليها مذ تقدمت الى ادرنه. ولكن الحروب اصبحت، من بعد، اكثر صعوبة مذ توجس خيفة سجيسمون ملك المجر اثر ضياع استقلال الصرب والبلغار، والتجأ الى قداسة البابا. وقد استجاب قداسته لنداء عاهل المجر فاعلن اشارة الخطر في اوروبا ودعاها الى اتحاد مسيحي جديد ضد الغزاة المسلمين. فكانت هذه الحرب بداية حروب صليبية حديثة متواترة ظل يحرض عليها البابوات مدة قرنين ونيف، ويشتركون عسكرياً وبحرياً في اكثرها. وحسبنا الاشارة الى هذه الحروب لان المجال هنا لايسمح بالاسهاب. ولانا فصلناها تفصيلا في كتابنا الاول. وهي :

١ — حرب المجر سنة ١٣٩٦م وفيها اتحدت المجر وبعض الافرنسيين والالمان ورهبان رودس والفلاخ، وكان النصر حليف العثمانيين.

٢ — حرب البانيا سنة ١٤٧٠م وفيها اتحد اسكندر الالباني مع جيرانه على تركيا وذلك في حرب دامت ٢٥ سنة وانتهت بانتصار تركيا.

٣ — حرب البندقية سنة ١٤٧٢م وفيها اتحد البنادقه واتباع البابا وامير نابولي وكان النصر حليف العثمانيين.

٤ — حرب الدول المتحدة سنة ١٤٧٢م وفيها اتحدت البنادقه واتباع البابا وفرنسا ونابولي ورهبان رودس، وكانت الحرب بحرية، لم تسفر عن قتال حاسم.

٥ — حرب الدول المتحدة سنة ١٥٠١م وفيها اتحد البنادقه والبابا ونابولي وفرنسا ورودس، والتحمت الحرب في البر والبحر، وعقد الصلح قبل ان تقول الحرب كلمتها النهائية.

٦ — حرب النمسا سنة ١٥٣٢م وفيها اتحدت النمسا واسبانيا والمانيا والبابا. وعقد الصلح قبل ان يعقد النصر لاحد الفريقين.

---

١ — المؤلف فلسفة التاريخ العثماني الكتاب الاول ص ٢٤٢

٧ — حرب الدول المتحدةسنة ١٥٣٨ وفيها اتحدت بندقيةواسبانيا ومالطة والبابا وجنوه والبرتغال ، وكانت الحرب برية وبحرية انتصر فيها العثمانيون .

٨ — حرب الدول المتحدةسنة ١٥٦٠ وفيهااتحدت اسبانيا والباباوجنوه وفلورنسا ومالطة وصقلية ونابولي وموناكو ؛ وكانت الحرب بحرية لم تسفرعن نتيجةحاسمة.

٩ — حرب البندقية سنة ١٥٧١ وفيها اتحدت البندقية واسبانيا والبابا وموناكو ، وكانت الحرب بحرية ظهر فيها تفوق الدول المتحدة التي احتلت بعض الجزر .

١٠ — حرب النمسا سنة ١٦٦٣ وفيها اتحدت النمسا وفرنسا والمانيا وكانت الحرب برية، وانتصر المتحدون .

١١ — حرب النمسا سنة ١٦٨٣ وفيها اتحدت النمسا وبولونيا وساكس وبافاريا ، وكانت الحرب برية انتصر فيها العثمانيون ، وطاردوا الجيوش النمسوية وحلفاءها حتى حاصروا فينا ، ولكن اوروبا التي اهتزت جزعاً لهذا الانتصار بادرت الى نجدة النمسا ، فارتد العثمانيون عنوة وخسروا خسراناً عظيماً لم تقم لهم بعده قائمة .

١٢ — حرب النمسا ١٦٨٤ ، وفيها اتحدت النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة مالطهوالبابا وروسيا ، وكانت حرباً برية بحرية هائلة استمرت الى سنة ١٦٩٥ ، وانتهت بانكسار السلطنة وجلائها عن المجر .

والى هذه الحروب الصليبية التي حمل اعلامها بابوات روما ، انصبت على آل عثمان حروب اخرى كانت ذات صبغة سياسية ودينية في وقت واحد؛ ولكن لم يكن لاصحاب الغبطة دخل فيها . كحرب الجنويين بالاتفاق مع البيزنطيين لدفع آل عثمان عن قسطنطينية ، والحرب البحرية التي وقعت، في اوائل القرن الثالث عشر ، بين اسطول آل عثمان وبين الاساطيل المتحدة التابعة لرهبان مالطة واسبانيا والامارات الايطانية، وكحرب الاتحادالمقدس سنة ١٦٨٣ الذي اتحدت فيه النمسا والبندقيه وبولونيا وروسيا قصد اجلاء العثمانيين بتاتاً عن اوروبا .

على ان هذه الحروب الاخيرةوان لم تنشب عن دعوة علنية للحرب المقدسة صادرةعن روما،فمما لا ريب فيه انها كانت اثراً من آثار اثارة الفاتيكان للمؤمنين من اجل تطهيراوروبامن الكافرين. ذلك ان البابا لم يكن يترك مناسبة تفوته في هذا الصدد ،ولا وسيلة للتنشيط . ومنها تلك الاوسمة والالقاب التي كان يمنحها لابطال تلك الحروب . ولقد اطلق على اسطفان الرابع ملك البغدان لقب : « **بطل النصرانية وحامي الديانة المسيحية .** »

هذا الى ان اصحاب التداسة في روما كانوا يثيرونها حرباً شعواء على كل دولة مسيحيـــة

تعاونت مع آل عثمان سياسياً . شأنهم في الحملة المنكرة على فرنسا . حينما لجأت الى السلطنة تستنجد بها ضد شارلكان امبراطور النمسا وتستغيث بها لتخليص ملكها من الاسر ، وبلادها من الاحتلال .

غير ان الدعوة الصريحة من قبل الفاتيكان خفتت بعد زوال الخطر الاسلامي ، وذلك على اثر ما منيت به تركيا من الاندحار سنة ١٦٨٣ تحت اسوار فينا ، ثم سنة ١٦٩٢ في معركة سن كوتار ؛ خصوصاً وكانت قد نهدت كل من النمسا ثم روسيا لمواصلة الحروب ضدها ، واخذتا على عاتقها مهمة اجلائها عن الاراضي الاوروبية . هذا فضلا عن مشاكل خاصة برزت في الغرب وصرفته حيناً عن الدولة العثمانية . فان البعث المدني الذي شب وترعرع وقتئذ اثار الافكار الحرة والعلمانية ، وافضى الى نشوب الحروب النابليونية . فانهمكت الدول الاوروبية بشؤونها الداخلية ، وتحولت الى تصريف مشاكلها السياسية تاركة للنمسا ولروسيا مهمة النضال ضد التركي .

. . . . .

على انه لا يمكن ان يقال ان الحروب التي اتصلت بين النمسا وتركيا كانت ترجع الى عوامل صليبية فحسب . بل كان الدافع اليها ايضاً اسباب سياسية مدارها التنازع على المجر . فما ان قضى السلطان سليمان القانوني على استقلال تلك المملكة واحتل عاصمتها بود (٩٣٢ هـ ١٥٢٦م) حتى خف ملك النمسا فردينان واكتسح تلك البلاد مدعياً بانه احق بها من سواه لقرابته من ملكها القتيل . ولكن السلطان لم يمهله بل زحف عليه ، وظل يطارده حتى اسوار عاصمته فينا . فكان هذا الخلاف منشأ حروب متواصلة بين الدولتين الكبيرتين على الوجه التالي :

١ — حرب ١٥٢٩ انتصر فيها العثمانيون

٢ — حرب ١٥٣٢ كانت حرباً بحرية عقد لواء النصر في اكثر وقائعها للعثمانيين

٣ — حرب ١٥٤١ وقفت هذه الحرب على اثر الاتفاق باقتسام المجر بينهما على ان تؤدي النمسا خرجاً عن القسم الذي تحتله منها .

٤ — حرب ١٥٥١ وظلت ناشبة بينهما الى سنة ١٥٦٢ حيث استؤنف الاتفاق على الشروط السالفة

٥ — حرب ١٥٦٦ نشبت على اثر وفاة السلطان سليمان القانوني ، ثم وقفت على اساس اتفاق بني على الشروط السابقة تقريباً .

٦ — حرب ١٥٨٨ وربما كان قصد السلاطين في اثارتها صرف الانكشارية الى الحرب بعد ان استفحل شرهم في المملكة ، واستمرت حتى سنة ١٦٠٦ حيث عقد الصلح الذي فيه بعض التعديل في غير صالح السلطنة

٧ — حرب ١٦٨١ ، بدأت بانتصار باهر احرزته السلطنة حتى كادت تفتح فينا . ولكن نجدات اوروبا الكبيرة للنمسا رجحت كفتها

٨ — حرب سنة ١٦٨٤ كان اندحار العثمانيين في الحروب السابقة مشجعاً النمسا وحلفاءها على مواصلة حرب الغرض منها اجلاء العثمانيين ، واذلالهم . وقد انتهت بانتصار الحلفاء وجلاء آل عثمان عن المجر

٩ — حرب ١٧٣٦ اعلنتها النمسا وروسيا متحدتين كي تأمنا عدم تدخل تركيا في قضية بولونيا التي كانتا تتآمران على اقتسامها . وانتهت بانتصار آل عثمان

١٠ — حرب ١٧٨٨ اعلنتها النمسا على تركيا نجدة لروسيا فكان النصر لهما .

ومنذ ذلك الحين اخذت روسيا مهمة مواصلة الحروب ضد تركيا ، منفردة اذ لم تعد ، من ثم ، حاجة للاتحاد الدولي المقدس لاذلالها ، فضلا عن ان النمسا كانت قد ادركت امانيها بالاستيلاء على المجر وترنسلفانيا .

. . . . .

نشأت روسيا في النصف الاول من القرن السابع عشر ، وسرعان ما طمعت باحتلال بلاد القوزاق (قفقاسيا) قصد بلوغ البحر الاسود الذي كان يعتبر في ذلك الحين بمثابة بحيرة لآل عثمان ، فافضى هذا الاحتكاك بين الدولتين الى حروب استمرت حقبة طويلة من الزمن توازي المدة التي اشتبكت فيها السلطنة مع النمسا . اي مائتي سنة تقريباً . وهذا بيانها :

١ — سنة ١٦٧٧ بسبب التجاء خان إقليم اوكرين في القوزاق . وقعت الحرب ثم جرى الصلح سنة ١٦٨١ على بقاء ما كان على ما كان .

٢ — سنة ١٦٩٥ تعدى الروس على بلاد القوزاق فردتهم السلطنة ، وكان النصر لها

٣ — سنة ١٦٩٦ اكتسب بطرس الاكبر فرصة اشتباك السلطنة بحرب شنتها عليها الدول الاوروبية المتحدة فعاد لاحتلال ميناء آزاق في قفقاسيا

٤ — سنة ١٧١١ قام العثمانيون بأخذ الثار ، وانتصروا وكادوا يأسرون القيصر وكترينا

٥ — سنة ١٧٣٦ اتحدت روسيا والنمسا على السلطنة في حرب كان سببها بولونيا فانتصر العثمانيون

٦ — سنة ١٧٦٨ عادت الحرب ثانية بسبب مطامع روسيا فانتصر العثمانيون

٧ — سنة ١٧٧٤ واستؤنفت الحرب من جراء هذه المطامع فانتصر الروس

٨ — سنة ١٧٨٧ وكان انتصار الروس مشجعاً لهم على استئناف القتال ، وانجدتهم النمسا فكان لهم النصر

٩ — سنة ١٨٠٦ احتلت روسيا الأفلاق والبغدان فخفت تركيا لمحاربتها ،وناصرتها انكلترا فطلبت روسيا الصلح

١٠ — سنة ١٨٢٨ اعلنت روسيا الحرب بسبب اليونان وانتصرت

١١ — سنة ١٨٥٣ وهي حرب القرم التي اتحدت فيها انكلترا وفرنسا وغيرهما مع تركيا ضد الروس ،وفازت تركيا وحلفاؤها

١٢ — سنة ١٨٧٧ اعلنت الحرب روسيا باسم تحرير البلقان بالاتفاق مع بعض دوله؛ وكان لها النصر .

. . . . . .

فهذه الحروب التي اخذت باعناق بعضها البعض مدة خمسماية سنة متوالية كانت من اعظم الاسباب لانحطاط السلطنة ، خصوصاً لانها صرفتها عن الاخذ باسباب التمدن الحديث ، والقيام بأي اصلاح وتجدد .

قال رينه بينون : **« ان الفلاح الروسي لم يفهم مغزى لحرب منشوريا مطلقاً . وانما هواه يتلخص في قتال التركي ، ومناه ينحصر في حرب روسيا لال عثمان الصليبي بغية انقاذ النصارى من المسلم . وهذه النظريات كانت تتلالأ مع نظريات حكومة القيصر »** [1]

. . . . . .

وهناك جملة اغلاط سياسية وعسكرية ارتكبها العثمانيون اثناء تلك الحروب من جراء انهم اصبحوا غرباء عن السياسة العالمية ، وجهلاء في فنون الحروب الحديثة فأفسدت عليهم مصيرهم وهذه امثلة عليها :

١ — وضع بطرس الاكبر برنامجاً لتوسع روسيا يقوم على اساسين : اساس **« فرق تسد »** يعتمده في القاء الشقاق بين الدول المجاورة له ، واساس آخر قائم على استفراد دولة فدولة من هذه الدول : فشرع يلقي الشقاق بين اسوج وبولونيا وتركيا ، ويهاجم واحدة منها بعد واحدة .

---

1 - René Pinon. L'Europe & l'empire Ottomane. P 27

وهدفه ان يجتازها الى اواسط اوروبا . وقد بدأت روسيا بالسويد ، ثم الحقت بها بولونيا.

ان السلطنة العثمانية ظلت لاهية عن مقاصد بطرس الاكبر وخلفائه رغم ان فرنسا ما فتئت توضح لها اهدافهم ، ولا سيما بواسطة المسيو بونفال (احمد باشا) الذي ورد ذكره سابقاً .

فقد عملت فرنسا على اقناع الباب العالي في وجوب مساعدة بولونيا اثناء دفاعها عن استقلاله وذلك على اعتبار ان هـذه الدولة هي خط دفاع عن تركيا وعن عاصمتها التي تتطاول اليها اعناق الروس[1] .

ولكن الباب العالي لم ينظر الى بعيد ، بل ظل يراقب سقوط انهيار الدول التي تعتبر حاجزاً ، بينه وبين روسيا ، دون ان يحرك ساكناً حتى جاء دوره ، ووقع في هوّة الخطر .

واضاعت تركيا ايضاً الفرصة التي سنحت حينما القى جنودها الحصار ، في جوار نهر بروث على القيصر بطرس الاكبر وزوجته او خليلته كاترينا (١٧١١ م) كما اسلفنا . فلو ان وزيرها القائد محمد بلطه جي لم يستسلم لكاترينا عقب اختلائه بها ، ثم لم يعدل عن القاء الاسر على قيصرها وعن متابعـة الزحف على بلادها لسلمت السلطنة ، من بعد ، من تلك الكوارث التي انصبت عليها وكان مصدرها روسيا .

هذا وقد عدّ احد مسيحيي لبنان بين اغلاط السلطنة الكبرى اهمالها فتح روما . قال : « كان **على السلاطين ان يقودوا جنودهم الى روما كيما يسلموا من اذى الفاتيكان . ولو انهم فعلوا لقطعوا الروابط التي كانت تربط العـالم الكاثوليكي بعضه بالبعض الاخر ، تلك الروابط الموجهة ضدهم ؛ هذا فضلا عن انهم كانوا بذلك يذللون كل عقبة تقف امام توسعهم .»**

وبعد ان يشرح نجيب الحاج كيف كان بوسع سليمان القانوني بلوغ هذه الامنية يعلق على ذلك بقوله : « ان التاريخ العثماني سيوجه اللوم ، بلا انقطاع ، الى سليمان الكبير لتهاونه في هذا الامر ، كما انه سيرسل لخلفائه النقد اللاذع بسبب اهمالهم عرب الاندلس الذين استغاثوا بهم ، ولم ينجدوهم ، بل تركوهم يذبحون ويطردون. وخلص الحاج الى القول **« والواقع ان آل عثمان لو بادروا الوضع ايديهم بايدي الاندلسيين العرب ، او لو استولوا على الاندلس لثبتوا اقدامهم في اوروبا الغربية ، واعدّوا لهم هناك مركزاً استراتيجياً حربياً يعصمهم من اذى اوروبا[2] . »**

---

١ — محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية صفحة ١٤٨

2 - N. Hajj Leçon du passé . P 23—25

ومن الجدير بالذكر هنا ان زوال الخطر التركي من اوروبا ، ومشاغلها الداخلية لم يستطيعا استئصال الروح الصليبية التي كانت تغمرها . وقد تعرض المؤرخ لافلليه الى هذا الموضوع فقال:
« ظهرت في الشطر الاول من القرن السابع عشر كتابات منوعة تدعو الى اشهار الحرب على الترك ، وكان معظمها يستحث ملك فرنسا كيما يقتفي اثر اجداده ويزحف الى فلسطين حيث يجمع بين الفخر والظفر .

وكان هنري الرابع يعلق على اجلاء الترك الامال ، خصوصاً وانه كان يدعو لانشاء جمهورية مسيحية على اساس اتحاد دولي . ووضع الاب جوزيف الشهير مشروعاً لحرب صليبية جديدة ، وجهه للمراجع المسيحية كافة ؛ ونظم قصيدة عنوانها : « الحرب الصليبية »

والى هذا فان بوديه مؤلف كتاب « تاريخ الاتراك » رفع رسالة الى الملك لويس الثالث عشر ، بمناسبة اهداء هذا الكتاب الى جلالته ، جاء فيها : « ان اجدادكم الكرام استطاعوا ان يقفوا سداً منيعاً في وجه طوفان مخيف كان يهدد النصرانية من قبل الكفرة اعداء الدين . لذلك ولكيما تنالوا لقب فاتح ومحرر النصرانية فانا نتوسل الى جلالتكم ، وقد نلتم لقب الملك العادل من جراء تصرفاتكم المحمودة في دولتكم ، ان تولوا وجهكم شطر البلاد التي هي بالنسبة الينا اقرب الامصار من جهة مطلع الشمس اه. »

والى هذا فان مسيو ساغاري دوبريف سفير فرنسا في تركيا لم يستطع ان يتمتع بالاستقلال الفكري حيال اتجاهات زمنه رغم انه لم يكن قد أتى اكثر من قرن على مبادرة السلطان سليمان لنجدة فرنسوا الاول وانقاذ فرنسا . فلقد كتب رسالة سنة ١٦٢٠ عنوانها : « مختصر خطب في تأمين السبل لدك اركان دولة الامراء العثمانيين والقضاء عليها » دعا في تلك الرسالة الى اتحاد الدول المسيحية ، ضد السلطنة ، والى العمل لاثارة النصارى عليها في البانيا واليونان ومصر عامة وسورية خاصة وانتهى الى القول : « اذا شاء الله ان يشمل بعطفه امراء النصارى ، ويبث فيهم روح الحب والتعاون للقضاء على هؤلاء الشياطين الذين كادوا يفترسون المسيحية فأي هدف اسمى يريدونه واجمل من احتلال تلك المرافيء الرابضة عند ساحل جبل لبنان في سورية؟ وهناك يقيم عدد وافر من النصارى الخاضعين لروما المعروفين بالموارنة والذين لا يزالون يمدون ايدي المساعدة الذين يخفون لانقاذهم من المظالم التركية . ان الموارنة شعب باسل معظمه تابع لعامل الدولة في طرابلس ، والباقون هم الذين على ولاء مع مواطنيهم الدروز . وهؤلاء هم طائفة اخرى في لبنان ؛ يزعمون ان اجدادهم من نسل الفرنسيين الذين استردوا البلاد المقدسة ، وهم أعداء الترك . لذلك فاذا حصلت محاولة جديدة لاكتساح هذه البلاد فمن

الواجب ان يعمل سلفاً على استمالة ١٥ الفاً الى ٢٠ الفاً من رجال هذه الملة المسلحين التي تعطف كثيراً على المذهب الكاثوليكي وتحب فرنسا. وهم يبادرون اليها ملبين عند الاشارة الاولى »[1] اه.

ولم يكن مسيو سافاري دوبريف وحيداً في هذا الاتجاه الصليبي بين الديبلوماسيين. بل ما ان فترت العلاقات السياسية بين السلطان محمد الرابع ولويس الرابع عشر حتى عادت ثانيا فكرة الحروب الصليبية الى فرنسا كافة، وصدرت في اواخر القرن السابع عشر، جملة كتب تدعو الى طرد الترك من اوروبا. وما كان بوالو الا متكلماً بلسان الرأي العام حينما وجه كلامه الى الملك، وقـال: « **انتظركم خلال ستة شهور على شواطىء الدردنيل** ». بل كان بوالو يمثل رأي الشعب والمفكرين بين الكاثوليك، وحتى بين البروتستـانت ايضاً. ألم يوجه لبنز Leibnitz مذكرات عدة الى لويس الرابع عشر حاول فيها ان يوضح لجلالته ان عظمة فرنسا انما تقوم على يقظة الحروب الصليبية، وان صالحها قائم على الاهتمام بشؤون الشرق[1]؟

على ان روح العصر في القرون المتأخرة وان لم يبق مستعداً لقبول فكرة الحروب الصليبية، وان التوازن السياسي الدولي اصبح عاملا كبيراً من عوامل بقاء تركيا في مركزها الجغرافي، فان هذه الفكرة ظلت تتحكم في توجيه السياسة الدولية العامة. وهذا ما يتضح لنا في المقال التالي:

استمرار الثورات الداخلية وتدخل اوروبا باسم المسيحية

كتب فؤاد باشا، وهو على فراش الموت، وصية سياسية رفعها الى السلطان عبد العزيز جاء فيهـا:

« ان بقـاء الدولة العلية في اوروبا لا يتطلب قوة اسلافنا العظام واكثر فحسب، بل يتطلب ايضاً ان ندرك مستوى قوى جيراننا المعاصرين، او بالاحرى ان نبزهم في القوى والاقتـدار.

وزيادة في الايضاح اقول: ان الدولة العلية اذا لم تكن لها قوة انكلترا المالية، وقوة فرنسا العلمية، وقوة روسيا العسكرية فلا سبيل لسلامتها.»

وكان فؤاد باشا يريد ان ينوه بحراجة موقف السلطنة في اوروبا لسببين:

١ — لان البلاد العثمانية هناك مؤلفة من عنـاصر كثيرة ظلت عدوة للسلطنة تعمل في سبيل الاستقلال عنها.

---

1 - Lavallé Hre de la Turquie T. II P. 58

2- LaVallée Hre. de la Turquie . T II. P.103

٢ — لان الدول الاوروبية التي تعطف كثيراً على هذه العناصر وتجمع القول على تحريرها من ربقة الترك هي التي تخلق الفتن في تلك الاوساط، وكثيراً ما تكون تلك مقدمات لحروب مدبرة

ذلك لانه قد رافق قيام **« التوازن السياسي »** في اوروبا مبدأان متناقضان (١) مبدأ المحافظة على السلطنة (٢) ومبدأ الاتفاق على تقسيمها. على ان مبدأ المحافظة عليها لم يقم على اساس غيرتهم عليها، وانما بني على مصالح سياسية اذا تمكن اصحابها، في وقت من الاوقات تامينها كلها او بعضها دون حاجة الى المحافظة على تركيا نأوا بجانبهم عنها، وتركوا لغيرهم النيل منها، ثم لم ينسوا نصيبهم من الارث. مثال ذلك، ان انكلترا، التي كانت، في القرن التاسع عشر، زعيمة كتلة المحافظة على تركيا، ما ان اطمأنت الى طريق الهند اثر عقد محالفة بينها وبين روسيا حتى تخلت عن اصحابها في استامبول. ولقد تعرض رينه بينون لهذا الموضوع وقال:

« ان مبدأ المحافظة على سلطنة آل عثمان ليس هو مبدأ ثابت؛ بل هو مرتبط بالحاجة والظروف. وعند كل ازمة تقع في الشرق من جراء ثورات الشعوب العثمانية وهجوم الدول الطامعة بها كانت اوروبا تصرح بوجوب المحافظة على املاك السلطان وصيانتها، ولكن ما ان يعقد الصلح بين الفريقين حتى نرى ان قسماً جديداً من املاك السلطنة قد سلب، وان امتيازات اضافية قد انتزعت، وهكذا دواليك، فتنفصل شيئاً فشيئاً ولايات عنها، وتقوم فيها دول جديدة. انه لم يقع، في اكثر الاحيان ما يدل على اعادة بلاد مسيحية الى سلطنة آل عثمان بعد انفصالها عنوة عنها. ذلك لان المراجع العليا الاوروبية ترى مبرراً لها في ذلك القول ان الرأي العام لا يسمح باعادة تلك البلاد الى العثمانيين.

والواقع ان تركيا وان اعتبرت دولة اوروبية، ولكن ذلك كان اعتباراً اسمياً لا ظل له من الحقيقة؛ وان المعاهدات المتبادلة بينها وبين الدول وان كان من شأنها صيانة الحق الدولي، غير ان التقيد بنصوص المعاهدات لم يكن يقع في المعاملات المتبادلة[1] »

وقد صدق رينه بينون في قوله الصريح هذا. ونحن، الذين عاصرنا العهد العثماني في آخره، رأينا امثلة كثيرة على صحة قوله: منها تصريحات اوروبا الداوية سنة ١٩١٣ قبل الحرب التي وقعت بين تركيا والدول البلقانية، واعلانها عزمها على المحافظة على الستاتيكو (بقاء القديم على قدمه). ولكن ما ان فوجئت بما لم يكن في حسبان احد، فوجئت بانتصار الدول البلقانية على

1 - René Pinon. L'Europe & l'Empire Ottomone . P. 7.8

السلطنة حتى رجعت عن هذا العزم ، وسمحت بانضمام اجزاء اخرى عثمانية الى المنتصرين !

واما لو جاء النصر حليفاً لتركيا فما كان ينتظر الا ان تذكّر اوروبا السلطنة بتصريحاتها التي اعلنتها قبل الحرب ووجوب المحافظة على الستاتيكو .

حقاً ان النعرات الدينية خفت كثيراً في اوروبا بعد قيام الثورة الافرنسية التي اعلنت حقوق الانسان ؛ ولكن سياسيي الغرب وجدوا في مبادىء هذه الثورة حافزاً لهم على اثارة الفتن في بلاد السلطنة ، وعلى مساعدة الثائرين وذلك بتأثير الروح الصليبيـــة المتأصلة في النفوس . وعذرهم الظاهري في ذلك انهم يعملون على تطبيق المبدأ القومي ،وتحقيق فكرة حقوق الانسان. وهكذا فان الثورات ،التي ظلت تتوالى في البلقان، ومكدونيا، كانت من عمل النمسا وروسيا،والفتن التي تتابعت في ارمينيا كانت من فعل انكلترا ؛ كما ان ثورات اليونان وسوريا كانت وليدة اصابع فرنسا وغير فرنسا . وكانت الدول ترفع عقيرتها اثر كل فتنة تقع في بلاد السلطنـة شاكية من المذابح ،باكية على الانسانية المعذبة .ولا ترى من ثم،وسيلة للتكفير عن ذنوب الباب العالي الا بأن تطبق مبدأ حقوق العناصر في الحرية والاخاء والمساواة ،فتعلن استقلال تلك العناصر الثائرة. قال رنه بينون في هذا المعنى : « **في عام ١٨٥٦ (اي في مؤتمر باريس) تعاهدت ثلاث دول على المحافظة على السلطنة العثمانية بالسلاح . ولكن هذه هوجمت سنة ١٨٧٧، ولم تتحرك واحدة من الدول لمساعدتها** » الى ان يقول : « **ان الدول لم تعـــترف للترك ، في ظروف متعددة ، بأي حق ، وكانوا في نظرها محقوقين لانهم اتراك[1]** »

والحقيقة التي لا مراء فيها ان الحروب الصليبية ظلت قائمة حتى بعد الثورة الافرنسيـــة واعلان حقوق الانسان . لقد كانت سافرة ابان التنازع الديني في القرون المظلمة ، ولكنهـــا تقنعت بقناع شفاف هو مبدأ تحرير العناصر في عصر النور . اضف الى ذلك ان الدول ،التي كانت مصالحها تتفق مع بقاء سلطنة آل عثمان في الوجود، كانت ، مع ذلك ، تساومها، لقاء المساعدة، على اراض ام امتيازات ينتزعونها منها اثناء الازمات التي تقع فيها .

وهذه جزيرة قبرص المتاخمة لنا قد اعطيت الى انكلترا مكافأة لها على مساعدتها للباب العالي ضد روسيا في صدر الحكم الحميدي ، وسلفة على حساب الدفاع عنها في المستقبل . غير ان لندن ابتلعت الجزيرة، ونسيت السلفة.

---

1 - René. Pinon l'Europe & l'Empire Ottomane. P . 8

هذا ولما الحت الدول على السلطان عبد الحميد الثاني بوجوب اجراء الاصلاحات في مكدونيا بمناسبة الثورات التي كانت متصلة فيها . وطلب الباب العالي وقتئذ السماح له بزيادة الرسم الجمركي الى ١١ في المئة عن البضائع الواردة الى بلاد السلطنة بدلا من ٨ ؛ قصد ان يتوفر لديه المال للاصلاحات المطلوبة في مكدونيا شرعت كل دولة من الدول تساوم الباب العالي لقاء موافقتها على هذه الزيادة: فانكلترا طلبت ان يمدد امتياز سكة حديد ازمير — أيدين وفرعيه لغاية عام ١٩٣٩ ؛ بينما ان المانيا اعربت عن رغبتها في ان يخصص قسم من موارد الزيادة الجمركية هذه لتغطية فوائد ديون مشروع فرع خط حديد بغداد . ولم تقف المساومة عند هذا الحد ، بل هزلت حتى بدا من هزالها ان بعض الدول البلقانية حاولت الحصول ، في هذه المناسبة ، على منافع خاصة بها!!

وهل من ظلم اعظم من تقييد حرية دولة في التصرف ببلادها ، وفي تعديل انظمتها ورسومها على حين ان الاجانب يحتفظون لانفسهم بالحرية الكاملة في التدخل بشؤونها وشؤون شعبها باسم العدالة الاجتماعية ؟

نعم يوجد ما هو اظلم من ذلك وهو تسخير « **شرعة حقوق الانسان** » ، التي قررتها الثورة الفرنسية على اساس الحرية والاخاء والمساواة ، ثم ايدتها هيئة الامم المتحدة بعد نحو ١٥٠ سنة من ذلك ، تسخيراً كان ولا يزال يجعل هذه الشرعة حبراً على ورق بتأثير النزعات الدينية التي لا تزال كامنة في قرارات النفوس حتى يومنا هذا .

اجل ومن ذا الذي يستطيع ان ينكر ان في طليعة الاسباب التي حملت الولايات المتحدة على مساعدة اليهود لقيام دولتهم في فلسطين هي نزعة دينيـــة تمتّ بنسب الى ما جاء في التوراة من عودة اسرائيل الى اورشليم ؟

٢

سياسة السلطنة الانسانية ازاء الاقليات

اشار م. ريكيه الى الملوك الرعاة (هيكسوس) الذين حكموا مصر وجاؤوها غزاة من بادية العرب في القرن الثاني والعشرين قبل المسيح ، وقال . « **ان حكمهم كان عسكرياً يستند الى ٢٤٠ الف جندي يزاولون الخدمة ، ويتدربون عليها** »

وقال : « **وعوضاً عن تأثير هؤلاء الفاتحين على المصريين تأثيراً يجعل المغلوبين يندمجون بالغالبين ويأخذون عنهم فان هؤلاء الفاتحين خضعوا لمدنية المصريين وتخلقوا باخلاقهم . ومع ذلك فلم يمتزجوا بهم امتزاجاً كاملا ، وظلوا غرباء عن مصر . حتى اذا ضعفت شوكتهم وتواطأت رعيتهم عليهم مع ملك طيبة ، في اعالي مصر ، اخرجوهم من وادي النيل . ولما جلا الرعاة عن مصر لم يخلفوا فيها اثراً من آثار المدنيــة والعمران على حين ان حكمهم استمر نحو خمسماية سنة**[1] »

وهذا القول يصح ان يطلق على آل عثمان الذين جاؤوا البلاد العامرة من بادية تركستان ، وحكموها حكما عسكرياً عدة قرون ، وبدلا من ان يعطوها صبغتهم ، او ان يتعاونوا معها على خلق صبغة جديدة تتفق مع التمدن الحديث ، ظلوا غرباء عن الاوساط التي دانت لحكمهم ؛ ثم لما عفي اثر السلطنة ، وتلفت المتلفتون شطر مخلفاتها في البــلاد التي حكمتها اجيالا فلم يجدوا لهذه الدولة اثراً يذكر في العمران ، ولا ظلا يحمد في الحضارة .

ولى آل عثمان وجوههم ، ابان الفتح ، شطر اوروبا ، وقد ساعدتهم الظروف الداخلية والخارجية على اكتساح القسم الشرقي منها ، كما فصلنا ذلك تفصيلا في كتابنا الاول من هــذا التاريخ ، وكانوا كلما استولوا على بلاد يكتفون بحكمها حكماً عسكرياً دون ان يعملوا على دمجها بهم . فلا يتعرضون للغات تلك البلاد ، ولا لاديانهم وتقاليدهم ، بل كانوا يتعدون ذلك في

1- M. Riqiuer. Hre. Ancienne (orient) p. 43-44

سماحتهم الى حد انهم كانوا في كثير من الاحوال ينصبون الامراء السابقين، او اولادهم وذويهم، على بلادهم ... فحين الفتح ولوا على الصرب الامير اسطفن بن لازار ملكها السابق، وعلى الفلاخ الامير راوول اخ عاهلها السالف، وعلى المجر جان زابولي امير ترنسلفانيا. وهكذا دواليك.

وفضلا عن ذلك فانهم منحوا الاستقلال الديني للملل، فاعترفوا بحقوق البطريرك اليوناني في استامبول، وتركوا له ولمجلسه حق الحكم في الاحوال الشخصية بين رعيته، وفي بعض القضايا المدنية والجنائية، وزادوا في سلطته وامتيازاته؛ ومنحوه شيئاً كثيراً من السلطة على رعيته وعززوه بالحرس والانكشارية تأميناً لتنفيذ اوامره واحكامه. ثم منحوا بعض هذه الحقوق والامتيازات الى رؤساء الاديان المسيحيين في الولايات.

ان معاملات حسنة كهذه للعناصر التي دخلت في حكم آل عثمان كان من شأنها ان تجعل سلطتهم خفيفة الظل، وتساعد على امتداد فتوحاتهم؛ ولكن حب الاستقلال شيء غريزي في النفوس لا يمحوه احسان. فما ان وجدت تلك العناصر منفذاً اليه بمساعدة الدول الغربية حتى خفت تباعاً الى النضال غير ذاكرة البتة المعاملة الحسنة التي عاملهم بها آل عثمان.

قال رينيه بينون: «**لا يخفى ان الدولة العثمانية ما حاولت قط تتريك العناصر في بلادها الاوروبية. لذلك فحيث حافظ هؤلاء على اديانهم استطاعوا ان يحتفظوا ايضاً بلغاتهم وتواريخهم وبشعورهم الوطني؛ حتى اذا جلا عن بلادهم الاتراك عادوا الى ما كانوا عليه قبل العهد العثماني، وعادت الفسيفساء، التي كانت تزين كنائس الروم بعد ان طلاها الترك بالكلس والجير اخفاء الرسوم المحرمة عندهم، عادت الى الظهور برونقها وجمالها اذ رفع الطلاء عنها. وكانت تواريخهم المحفوظة في زوايا الاديرة لا تفتأ تصون شعورهم الوطني**[1].»

وقد جنى العثمانيون ثمرات هذه السماحة السياسية، كما جنى الفرس قبلهم مثيلات لها للسبب نفسه، ولا سيما في حكم سيرس فداريوس. وما انتبهوا الى مضراتها الا بعد فوات الاوان.

فاذا بصفوة باشا ناظر الخارجية عام ١٨٧٧ يعلن صراحة ويقول: «**ان انفصال الولايات المسيحية عن الدولة، واحدة بعد الاخرى، لم يكن الا نتيجة لحسن معاملة السلطنة لاهلها، ولعدم اجبارها اياهم على اعتناق دينها، وعلى ترك تقاليد اجدادهم.**

ولو ان الدولة اهتمت منذ البداية، ابان تمتعها بالقوة، بتعميم لغتها التركية بين سكان تلك الولايات، طوعاً او كرهاً، لنسوا لغتهم واصبحوا بعد حين اتراكاً»

1 - René Pinon. l'Europe et l'empire Ottomane p.4 -4 6

ونحن وان كنا نشجب سياسة اسبانيا التي جرت عليها عقب اجلاء ملوك المسلمين، وننكر على روسيا القيصرية والمانيا الهتلرية ورومانيا السابقة طرق معاملتها لرعاياها اليهود، ونستهجن معاملات دول الاستعمار في التمدن الحديث لاصحاب البلاد التي تحتلها، ولا سيما البرتغال في الماضي، وفرنسا ودولة جنوبي افريقيا في الحاضر، ولكن الذي نراه في حقل السياسة صوابا هو ان يسلك العثمانيون على اقل تقدير مسلك الدول المعاصرة في بلادهم حيال العناصر المختلفة تأميناً للمصير.

ولكن يا للاسف، كما يقول حقي بك العظم، «لم تفعل ذلك واعتمدت على قوتها، وعلى المستقبل وتقلباته حتى انسلخ معظم تلك الولايات الجسيمة عنها، وبينها اليونان ورومانيا والجبل الاسود والبوسنة والهرسك[١]»

قد تجد الدولة العثمانية عذراً لها في اتباع هذه السياسة يرجع الى قلة عدد الترك اثناء الفتح بالنسبة للبلاد الكثيرة الداخلة في حوزتهم، وفي ضعف لغتهم؛ واذا وجدنا مبرراً لهم للاعتذار بالنسبة لتلك الحقبة، فاي عذر لهم من بعد حينما اصبحوا كثرة بعد ان التحق بهم من اتراك آسيا الذين وفدوا اليهم؟ واي عذر لهم عقب ان اشتد ازرهم بالاقطار الاسلامية الواسعة في افريقيا وآسيا التي ما فتئت تؤيدهم وتتقرب اليهم؟ كلا فلا عذر لهم خصوصاً وانهم لم يظهروا مثل هذا التسامح حيال الطوائف المسيحية في علاقاتها ببطريرك الفنار اليوناني. ألم يحرص العثمانيون، منذ فتح استامبول، على توحيد العناصر المسيحية قسراً وذلك بواسطة اعتبارهم بطريرك الفنار اليوناني المقيم في العاصمة رئيساً عاماً لرعاياهم، سواء اكان هؤلاء بلغاراً او افلاقاً او صرباً او يونانا؟ الم يقيموا غبطته قيّماً على شعبهم المسيحي ومسؤولا، وممثلا لهم وجابياً للجزية[٢]؟

بلى، وظل العثمانيون يؤيدون هذه النظرية الفاسدة مدة اربعة قرون: اي منذ ١٤٥٣ الى ١٨٥٥، ويعارضون كل كنيسة تحاول الاستقلال عن الكنيسة اليونانية؛ مع ان السياسة كانت تقضي، بالنسبة لتركيا، بان تجري بين عناصرها المختلفة التي ظلت غريبة عنها على قاعدة «**فرق تسد**» بدلا من العمل على توحيد كلمتها تحت سلطة واحدة.

واذا كان لها ان تعتذر بانها لم تأخذ بسياسة تتريك العناصر، ولم تتعرض لاديانهم حباً بالعدل

---

١ – حقي العظم تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان صفحة ٦

1 - V. Bérard . La mort de Stamboul . P. 5

والانصاف فما عذرها في الحاق العناصر المسيحية بالكنيسة اليونانية قسراً في حين كان احب على قلوب هذه العناصر ان تلتحق بدين الدولة الحاكمة من ان تدخل تحت سيادة الكنيسة اليونانية نظراً لما كان بين كل من اليونان والمكدونيين وغيرهم من العداوة التقليدية اللدودة ؟

نحن كعرب لا يسعنا الا ان نغتبط من جراء اغفال تركيا سياسة التتريك حينما كان بوسعها فرض ارادتها ، ولكننا حينما نكتب فلسفة التاريخ لا يسعنا الا ان نعتبر هذه الرحمة التي جرت عليها السلطنة غلطة من اعظم غلطاتها السياسية سواءاً كانت موجهة للاقليات الدينية والمذهبية ،ام لغير الترك من العناصر الاخرى والقوميات .

اجل ليس في معجم السياسة كلمة رحمة . الم يعتبر العثمانيون بمعاهدة سنة ١٨٢٩ التي ابرموها بينهم وبين الروس عقب الحرب بين الدولتين ؟ فقد تقرر في ذيل تلك المعاهدة ،عملا بمشيئة روسيا ، ترحيل جميع السكان المسلمين من الافلاق والبغدان ، وبيع ما لهم فيها من عقار واثاث خلال ثمانية عشر شهرا فقط ، على حين كان هذان القطران لا يزالان ، بمقتضى المعاهدة المذكورة ، ولايتين من ولايات السلطنة . وكان قصد روسيا من هذا الشرط تقليص ظل تركيا عنهما تدريجياً ، على ان تكون الخطوة الاولى اجلاء المسلمين .

واذا كنا لا ندعو تركيا لان تجلي الناس عن ديارهم عملا بالشريعة السمحاء ، فنحن لا يسعنا حينما نكتب كسياسيين الا ان نلفت انظارها الى معاملة الدول الاخرى المعاصرة للعناصر المستعمرة . ونلفت انظارها الى سياسة فرنسا في الجزائر وسائر افريقيا ، ونلفت نظرها الى ما كانت تشعر به فرنسا في مطلع القرن العشرين من الخطر الايطالي ، على ما كان بين الدولتين من الفارق الكبير في القوى الحربية ، من جراء توافر عدد الايطاليين النازلين في تونس على اعتبار ان الارض لمن ملكها .

وكان ممن كتب في هذا الموضوع جول سورن ، ودعا دولته الى ان تأخذ عبرة من السلطنة العثمانية حيث قال : **« لا يكفي ان نكون نحن اصحاب البلاد وان نكون القابضين على زمام القوة العسكرية ؛ ولا يكفي ان نكون اصحاب الرساميل . بل الواجب علينا ان نعمر البلاد بالوف مؤلفة من العيل الافرنسية التي تزاول فلاحتها ،ذلك لان عبر التاريخ علمتنا ان مصير الحكم لا بد ان يصير الى العنصر الذي يملك الارض ويحرثها. والامثلة على ذلك كثيرة» ولا سيا في الشرق : وهذه الروملي الشرقية التي كانت لتركيا . فرغم ان سكان مدنها واصحاب الثروات فيها هم على الاكثر من الترك او اليونان ، فلقد انضمت سنة ١٨٨٥ الى**

بلغاريا لان السواد الاعظم من اهل القرى والارياف كانوا بلغاراً . وهكذا سيكون مصير البلاد الاخرى في مكدونيا[1] . »

لقد خاطب هذا الكاتب دولته في مطلع هـــذا القرن ، وكان المفروض ان يعطي درساً للعثمانيين حينما نوه بهم ، ولكن هؤلاء كانوا في غفلة عن كل هذه الاعتبارات ، فلقوا جزاء غفلتهم. على ان المتأخرين منهم ، ولا سيما في العهد الدستوري ، انتبهوا الى هذه الاغلاط السياسية . وشاء المسيطرون ، منهم بعد الدستور ، ان يتلافوا هذه الاغلاط فوقعوا في اغلاط اخرى كانت اشد وبالاً على السلطنة . ذلك ان جماعة الاتحاد والترقي الذين شعروا بمضرات وفرة اللغات والعناصر والاديان في السلطنة ، حاولوا ان ينهجوا سياسة التتريك ، ولكن هذه المحاولة جاءت في غير وقتها . جاءت بعد ان استولى الضعف على السلطنة ، وجاءت اثناء ما صار الكلام حراً بمقتضى الدستور ، فضلا عن تطلع العناصر العثمانية الى مصيرها فكانت من اسباب التفريق بدلاً من التوحيد . ولا بدع فمن طلب الشيء في غير اوانه عوقب بحرمانه .

1 - Jules Sorn . l'Œvre Francaise en Tunisie . p. 41

٣

المعاهدات الدولية والامتيازات السياسية والطائفية

وفق آل عثمان، في صدر دولتهم الى نجاح عسكري باهر جعلهم يسبحون في الخيال ويعتزون بانفسهم على قدر استهتارهم بالعالم. ولما لم تستطع اوروبا سبيلا الى ازاحتهم عنها تهافتت عليهم لعقد المعاهدات، وتسابقت لنيل الامتيازات.

وكانت السلطنة، على غرورها بنفسها، كريمة في عقد هذه المعاهدات، ومنح هذه الامتيازات دون نظر الى المستقبل البعيد. وظل هذ الغرور مستحكما فيها الى حين، رغم ان الضعف كان قد بدأ يستولي عليها. يظهر ذلك في المرسوم السلطاني الذي اصدره مراد الثالث (١٥٧٤—١٥٩٦) بشأن السماح للبواخر الانكليزية بان ترفع رايتها عند دخولها المرافيء العثمانية اسوة بفرنسا، حيث جاء فيه: « **ان الباب العالي مفتوح لجميع الذين يأتون اليه يلتمسون حمايته**[1] »

غير ان هذا الغرور لم يلبث ان تبخر حيال الواقع والحقيقة. فوجدت السلطنة نفسها، فيما بعد، امام معاهدات تقيدت بها وامتيازات كانت تقيدت بها ابان قوتها السابقة، ثم تحولت الى سلاسل واغلال طوقت عنقها ويديها؛ ووجدت نفسها انها ليست عاجزة عن التخلص منها فحسب، بل ما ان ضعفت عزائمها، واسترخت قواها، حتى فرضت عليها الدول الاوروبية معاهدات وامتيازات اخرى اثقل من سابقاتها، واشد تقييداً لحريتها. فاذا بالدولة، التي كانت تحسب نفسها بالامس، مرجع العالم، وتتوهم ان هذه العقود التي كانت تعقدها منحة وسماحة تصبح كدودة الحرير في شرنقة من عمل يدها ما ان اكتملت حتى جعلتها سجينة لا تستطيع حراكا.

واشد مساوىء هذه المعاهدات والامتيازات انها جعلت الاجانب في بلاد السلطنة طبقة مستعلية ترى نفسها فوق القوانين المرعية؛ هذا فضلاً عن ان تلك الاتفاقات سوغت للدول الاجنبية التدخل في شؤون بعض الرعايا العثمانيين، وبسط حمايتها لهم. وهذا ما سندرسه في هذا الفصل.

---

1 - La Vallée . histoire de la Turquie T.II P. 23

المعاهدات الدولية والامتيازات

اشرنا في فصل سابق الى الفزع الشديد الذي استولى على الدول الاوروبية كافة حينما قفز آل عثمان عبر الدردنيل الى اوروبا ، وراحوا يزحفون دون هوادة الى الامام . وبيّنا كيف تنادت هذه الدول للاتحاد في سبيل دفع الزحف الاسلامي الجديد ، خصوصاً حينما تحولت قسطنطينية ، التي كانت عاصمة الرومان الشرقيين ، الى قاعدة للعثمانيين . ولكن رغم اتحاد هذه الدول لصد التيار فان بعضها لم يغفل عن وجوب التماس مصالحه الاقتصادية ، ولا سيما الدول ذات المرافق التجارية : فكانت الدولة الاولى التي تقدمت من تركيا لعقد معاهدة هي جمهورية فينيسيا (البندقية) التي كانت تعتبر في طليعة البلاد التجارية : فقد اعترفت للسلطان محمد الفاتح بما احتل من بلاد حول اشقودرة ، واخلت له ، زيادة على ذلك ، تلك المدينة الحصينة (٨٨٣ هـ = ١٤٧٩ م) لقاء امتيازات تجارية نالتها من جلالته بمقتضى معاهدة متبادلة .

ثم وافقت ميول السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وعواطفه السلمية رغبات الدول الاجنبية المجاورة في صدد المهادنة مع آل عثمان وذلك بعد ان يئست من اجلائهم بالقوة . ، فبدأت منذ هذا العهد العلاقات الودية بين آل عثمان والدول الاجنبية ، وقامت على اساس معاهدات دولية. اشهرها المعاهدة مع بولونيا (٨٩٦هـ = ١٤٩٠ م) والامتيازات التجارية التي منحوها لروسيا (٩٠١ هـ = ١٤٩٦ م) ، هذا فضلا عن مخابرات جرت بينهم وبين كل من البابا اسكندر السادس ، وامارات ايطاليا ، وكانت كلها تحمل طابعاً ودياً .

وأقرّ السلطان ياوز سليم ، الذي خلف بايزيد ، تلك العلاقات الودية والمعاهدات ، واضاف اليها معاهدة اخرى منحها لاسبانيا في نحو عام ٩٢٥ هـ = ١٥١٩ م ، لا بدافع ميول سلمية كسلفه ، وانما بدافع اهداف حربية كانت تتجه شطر التوسع في آسيا التماساً للعصبية الاسلامية كما قدمنا ، بالاضافة الى نعرات طائفية مدارها الانتقام من ايران الدولة الشيعية التي كانت تضطهد اهل السنة في بلادها ، وتقوم جغرافياً عقبة كأداء في سبيل اتصال سائر السنيين به في الشرقين الادنى والاوسط . غير ان ولده السلطان سليمان القانوني وان اعاد وجهة السلطنة شطر اوروبا ، واصبح بانتصاره على شارلكان ، وهو اعظم اباطرتها ، اكبر عاهل في العالم ، فقد اظهر سخاء في منح المعاهدات ، واعرب عن استهتار في تعديل الموجود منها تعديلاً يتفق مع مصلحة الآخرين ، اكثر مما يتفق مع صالح السلطنة : فقد زاد في معاهدة البندقية (٩٢٨هـ = ١٥٢١م)

المنح المعطاة لسفرائها وقناصلها حتى فوّض اليهم مقاضاة رعيتهم في السلطنة فيما كانوا به يختلفون، كما فوّض الى تراجمتهم حضور المحاكمات التي توجد فيها علاقة لرعاياهم. واما المعاهدة التي عقدها مع فرنسا حليفته ضد شارلكان فقد بزّت كل معاهدة اخرى في الاجحاف بمصالح السلطنة والحد من استقلالها الداخلي. واليكم بعض موادها نقلاً عن مجموعة البارون دي تستا.

« المادة ٣ — كلما يعين ملك فرنسا قنصلا في القسطنطينية او في بيرا او غيرهما يقبل ويعامل معاملة لائقة. وله ان يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه وذمته في جميع ما يحدث في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا دون ان يمنعه من ذلك حاكم او قاض شرعي او صوباشي او اي موظف آخر. واذا امتنع احد رعايا الملك عن اطاعة اوامر او احكام القنصل فلسعادته ان يستعين بموظفي جلالة السلطان على تنفيذ هذه الاوامر والاحكام؛ وعليهم مساعدته ومعاونته. وعلى اي حال ليس للقاضي الشرعي، او اي موظف آخر الحكم في المنازعات التي تقع بين التجار الفرنسيين، وباقي رعايا فرنسا حتى ولو طلبوا منهم الحكم بينهم.. وان صدر حكم في مثل هذه الاحوال فيعتبر لغواً.»

« المادة ٤ — لا يجوز سماع الدعاوي المدنية التي يقيمها الاتراك او جباة الخراج او غيرهم من رعايا جلالة السلطان على التجار او غيرهم من رعايا فرنسا، او الحكم عليهم فيها، ما لم يكن مع المدعين سندات بخط المدعى عليهم؛ او حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي، او القنصل الفرنسي. وفي حالة وجود سندات او حجج لا تسمع مع ذلك الدعوى، او شهادة من يقدمها الا بحضور ترجمان القنصلية. »

« المادة ٥ — لا يجوز للقضاة الشرعيين او غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية سماع اية دعوى جنائية او الحكم على تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى الاتراك او جباة الخراج او غيرهم من رعايا الدولة العلية. بل على القاضي او المأمور الذي ترفع اليه الشكوى ان يدعو المتهمين للحضور الى الباب العالي محل اقامة الصدر الاعظم الرسمي. وفي حالة عدم وجود الباب العالي يدعوهم امام اكبر مأموري الحكومة السلطانية. وهناك فقط يجوز قبول كل من شهادة جابي الخراج والشخص الفرنسي».

« المادة ٦ — لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وتابعيهم امام القاضي او السنجق بك او الصوباشي او غيرهم من المأمورين فيما يختص بالشؤون الدينية ، بل تجري محاكمتهم امام الباب العالي . ولهؤلاء حرية ممارسة شعائر دينهم ، ولا يجبرون على اعتناق الاسلام ، ولا يعتبرون مسلمين الا اذا اعترفوا بذلك دون اكراه . »

« المادة ٧ — (ملخصها) اذا فر احد الفرنسيين وكان عليه حق او ذمة ، فلا يسأل غيره عن وزره ، لا القنصل ولا فرنسا ، وانما يستوفى الحق منه ان كان صاحب ملك في فرنسا .

« المادة ٨ — (ملخصها) لا يجوز استخدام الفرنسي واشيائه ، او من كان تابعاً له وفي خدمته قسراً عنهم في حاجات الدولة . »

« المادة ٩ — (ملخصها) يعمل بوصية الفرنسي بعد موته ، ولا دخل للقاضي خلال وجود قنصل فرنسا بتركة من مات عن غير وصية » .

« المادة ١٠ — (ملخصها) اطلاق سراح اسرى الحرب ، وابطال الرق الحربي والقرصنة .

« المادة ١٥ — لا يلزم بدفع الخراج ، او اية ضريبة مهما كان اسمها ، كل تابع الملك فرنسا لا يكون قد اقام في اراضي الدولة العلية مدة عشر سنين دون انقطاع ؛ ولا يجبر هذا على حراسة الاراضي المجاورة ، او مخازن جلالة السلطان ؛ ولا يطلب منه العمل في الترسانة او في اي عمل آخر — وهكذا تكون معاملة رعايا الدولة في فرنسا . »

ومن يقرأ هذه المعاهدة وما تضمنت من مراعاة مصالح فرنسا والفرنسيين وتابعيهم يجد انها اعفت كل تابع الملك فرنسا من الخراج والرسوم اذا لم يكن قد سكن الاراضي التركية مدة عشر سنين متوالية . وان من يقرأ هذه المعاهدة يتوهم خطأ انها عقدت بين دولة منتصرة ، وهي فرنسا ، واخرى منكسرة ، وهي السلطنة العثمانية . والواقع كان على عكس ذلك فان فرنسوا ملك فرنسا كان عتيق سيف السلطان سليمان القانوني : فقد فكه من اسر الامبراطور شارلكان[١] ثم

---

١ — للمؤلف فلسفة التاريخ العثماني الكتاب ١ صفحة ٢٧٥ — ٢٧٧ .

ومع ذلك فان السلطان كان بلغ به الاعتداد بالنفس الى حد انه لم يعد ينظر الى العواقب ، وفتح صدره لحليفته فرنسا حتى جعلها تأخذ الحرية في ان تشترط بتلك المعاهدة ما يلي : « **لقداسة البابا والملك انكلترا اخ ملك فرنسا وحليفه الابدي وملك ايكوسيا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة اذا شاؤوا .** » وبئس ما فعل السلطان سليمان ليس لانه ابتدع بدعة لخلفائه جروا عليها دون روية فقط ؛ بل لان هذه المعاهدة صارت فيما بعد اثقل طوق في عنق تركيا .

وخلف السلطان سليمان القانوني ابنه سليم الثاني فنهج نهج والده : وما ان طلب سفير فرنسا[1] كلود ده بورج سنة ٩٧٧ هـ = ١٥٦٩م تأكيد الامتيازات هذه حتى بادر الباب العالي لاجابة طلباته ، وزاد عليها المنح التالية :

١ — السماح للارسليات الكاثوليكية بسكنى اراضي الدولة

٢ — اعفاء الافرنسيين من دفع الخراج

٣ — منح القناصل الفرنسيين حق التحري عن الارقاء الفرنسيين في بلاد الدولة ، واطلاق سراحهم ، وطلب مجازاة الفاعلين .

٤ — ان يكون لفرنسا كل الامتيازات الممنوحة للبندقية .

ويعلق لافاليه على ذلك بقوله : «فبفضل هذه الامتيازات ، ونظراً لان اسبانيا والبندقية كانتا وقتئذ تتنافسان في محاربة تركيا اتيح لفرنسا وحدها ان تسيطر على تجارة البحر المتوسط[2]» هذا وظل حظ فرنسا يتألق في عهد خلفه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٦) ولم يكتف جلالته بتثبيت امتيازاتها السابقة ، بل زادها وسعة على وسعة ، ولا سيما في شؤون بيت المقدس وجبل سينا الدينية . وهو فضلا عن ترخيصه للرهبان الكاثوليك ببناء دير في محلة البيك اوغلي باستامبول فقد اوعز الى مأموري « **التشريفات الرسمية** » بوجوب تقديم سفير فرنسا على زملائه الاخرين .

على ان السلطان المشار اليه لم يبخل ، مع ذلك ، على الدول الاخرى في المنح والامتيازات ؛ ولم يكتف بتثبيت الامتيازات التي منحت للبندقية من قبل ، على كثرتها ، بل اضاف اليها منحاً اخرى . كما ان جلالته لم يهمل بريطانيا العظمى : فقد كان من المحظور على سفن كل الدول ، ما عدا البندقية ، ان تدخل المرافيء العثمانية رافعة غير العلم الافرنسي ؛ فسمح للمراكب الانكليزية

1 - Lavallée, Histoire de la Turquie T. II. P. 8

بأن ترفع رايتها الخاصة اثناء اجارها في الشطوط التركية[١]، نظراً لما كانت تبديه حكومة الملكة ايزابلا من التحبب للباب العالي اسوة بفرنسا.

ولما تسنم العرش محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) وكانت النمسا تنازع السلطنة على المجر، بينما خرجت عليها الافلاق وترنسلفانيا ونالتا استقلالهما، تحول الى مصادقة الدول الاخرى التي اخذت تصانعه في سبيل مصالحها الخاصة. ولا سيما من اجل تثبيت امتيازاتها، وتعديلها تعديلا افضل لصالحها مما كانت عليه قبل. وكان انتصاره على النمسا مما حمل تلك الدول على ممالئة جلالته؛ فتحببت اليه بولونيا، وبادرت جمهورية البندقية لتوجيه التهاني الحارة الى جلالته بمناسبة هذا الانتصار؛ كما ان السفير الانكليزي مستر برتن مشى في ركابه الى الحرب، وحضر واقعة ١٥٩٦م. اما فرنسا فكانت تجهد لتوثيق عرى الروابط الودية بينها وبين الباب العالي على قدر ما تسعى لاحباط مساعي انكلترا التي جاءت تزاحمها في صعيد التجارة، كما جاءت تتطلب مثل الامتيازات الفرنسية. وكان النصر في النهاية لفرنسا[٢]

غير ان نجم فرنسا شرع يأفل في حكم السلطان احمد الاول (١٦٠٣-١٦١٧) فان هذا السلطان وان اقرّ امتيازات فرنسا ومعاهداتها على حالها فقد اخذ يشعر بان لا مجال لابقاء ميزة لفرنسا على غيرها، فمنح هولندة (١٠٢١هـ=١٦١٢م) الامتيازات التجارية التي كانت لفرنسا، كما انه جدد المعاهدة مع كل من جمهورية جنوا ودولة بولونيا.

وكانت هذه البوادر مصدر تراخي العلاقات الودية بين الباب العالي وبين باريس؛ ثم توترت تلك العلاقات في ايام مصطفى الاول وعثمان الثاني ومراد الرابع.

وقد اتضح للدولة في حكم ابراهيم الاول (١٦٤٠-١٦٤٨) ان صديقتها فرنسا تساعد البندقية سراً بالاتفاق مع اسبانيا على الدفاع عن جزيرة إكريت، ثم تحقق لها في حكم محمد الرابع ان فرنسا لا تزال تتآمر عليها. فقد اتيح للباب العالي الاطلاع على المخابرات السرية التي كان وجهها مسيو دولاهي سفير فرنسا الى البندقية (١٦٥٩م) يحضها فيها على الصمود في الدفاع عن تلك الجزيرة. فما وسع الباب العالي، بعد جلاء موقف فرنسا الان اعلن مقاطعتها، والغاء الامتيازات الممنوحة لها. وكان ذلك مما اثار ثائرة الكه دورسه وحمل فرنسا على مظاهرة النمسا علناً ضد تركيا، كما

---

١ — محمد فريد. تاريخ الدولة العلية الصفحة ١١٣

2 - LaVallée Histoire de la Turquie T. II P.40 - 44

حملها على مطاردة السفن العثمانية في البحر المتوسط ، ولا سيما في بحر الجزائر .

وقد خفت تركيا لمقابلة فرنسا بالمثل فأمرت بمنع السلع الفرنسية من المرور بمصر في طريقها الى الهند ، ولم تكترث لتهديد باريس باشهار الحرب عليها . (١٠٨١ هـ = ١٦٧٠ م)

ولما تحققت باريس ان هذا الموقف العدائي يحرمها نفوذها في الامصار العثمانية المترامية الاطراف ، ويضيع عليها ثمرات جهودها الجبارة ، قفلت راجعة الى سياسة المصانعة والتمليق ؛ وظلت على ذلك ثلاث سنين حتى استطاعت ان تعقد مع تركيا معاهدة جديدة ، وان اختلفت اساليبها عن معاهدة سنة ١٦٠٤ الا انها تكاد تتضمن الامتيازات نفسها التي وردت في تلك المعاهدة ؛ هذا فضلا عن انها تضمنت ١٩ مادة جديدة تتعلق بالمحلات المقدسة في فلسطين جاءت متفقة مع امانيها .

وفي تلك الحقبة اخذت كفة هولندا ترجح في ميزان السلطنة . ولديّ في قسم المحفوظات من متحفي المتواضع المعاهدة التي عقدت سنة ١٠٩١ هـ = ١٦٨٠ م بين السلطان محمد الرابع وبين « **جمهورية الولايات المتحدة للبلاد الواطئة** » مغلفة تغليفاً جميلا. وهي من مخلفات اسرة آل عثمان ، ومكتوبة باللغتين التركية والفرنسية . وتتضمن منح السلطان لهولاندا مثل الامتيازات التي كانت لانكلترا وفرنسا ، وتعهده بحماية رعاياها ، واعفاء ممثليها السياسيين ، ومنع غزوات قرصان الجزائر على سفنها ، وتحرير الارقاء من رعيتها ، والسماح لرعاياها بعمل الخمور في في اراضي السلطنة وبيعها ، رغم ان هذه المهنة محرمة عند المسلمين . الى غير ذلك من التعهدات.

وبعد فان هذه الامتيازات التي كان الباب العالي يغدقها على الدول من قبيل المنح والمساعدات لم تلبث ان صارت لها حقاً مكتسباً ، واصبحت تعدل وتزاد ليس وفقاً لرغائب الباب العالي ، وانما نزولا عند ارادة هذه الدول ، ولا سيما عقب الحروب التي كانت تأتي ، في اغلب الاحيان ، على غير هوى آل عثمان . او اثناء الازمات التي يقع فيها الباب العالي . واليكم بعض الامثلة :

أ — بعد انتصار النمسا وروسيا (١١٣١ هـ = ١٧١٨ م) على الدولة تمكنت روسيا من زيادة امتيازاتها باعفاء شعبها من الرسوم وجوازات المرور .

٢ — زادت روسيا في معاهدة قينارجه (١١٨٨ هـ = ١٧٧٤ م) امتيازاتها فنالت حق حماية الارثوذكس ، وان يكون لممثليها وشعبها في بلاد السلطنة مثل ما للفرنسيين من المنح والمعفيات .

٣ — عدلت فرنسا في ايام السلطان محمود الاول (١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ م) المعاهدة التي

كانت قد عقدت سنة ١٦٧٣، وذلك بزيادة امتيازاتها وامتيازات شعبها مكتسبة فرصة الازمات التي احاقت بالسلطنة، وجعلتها تطلع الى باريس راجية انتشالها منها.

هذا ومنذ بداية القرن الثامن عشر، حيث اخذت الدول تعقد المؤتمرات لتسوية مشاكل السلطنة اثر كل حرب تخسرها، اصبحت الامتيازات السياسية مشاعاً للجميع في بلادها، وتعدت حد الحقوق الدولية الى التدخل في شؤون السلطنة الخارجية حتى افضى هذا التدخل الى تقييد حريتها. ويكفي للتدليل على ذلك الاشارة الى الحد من حرية تركيا في ناحية وضع الرسوم الجمركية وتوجيهها في هذا توجيها مضراً بصالحها. فالمعاهدة التي عقدتها مع فرنسا سنة ١٨٣٨ حتمت عليها ان لا تتقاضى عن البضائع الداخلية لجماركها الا خمسة في المئة. بينما حددت الرسوم على صادراتها ١٢٪.

ولم تستطع الدولة ان تزيد رسم الجمرك على الواردات الى ١١ في المئة، ثم الى ١٥٪ الا بعد جهود وتضحيات. وهذا ما حدا بكامل باشا الصدر الاعظم خلال حرب البلقان لان يبث ألمه لمستر غرانت برون الكاتب الاميركي. وذلك بمناسبة معارضة الدول الاوروبية في زيادة رسم الجمرك من ١١٪ الى ١٥٪ وحرمان السلطنة بسبب ذلك زيادة ٤٠ في المئة في دخلها. وهذا ما حمل دولته لان يقول له: «**ألا تعلم يا مستر برون ان تركيا هي الدولة الوحيدة التي ليس لها حرية التصرف باموالها، والسيطرة على دخلها، حتى ان كل قرش من مواردها لا تحصل عليه الا بعد صدور السماح من الدول**[1] ؟!»

وكان الباب العالي يضطر لوقف هذه المعارضة لبذل امتيازات جديدة لبعض الدول. من ذلك ان السلطان عبد الحميد الثاني رشا بريطانيا العظمى في سبيل نيل موافقتها على زيادة الرسوم الجمركية ٣٪ بان مدد لها امتياز الخط الحديدي ما بين ازمير وايدين الى سنه ١٩٤٠، ومنحها حق تمديد فرعين لهذا الخط. واكتسبت المانيا هذه الفرصة وقامت تطالب بان يخصص قسم من دخل الجمارك الذي يحصل عن زيادة الرسوم كفالة لفائدة فرع جديد لخط بغداد. كما ان دول البلقان مدت رؤوسها وعارضت في الزيادة التي كان يسعى اليها الباب العالي سنة ١٩٠٧ الا ان تتعهد بانفاق ٧٥٪ منها لاصلاح مكدونيا؛ و٢٥٪ للديون العمومية[2].

هذا الى ان الدول الاوروبية تجاوزت هذه الحدود وتعدتها الى تقرير حقوق مكتسبة في السلطنة ليس لها اساس في المعاهدات؛ من ذلك البرد الاجنبية التي ما وسع السلطان عبد الحميد

---

١ – جريدة الهدى النيويوركية السنة ١٦ العدد ٣٣

2 - René Pinon. L'Europe & l'empire Ottomane. P. 199-200

الثاني الا ان يعرب عن اسفه لوجودها ، حيث قال في مذكراته : « اما السبب الذي ادى الى انشاء دور البرد الاجنبية في تركيا فهو ان اسلافي على العرش العثماني سمحوا بدون اكتراث ، وبنية حسنة ،لرسل السفراء الاوربيين بحمل رسائل خصوصية . وقد انتقلت هذه العادة على ممر الايام الى نظام بريد اجنبي واسع ، كما هو اليوم ، وخسرت تركيا بهذه الطريقة اموالا طائلة» وعلق السلطان على ذلك بقوله : « ان بلادنا هي البلاد الوحيدة الصابرة على هذا الضيم . فللنمسا في المملكة ثلاثون شعبة بريد ، ولروسيا اربع وعشرون ، ولفرنسا عشرون ، ولايطاليا ثماني ، ولالمانيا خمس ، ولانكلترا اربع والهند اثنتان[١] . »

والخلاصة فان هذه الامتيازات الاجنبية المختلفة جعلت تركيا مستعمرة ، ولكنها ليست مستعمرة لدولة واحدة بل للدول القوية كافة . ولا ادل على ذلك من قول رينه بينون الفرنسي حيث اعلن صراحة . « **لا توجد في العالم بلاد كالمملكة العثمانية يجد فيها الغرباء ، ولا سيما الفرنسيون، حرية العمل ، وثمرات الجد .. وان الافرنسيين لم يستعملوا رساميلهم في بلد اخر ، حتى ولا في مستعمراتهم ، مثلما استعملوها في تركيا للاستثمار .** »

وكانت تلك الامتيازات وبالا على السلطنة في كل ناحية ويكفي انها جعلت الشعب العثماني غريباً في وطنه ، بينما اصبح الغرباء فيه يمشون تيهاً واختيالا ؛ لا يطالهم القانون ؛ بل هم يحمون من يشاؤون من القانون !

*

الامتيازات الطائفية والاحوال الشخصية

درجت الدول القديمة على قاعدة الاعتراف لرجال الاديان ، على اختلافهم ، بحق الفصل في القضايا الملية بمقتضى شرائع كل ملة ومذهب . وهو ما يسمونه في الاصطلاح الجديد « الاحوال الشخصية ».

فلما استولى الرومان على فلسطين تركوا للشعب اليهودي محاكمه المدنية، ولذلك قال بيلاطوس الحاكم الروماني وقتئذ للذين جاؤوه يطالبون بقتل المسيح : « **خذوه انتم واحكموا عليه بموجب ناموسكم** » .

---

١ – جريدة الهدى النيوركية السنة ١٦ العدد ٥٤ نقلاً عن مجلة الشمال والجنوب الالمانية

كما ان الرومان اعترفوا في صدر القرن الاول للمسيح لنصارى انطاكية ، على قلة عددهم، باستقلالهم في الشؤون الدينية .

ثم لما انتزع البيزنطيون هذا الشرق من الرومان أقروا اليهود والنصارى من رعاياهم على احكامهم وعلى المقاضاة لدى محاكمهم المذهبية[1] . وعلى هذا جرى المسلمون الذين كانوا لا يطلبون من اهل الذمة الا الجزية لقاء حمايتهم وليكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . لذلك لما فتح السلطان محمد الثاني العثماني القسطنطينية عاصمة بوزنطة (٨٥٧ هـ = ١٤٥٣) جمع ائمة النصارى هناك ، ودعاهم لانتخاب بطريقهم، الذي عهد اليه برئاسة الملة والفصل في قضاياها، فانتخبوا جورج سكولاريوس . وقد احتفل السلطان بتثبيته بمثل الاحتفال الذي كان يجريه قياصرة الرومان ، وفوض اليه والى مجلس مؤلف من اركان الكنيسة حق الحكم بين رعيته في القضايا المدنيـة والجنائية بكافة انواعها . وتعضيدا لسلطته هذه عين له حرساً خاصاً من عساكر الانكشارية ، واعطى هذه السلطة ايضاً للمطارنة والقسس في الولايات[2] .

وشاء السلطان ان يجعل بطريرك القسطنطينية المرجع الاعلى لكل الطوائف المسيحية ، والمسؤول عنها جميعها ، وعن تأدية خراجها والمرتبات عليها، وقضى ان يكون الارثوذكس في المملكة ، سواء اكانوا بلغاريين ام فلاخيين ام صربيين ، كاليونان، خاضعين على السواء، لسلطة غبطته؛ كما رسم ان تكون الطوائف الاخرى في الولايات تابعة لممثـلي غبطته فيها . ولما كان لا بد لمثل هذا المرجع من قوة تساعده على تنفيذ اوامره ، وتحصيل موارده ، فقد خصه السلطان بقوى من الجيش الانكشاري جعلها رهينة لاوامره؛ فقامت ، من جراء ذلك ، سلطة مستقلة ذات شأن وحول وطول ضمن سلطة الدولة .

وكان من سيئات هذا التدبير بروز نقمة عامة بين الطوائف المسيحية وعناصرها المختلفـة : فالارثوذكس من الشعوب غير اليونانية كانوا ، ولا سيما في البلقان ،يتميزون من الغيظ نظراً للعداوة القديمة التي كانت مستحكمة بينهم وبين جيرانهم اليونان . والكاثوليك وبقيـة الطوائف المسيحية كانوا يرون من الحطة الرجوع الى كبير الارثوذكس وممثليه، وربما كان اسهل عليهم ان يخضعوا لمفتي المسلمين من الرضوخ لاحكام الرئيس الارثوذكسي .

ولكن هذه النقمة وذلك التذمر ظلا خافتين ابان عظمة السلطنة وجبروتها ،حتى اذا استولى

---

١ — الخور اسقف بطرس حبيقة « الاحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية » ص ٥ / ١١

٢ — نجيب المعلوف .تركيا الجديده. صفحة ٧٩

عليها الوهن برزا للعيان ، واصبحا من مشاكل الدولة الداخلية التي امست منفذاً لتدخل الاصابع الاجنبية . وكم في تاريخ سوريا من الفتن التي قامت بين الكاثوليك والارثوذكس ، ولا سيما في حلب ؟ فكانت الدول اللاتينية تؤيد اتباع قداسة البابا ، وكان الروس يظاهرون الروم . اما تركيا فكانت تقع عليها تبعات هذه الفتن .

وكم حاولت روسيا انقاذ الشعوب السلافية والمكدونية من سلطة البطريرك اليوناني في قسطنطينية ؟ وقد بذرت بذور هذه الفكرة اثر حرب القرم . وفي سنين ١٨٧٠ — ١٨٧٢ توسطت لدى الباب العالي من اجل اعترافه بوجود العنصر البلغاري الى جانب العنصر اليوناني بين ارثوذكس رعيته ، وتدخلت من اجل فصل البلغار عن بطريرك الاستانة ، كيما يرجعوا الى الاكسرخس الخاص بهم .

وقد وجد السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي كانت سياسته في الداخل والخارج قائمة على قاعدة « فرق تسد » ، وجد في مطالب روسيا فرصة لتطبيق هذه القاعدة بين الطوائف المسيحية . فأمر بفصل الكنيسة البلغارية عن اليونانية ؛ واذا بالبغضاء تثار ، على اثر ذلك ، بين اتباع الكنيستين اشد مما كانت عليه قبل ، فيتخذها عبد الحميد من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٩٠٨ كترس فولاذي يدفع به كثيراً من شرور الفتن في الجانب الاوروبي من مملكته . وكانت خطة جلالته حيال هذا التباغض بين الكنيستين ، والتنافر بين اتباعهما تختلف باختلاف صالح السلطنة : فمن ١٨٧٨ الى ١٨٩٠ ، كان يبدو انه يعمل على تخفيف وطأة الخلاف ؛ ولكنه منذ ١٨٩٠ الى ١٩٠٨ ، اي اثناء ما بادرت روسيا للتوفيق بين الشعوب المسيحية في البلقان وتوحيد صفوفها ضد السلطنة ، شرع عبد الحميد يصب البترول على النار لتزداد اشتعالا[1] .

والى هذا فقد استقلت الطوائف المسيحية الاخرى عن بطريرك الاستانة اليوناني ؛ واحتفظت بامتيازاتها في الحكم بالاحوال الشخصية ؛ واذ كانت السلطنة ذات صبغة اسلامية سافرة تلمست هذه الطوائف مراجع اخرى تستند اليها في الشؤون السياسية : فاتجه الروم نحو روسيا بالارثوذكسية ، والكاثوليك ، على اختلافهم ، والموارنة شطر فرنسا الكاثوليكية ، كما تطلع البروستانت الى انكلترا البروستانتية ، وهكذا اصبحت الامة المؤلفة من كتل غير متآلفة لا ترتبط في آلامها وآمالها بوحدة تتمثل في السلطة الناشئة وانما تتوجه وجهات مختلفات بحسب النزعات

1 - v. Bèrard . La mort de Stamboul p 4 —9

الطائفية ، ويتصل بعض هذه الكتل باعداء الدولة . وان شعباً كهذا لم يكن يصدق عليه اطلاق كلمة امة .

وكم وقعت في السلطنة فتن وثورات لم تكن للطوائف فائدة منها ، وانما كانت الطوائف مسوقة اليها من قبل الاجانب اصحاب الغايات. وآخر مثال على ذلك تلك الفتن المشؤومة التي وقعت بدمشق وجبل لبنان في منتصف القرن الماضي التي انتهت بمذابح ١٨٦٠ بين النصارى والمحمديين. على ان الدول الاجنبية كانت تتغاضى عن مصادر هذه الفتن وتجمع على مطالبة الدولة بالاصلاح . وهي انما تعني بالاصلاح المحافظة على العناصر المسيحية وحقوقها ؛ وما كان الباب العالي اقل حرصاً منها على اجراء الاصلاحات المطلوبة ، ولا سيما منذ اوائل القرن التاسع عشر . ولقد حاول نشر المساواة بين الرعية ؛ ثم اشتدت عنده الرغبة في تحقيق المساواة عقب الوعود التي انتزعها منه حلفاؤه في حرب القرم سنة ١٨٥٦م. ولكن انى له تحقيق هذه الرغبة بعد ان استفحلت العلل ؟ قال سينوبوس . « ان تحقيق الوعود الاصلاحية كان متعذراً على العثمانيين ، ولا سيما في ذلك الزمن الذي كان فيه المسلمون يحسبون النصارى دونهم في كل شيء ، بينما كان هؤلاء يرجعون الى رؤساء مذاهبهم في كل شؤونهم . على ان النصارى انفسهم لم يرتاحوا للخدمة العسكرية ، التي تجعلهم يسيرون جنباً الى جنب مع مواطنيهم المسلمين ، وخافوا مغبة هذا الاختلاط فاختاروا تأدية بدل الخدمة العسكرية مالا ، فاسترجعوا بذلك الجزية ، التي الغيت وعادت باسم آخر[1] »

وفي الجملة فان السلاطين الفاتحين قد وضعوا اسس خراب السلطنة حينما نهجوا نهج بنائها كتلا متفرقة لا تجمع بينها العواطف ، ولا توثق بينها الروابط السياسية والروحية . لقد عملوا سلفاً على تفكيك اوصال السلطنة ، اذ كانوا على ما وصفهم به جونكيار A. de la Jonquière **« يعملون على توسيع مدى الخطوط التي تفصلهم عن رعاياهم، عوضاً عن اهتمامهم بصهر العناصر المختلفة الخاضعة لهم في بوتقة واحدة »** . ثم لما اعتزموا رتق الفتق في القرن الحاضر قال لهم الزمان : **« هيهات هيهات . فان ما مضى فات ... »**

*

١ — سينوبوس تاريخ التمدن الحديث. صفحة ٢١٣-٢١٤

حماية الدول للاقليات

أي شيء اضر على الدولة من قيام حق لاخصامها
السياسيين في التدخل بشؤونها باسم حماية فئة من شعبها؟
واية حماقة اشد من حماقة دولة تقيّد حريتها
واستقلالها بامتيازات تمنحها للدول ، واخرى تسديها
للطوائف من رعيتها؛ ثم هي تربط نفسها بحقوق تعطيها الى الدول فتجعلهم بمقتضاها قيّمين على تلك الطوائف وحماة لهم ؟

كم من الثورات الداخلية الفتاكة ؟ وكم من الحروب الدولية القاصمة وقعت فيها دولة آل عثمان وكان مرجعها تدخل الدول في شؤون الشعب العثماني تحت ستار حماية الاقليات ؟ وما حماية المسيحيين ،في الواقع ،لدى دول فصلت الدين عن السياسة واستهترت به ،الا كوتد جحى يهزه كلما احتاج اليه لغاية في نفسه .

والواقع ان هذا الحق الذي منحته تركيا لبعض الدول كان تأثيره الوخيم لا يقتصر عليها، بل خلق في اوروبا ازمات سياسية كثيرة ، وافضى ،بعض الاحيان ، الى نشوب حروب دولية .

وقد قسمنا البحث في هذا الموضوع الى ثلاثة اقسام :

الاول : الحماية من منشئها الى سلطنة مراد الرابع (١٠٣٢ هـ = ١٦٢٢م) حيث شرعت روسيا تزاحم فرنسا .

الثاني : تطور الحماية من سلطنة مراد الرابع الى مؤتمر برلين (١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م)الذي تقرر فيه منح كل دولة حق حماية الطائفة المرتبطة بها في المذهب .

الثالث : من مؤتمر برلين الى اعلان الدستور العثماني (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م) الذي قرر المساواة التامة بين الطوائف على امل وقف تدخل الاجانب .

. . . . .

القسم الاول — في الحماية

وهو دور فرنسا من ٩٤٢ هـ الى ١٠٣٢ هـ موافق ١٥٣٥م الى ١٦٢٢ م.

يعتبر السلطان سليمان القانوني واضع الحجر الاول في منح حق حمـــاية الاقليات لدولة اجنبية ، كما انه الاول بين السلاطين في ارتكاب خطأ منح الدول الامتيازات التي صارت قيوداً

تطوق عنق السلطنة .

فالسلطان سليمان منح حليفه فرنسوا الاول ملك فرنسا الحرية الكاملة للمسيحيين في الحج الى بيت المقدس ، وفي زيارة بلاد السلطنة ، وتعهد بأن يؤمن راحتهم . هذا فضلا عن انه خص الرهبان اللاتين بشرف خدمة المعاهد الدينية في القدس ، ومنحهم وسائر الشعب اللاتيني ، حق التمتع بحماية فرنسا متى شاؤوا .

ولما مات فرنسوا الاول اكد السلطان لولده هنري الثاني هذه الامتيازات. ومازالت تتأكد، من بعد ، في كل مناسبة ، وتتضاعف حتى اصبحت حقوقاً مقررة .

وبلغ من سعة صدر السلاطين ، على رغم تعصبهم الديني ، ان السلطان سليما بن سليمان اضاف الى المنح التي اسداها والده لفرنسا منحة جديدة وذلك بالسماح للارساليات التبشيرية الكاثوليكية بدخول البلاد العثمانية والاقامة فيها[1] على ما هو معلوم من غايات هذه الارساليات . وانها لا تقتصر على نشر المسيحية ، بل هي ، في الواقع ، طلائع الدول للاحتلال المنشود[2]. وقد ابتنوا أولى الكنائس في غلطه .

ثم اكد السلطان مراد الثالث تلك الامتيازات لفرنسا ، وعلى رأسها حقوقها في بيت المقدس وجبل سينا ، وسمح لها ببناء دير في البك اوغلي . وكانت هذه المنح السلطانية تؤكد لفرنسا عند ارتقاء كل ملك جديد على عرشها . ولكن هذه الدولة حرصت فيما بعد ، على ان تتلقى تثبيت هذه المنح ، وعلى ان تزداد وسعة بمناسبة تعيين كل سفير جديد لها في استامبول . فقد تمكن سافاري دوبريف من استصدار « **خط شريف** » سنة ١٦٠٤ من قبل السلطان احمد الاول جاء فيه :

---

١ — قال لافاليه (في تاريخ Hre. de la Turquie الجزء ٢ الصفحة ١١٠) ان ارساليات التبشير التي ارتادت الشرق الادنى اسست بانتظام من قبل هنري الثالث ؛ وترعرعت ونمت في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، وبلغت ذروة الانتشار في حكم لويس الرابع عشر (٦٦٠-١٧١٥) . لقد القي على عاتق الجزويت وسمح لهم الباب العالي ان يسكنوا بلاده وينشروا الدين المسيحي ويعلموه لليونان والارمن والقبط والسوريين وغيرهم دون ان تكون لاحد حق بمنعهم او اقلاق راحتهم ، القي على عاتقهم مهام سياسية خطيرة . ذلك انه كان عليهم لقاء الحظوى بحماية (ملك المسيحيين الكبير) (اي ملك فرنسا) ان لا يقتصروا على التبشير ... فكانوا ينقلون الى فرنسا المعلومات عن عوائد البلاد ولغاتها ومحاصيلها وتجارتها وتاريخها ؛ كما انهم كانوا يتلقون منها الاوامر والتوجيهات ، ولا سيا من وزارة الخارجية التي كانوا يواصلونها بالمذكرات والخطط والتفصيلات من كل نوع .

٢ — محمد فريد تاريخ الدولة العلية. صفحات ٧٨-١١٠

«ان زيارة الاماكن المقدسة تباح لرعايا امبراطور فرنسا، كما تباح للامراء اصدقائه، ولمعاهديه وحلفائه، وذلك تحت حماية الامبراطور المشار اليه. واكراماً له، ومراعاة لصداقته تحافظ السلطنة على الرهبان اللاتين سواء أكان ذلك في بيت المقدس ام في غيرها[1]» ثم توالت الامتيازات لهؤلاء الرهابين التابعين لفرنسا على كرور السنين: فالسلطان عثمان الثاني اصدر فرمانا سنة ١٦٢٠ ترك لهم فيه حق وضع ايديهم على معابد فلسطين، واكد لهم هذا الحق السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣١ خاصاً فرنسا بحماية الاماكن المقدسة، وذلك بمادة من مواد معاهدة سنة ١٦٧٣ في وامر بأن تعاد الى الرهبان اللاتين خدمة تلك الاماكن، وتنزع من ايدي الرهابين الروم. هذا واثناء بحبوحة الصداقة التي كانت تربط تركيا بفرنسا تدخلت هذه ايضـاً بشؤون الكاثوليك العثمانيين والموارنة؛ وجعلت حمايتها تشملهم بالتكرار والمزاولة. وقد ساعدها على ذلك التماس هؤلاء وساطتها في مناسبات عدة نظراً لما لها عند الباب العالي من الكلمة المسموعة.

غير ان هذه الميزات التي كانت لفرنسا في بلاد السلطنة العثمانية لم تلبث ان تلاشت حينما تصرمت العلاقات الودية بين الدولتين منذ السلطان مراد الرابع (١٦٢٣=١٦٤٠)؛ ثم رغم تحسن هذه العلاقات بعد حين، فان نفوذ فرنسا لم يرجع الى مستواه السابق لان دولا كثيرة كانت اغتنمت فرصة العداء بينهما لنيل مثل هذه الحقوق والامتيازات.

غير ان الظروف السياسية ساعدت مرة اخرى فرنسا على استرداد نفوذها. ذلك ان السلطنة العثمانية صارت منذ القرن السابع عشر تلتمس نصيراً لها على حل خلافاتها التي اخذ بعضها برقاب بعض، ولا سيما خلافاتها مع النمسا ثم مع روسيا، واضطرت تحت هذه الحاجة الماسة لان تتناسى تلوّن فرنسا حيالها، وان ترتمي في احضانها، وتستجيب بالتالي لمطاليبها وهكذا فان الامتيازات التي كانت قد كسبتها فرنسا اثناء قوة تركيا بمصانعتهـا وبالتحبب اليها، استعادتها ابان حاجة استامبول لمعونة باريس، كما استعادت حق حماية نصارى الشرق في السلطنة، واحتفظت بعواطفهم. وذلك بالتوسط لهم في كل مناسبة وبالعمل جاهدة على استمالتهم وربطهم بها. وكانت لا تفتأ توصي سفراءها في الشرق الادنى من اجل مساعدة المسيحيين وحمايتهم[1]. ولقد كان في جملة التعليمات التي وجهها نابليون بونابرت للقائد برون ١٢١٧هـ=١٨٠٢م ما يأتي: «**يجب على سفير فرنسا في القسطنطينية ان تشمل رعايته وحمايته كل مسيحيي سوريا وارمينيا، ولا سيما القوافل**

---

des deux mondes P. 784 — 1 février 1919

جميعها التي تزور الاماكن المقدسة[١]»

غير ان الدول الاخرى، التي كانت لا تزال تزاحم فرنسا في سبيل نيل الامتيازات السياسية، لم تلبث ان جرت مجراها في محاولة بسط حمايتها على فئات اخرى من النصارى العثمانيين. وقد استطاع بعضها ان يستخلص لنفسه صداقة بعض الطوائف المسيحية؛ فاعتمد الروم على روسيا، والبروستانت على انكلترا؛ كما اعتمد قسم من الكاثوليك على ايطــاليا؛ ولكن المارونيين والملكيين والكلدانيين الكاثوليك والارمن الكاثوليك ثبتوا على ولائهم لباريس. وكان اشدهم تمسكا بها، واخلاصاً لها هم مواطنونا الموارنة الذين تربطهم بفرنسا علاقات أبعد وامتن من علاقات الطوائف الاخرى.

. . . . . .

وترجع صلات الموارنة بالفرنسيين الى الحروب الصليبية «**وكان لهم منها الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التي كانوا ينتقلون بفتحها من حاضرة الى حاضرة حتى اورشليم[٢].»**

ويستند المؤرخون الى كتاب، قيل ان بوديكور وجده سنة ١٢٥٠م في خزانة البطريركية المارونية، للتدليل على قدم العلاقات بين فرنسا ولبنان. وهو كتاب موجه من لويس التاسع في عكا اثناء الحروب الصليبية. وهذه ترجمته عن جريدة الحق:

«من لويس ملك فرنسا الى امير موارنة لبنان في جبل لبنان، والى بطريرك واساقفة الطائفة المشار اليها

«ان قلبنا امتلأ فرحاً حينما اقبل علينا ولدكم سمعان على رأس خمسة وعشرين الف مقاتل يحمل الينا الشهادة الحسية على عواطفكم الطيبة نحونا فضلا عن هداياكم الفاخرة.

ان محبتنا الخالصة للامة المارونية التي يرجع عهدها الى ايام نزولنا في قبرص حيث وجدنا فريقاً منهم، ان هذه المحبة قد تضاعفت الآن. ونحن موقنون ان هذه الملة التي تنتسب الى القديس مارون هي جزء من الامة الفرنسية، ذلك لان محبتها للفرنسيين هي لا تقل

---

1 — R. Pinon. L'Europe er l'empire Ottomane. P. 547

٢ — الخوراسقف بطرس حبيقه. الاحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية صفحة ١٢

عن محبة الافرنسيين لبعضهم البعض .

« لذلك كان من العدل ان تتمتعوا انتم ، وجميع الموارنة ، بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنسيون من قبلنا ، وان تقبلوا في الوظائف كما يقبلون .

« واننا نناشدك ايها الامير الرفيع الشأن ان تعمل على ما فيه سعادة اهل جبل لبنان ، وان تقرب اليك الاشراف الاكفاء ، كما تفعل فرنسا . وانتم ايها السيد البطريرك ، والسادة الاساقفة ، والاكليروس وعامة الشعب الماروني ، واميره عظيم الشأن . لقد رأينا بكامل السرور تعلقكم المتين بالدين الكاثوليكي ، واجلالكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس في روما . فنحثكم على المحافظة على هذا الاحترام وعلى الثبات ، غير متزعزعين ، على هذا الايمان . اما نحن وسائر الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فانا نعطيكم عهداً على ان نوليكم انتم وجميع شعبكم حمايتنا الخاصة ، مثلما نوليها للافرنسيين انفسهم ، ونسعى ، في كل وقت ، لخيركم ، ولما يؤول الى سعادتكم* . »

ولكن الصليبيين لم يستطيعوا البقاء في بلاد الشام . فلما اجلاهم عنها المسلمون عنوة جلا معهم فريق من المارونيين ونزلوا في بعض جزر البحر المتوسط ، ولا سيما في اكريت وقبرص وصقلية . والذين بقوا في لبنان ظلوا يحافظون على ولائهم لفرنسا ، ويواصلون المخابرات معها . حتى اذا فتح آل عثمان بلاد الشام ، وتوثقت العلاقات بينهم وبين ملوك فرنسا خف الموارنه الى مراجعة هؤلاء الملوك في باريس ، ملفتين انظارهم الى العلاقات الودية التاريخية التي تربطهم بهم ، وطالبين وساطاتهم عند الدولة اثناء قوتها ، ثم ملتمسين حمايتهم بعد ان استولى عليها الضعف ، وتسنى للاجانب التدخل في شؤونها .

« وكانت هذه الطائفة شعباً زراعياً ضعيفاً ، ولكن لما تبعت سلطة البابا في القرن الخامس عشر في ايام البابا بوجيوس الرابع (١٣٤٨) دبت في الاكليروس روح النشاط[1] »

واصبحت الطائفة اشد تعلقاً بفرنسا من ذي قبل ، حتى ان شسنو كاتب اسرار الشفاليه درامون ، سفير فرنسا في عهد السلطان سليمان القانوني كتب ، بمناسبة تفقد السفير المشار اليه احوال النصارى في البلاد المقدسة ، ما يلي : **« ان المسيحيين كانوا ينتظرون (ممثل فرنسا) انتظار**

* — نشر رينه بينون كتاباً مماثلاً جعل تاريخه يرجع الى ١٢ مايس ١٢٥٠ ، ونسبه الى لويس الاول . والاصح هو ما ذكرته جريدة الحق التي اخذنا عنها .

١ — مجلة المصور — سنتها الاولى — العدد ٤٦

اليهود للمخلص . » وهو يعني الموارنة .

وكانت باريس تراقب الفرص وما ان تسنح واحدة منها حتى تبادر الى طلب تأكيد الاعتراف لها بحماية نصارى الشرق ، ولاسيما بلاد الشام . فعلت ذلك في حكم آن دوتريش (١٦٤٩) ولويس الرابع عشر (١٦٤٩و١٦٩٧) ولويس الخامس عشر (١٧٣٧) . وفي غير هذه العهود على التوالي .

وكان ملوك فرنسا ، في ذلك الوقت ، لا يفتأون يعطون الاوامر لسفرائهم عند الباب العالي ، مشفوعة بالتوصيات بالملة المارونية . فانك لتقرأ في الوصايا المعطاة سنة ١٦٣٩ الى السيد ده لاهاي فندلاي Sieur de la Haye vendelaye حين سفره الى الشرق الادنى ما يلي : « **سيكون اهتمام السفير ، قبل كل شيء ، حين وصوله الى هناك موجها لحماية النصارى والكاثوليك ، واسداء المساعدات لهم على قدر الامكان ، والاستعانة بسلطة جلالته (اي ملك فرنسا) واسمه في سبيل مواساتهم حيث يرى فائدة من هذه الاستعانة** » .

وبعد عشر سنين من ذلك اعطيت تعليمات اخرى بتوقيع لويس الرابع عشر ، اثناء ما كان تحت الوصاية ، خصّ بها الموارنة بالتوصية وجاء فيها : « نأخذ ونضع تحت حمايتنا وحراستنا الخاصة غبطة البطريرك وكل الاكليروس والرهبان النصارى المارونيين الذين يسكنون بصورة خاصة في جبل لبنان . ونريد ان يشعروا باثر ذلك في كل مناسبة[1] . »

هذا وقد استكملت صحيفة الكرسبوندانس دوريان Correspondance d'orient نص هذه التعليمات بقولها بلسان الملك : « وانا نأمر محبنا والمخلص لنا السيد دولاهي سفيرنا في الشرق الادنى ، كما نأمر كل من يخلفه في هذا المنصب بان يعتنوا في المارونيين ، فرادى وجماعات ، وبتوظيفهم وان يشملوهم بالحماية ويمدوهم بالتعليم وذلك حيال حكومة ذي العزة العظمى والصداقة الراجحة المولى العظيم ، وعند سواه حين الحاجة ، كيلا يعاملوا معاملة سيئة ولا يتعرض الى حريتهم في ممارسة عباداتهم .

« وانا نأمر قناصل فرنسا في مرافيء الشرق الادنى وغيرهم ممن يرفعون العلم الفرنسي ان يشملوا بمحبتهم ، وعلى قدر استطاعتهم ، البطريرك المشار اليه ، وجميع النصارى المارونيين . ونوصيهم بأن ينقلوا على المراكب الافرنسية او غيرها الشباب وغيرهم من الموارنة الذين يريدون ان يقصدوا الى البلاد المسيحية ، سواء اكان ذلك في سبيل طلب العلم او لشؤون اخرى ، على

1 — Revue des deux mondes . 15 fevrier 1919

ان لا يتقاضوا منهم على سبيل الاجور غير الذي يستطيعون تأديته، وعلى ان يعاملوهم بكل لطف واحسان.

« هذا وانا نرجو ونلتمس السادة الممتازين اصحاب الشهرة الباشوات لدى جلالته والضباط ان يخصوا السيد البطريرك وكل الاكليروس الماروني ورعيته بعنايتهم. ونحن نعد بان نعامل بالمثل كل الذين يوصون بهم[1] ».

والى هذا فان لويس الرابع عشر لم يهمل ولم يهمل الاجابة على كتاب ورد الى جلالته من وكيل غبطة البطريرك الماروني اثناء غياب البطريرك اسطفانوس. فقدصدر عن فرساي سنة ١٦٩٧ الجواب التالي:

« الى السيد الاجل رئيس اساقفة نيقوسيا متروبوليت قبرص، ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في جبل لبنان.

« ايها السيد الاجل تناولت الكتاب الذي رفعه الي من قبلكم السيد يوحنا مارون رسول طائفتكم، وبه تدينون لي ما يحصل في بلادكم الان من الضيق، وتسألونني فيه ايضاً ان انصب الامير حصناً قنصلاً لفرنسا في بيروت. وان عنايتي بجميع الذين يؤمنون بالدين القويم، حيث كانوا، لا تدع، مجالاً لريب عندكم في عنايتي بكم على وجه خاص. ولذلك فقد شئت ان اولي، بطيبة خاطر، الامير حصناً قنصلاً في بيروت، مستقلاً عن قنصلية صيدا.

« هذا وقد كتبت في نفس الوقت الى سفيري في الاستانة، والى قناصل حلب وصيدا وطرابلس كيما يبذلوا العناية الفعالة فيما يعود بالنفع العميم على ملتكم، وعلى كاثوليكي الشرق الان وفي كل فرصة تسنح. واخيراً اسأله تعالى ان يحفظكم ايها السيد الاجل بحراسته المقدسة[2]. »

ولما صار العرش الى لويس الخامس عشر خف المقام البطريركي الماروني في لبنان للاتصال به، فكتب جلالته الى سفيره في الاستانة سنة ١٧٣٧ يوصي بهم خيراً، مستهلاً ذلك بما يلي: « **ان بطريرك انطاكية والنصارى الموارنة في جبل لبنان، اشفعوا عرضهم لنا بانهم، من زمن بعيد، يتمتعون بحماية ملوك فرنسا اسلافنا الاماجد، وانهم كانوا مشمولين بعطفهم في**

1 - la Vallée. Histoire de la Turquie T.II. P.115

٢ — جريدة الهدى النيويوركية سنتها ١ عددها ٣٣

كل مناسبة . اشفعوا عرضهم هذا بالتماسهم بكل خشوع ان نمنحهم تأكيدات جديدة بشأن حمايتهم وحراستهم وفقاً لما فعل سلفنا الملك المرحوم. وبما اننا ، لهذه الاسباب ومن اجل نيات طيبات اخرى ، نريد ان نستجيب لهؤلاء الملتمسين ، اخذناهم تحت حمايتنا ووضعناهم تحت حراستنا[1] . »

هذا ولم يتغير موقف فرنسا من الموارنة اثناء الانقلاب الذي افضى الى تغيير شكل الحكم فيها . بل ان حكومة الثورة ظلت تنطق بهذا اللسان ؛ وتأمر بان لا يهمل جانب نصارى الشرق اثناء العناية باللاتين . وعملاً بذلك فان ممثل فرنسا وقتئذ في الاستانة الجنرال اوبرت ده بايات A. du Bayet وزع نشرة على القناصل ورد فيها ما يلي : « **ان الدستور الذي لنا شرف الحياة في ظله ، الدستور الذي يترك لكل شخص حرية ممارسة عقيدته ، يجعلنا احرص ، من ذي قبل ، على الدفاع عن ديانة الرعايا العثمانيين الذين يعتنقون المسيحية[2] .** »

. . . .

وبعد فان حماية الاقليات هذه التي وثقت العلاقات بين رعايا تركيا وبين اعداء السلطنة السياسيين ، لم تجعل الباب العالي مقيداً دولياً ، ومسؤولا تجاه اخصامه فحسب ، بل جعلت لهؤلاء الاخصام عمالا في الدولة تمشي الاقليات بمقتضى توجيهاتهم . وهكذا فان نابليون الثالث ، الذي لم تكن حكومته غريبة عن الفتن الطائفية التي وقعت في سوريا ، ولا سيما في لبنان ، خف عقب مذابح ١٨٦٠ الى التظاهر بانه يريد حماية الموارنه ، وارسل حملة من قبله احتلت لبنان مدة من الزمن ، وما جلت عنه الا بعد ان تم الاتفاق على اقامة متصرفية فيه تحت اشراف الدول .

. . . . .

القسم الثاني — في الحماية

وهو دور روسيا من ١٠٣٢ هـ الى ١٢٩٦ موافق ١٦٢٢ م الى ١٨٧٨

حسدت الدول فرنسا على مكانتها عند الباب العالي ، وعلى ما صار للكاثوليك من الميزة في

---

1 - Lavallée . Histoire de la Turquie T. II. P. 115

2- Revue des deux mondes 1 . fev. 1919

السلطنة ، فخفت انكلترا تعاضدها هولاندا الى محاولة احتلال تلك المكانة ، والى تأمين نفس الميزات التي يتمتع بها الكاثوليك لشعبيها خاصة ، وللبروستانت كافة . وكانت فرنسا اثناء وزارة الكاردينال ريشليو منشغلة بحروب طاحنة تدور رحاها بينها وبين النمسا . لذلك ونظراً لسوء سياسة سفرائها في استامبول تضاءل نفوذها ، ثم تحول هذا التضاؤل الى قطيعة حينما اتصل بالباب العالي ان فرنسا تتآمر عليه مع خصومه وتساعدهم سراً . فخف السلطان مراد الرابع الى طرد الاباء اليسوعيين من العاصمة (١٠٣٨ هـ = ١٦٢٨ م) والى اشراك البندقية مع فرنسا في حق رعاية الكنائس المسيحية في غلطه ؛ كما انه خص الرهبان اليونان بخدمة بيت المقدس بدلاً من الكاثوليك .

ولكن فرنسا ما ان تخلصت من المشاكل التي كانت واقعة بينها وبين النمسا حتى بادرت الى العمل بضراوة لاسترداد امتيازاتها ، وظلت تجد السعي في هذا السبيل ، تارة بالارهاب وطوراً بالترغيب والمصانعة ، حتى واتتها الظروف وادركت هذه الغاية .

ولكن خصماً جديداً برز ، في تلك الاثناء ، الى الميدان ، واعني به روسيا . فقد كان ساعد بطرسبرج قد اشتد ، ونشأ عندها طموح لنيل حق حماية الروم الارثوذكس في السلطنة وللحصول على حقوق فرنسا في صدد خدمة معابد فلسطين ورعايتها . ولكن روسيا لم تلجأ الى المصانعة والاسترضاء كما فعلت فرنسا ، وانما كانت تسعى ، اثر كل انتصار حربي تحرزه على تركيا ، لان تزيد في حقوقها وامتيازاتها المادية والروحية . على ان باريس كانت تعتبر الموقف الذي تقفه روسيا في مزاحمتها تحدياً لها ، فادت هذه المنافسة الى نضال مستمر كان الفوز فيه يتمرجح بين الدولتين : فتحرزه فرنسا كلما مدت للباب العالي يد المساعدة ، وتكسبه روسيا اثر كل انتصار حربي تحرزه على الامبراطورية العثمانية : فاثناء عقد معاهدة ساروفتش (١١٣٣ هـ = ١٧٢٠ م) تقرر منح بعض الامتيازات لتجار روسيا بالاضافة الى حق آخر لحجاج الاماكن المقدسة من رعيتها يخولهم الدخول الى تلك الاماكن دون اداء خراج او رسوم على جوازات السفر .

ثم في معاهدة قينارجه (١١٨٨ هـ = ١٧٧٤ م) ادركت روسيا امانيها بصورة اوسع وذلك بزيادة امتيازاتها ، وبتقرير حقها في حماية الارثوذكس من رعايا الدولة حماية فتحت لها ابواب التدخل بشؤون السلطنة . وهذه خلاصة بعض التعهدات التي وردت في تلك المعاهدة :

المادة ٧ — تتعهد دولتنا العلية بان تصون الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية ، وتمنح سفراء دولة روسيا الترخيص بان يدلوا بالارشادات المتنوعة ، لدى كل حاجة ، سواء اكان ذلك متعلقاً بالكنيسة المنوه بها في المادة ١٤ ، القائمة في محروسة القسطنطينية ، ام فيما يتعلق بالمحافظة على القائمين في خدمتها .

واذا عرض السفير الومى اليه شيئاً ما يختص بدولة موالية ومجاورة لدولتي العلية فان دولتنا تتعهد بقبول معروضاته »

المادة ٨ — تثبت هذه المادة امتيازات روسيا التي نالتها عقب معاهدة بساروفتش »

المادة ١٤ — يجوز لدولة روسيا بناء كنيسة على الطريق العام في محلة بك اوغلي غير الكنيسة الثابتة اسوة بسائر الدول » اه

ثم اتيحت الفرصة لروسيا لبسط حمايتها على المسيحيين جميعهم من رعايا السلطنة وذلك حينما اكتسح محمد علي باشا عزيز مصر سوريا ، وتقدم منها شطر القسطنطينية . وقد نصت معاهدة خونكار اسكله سي (١٢٤٩هـ=١٨٣٣م) ، التي املتها روسيا على السلطنة في تلك الظروف الحرجة ، على منح بطرسبرج هذا الحق لقاء وعدها بالمساعدة على دفع المصريين . والى هذا فقد اغتنمت روسيا فرصة تلهي فرنسا بالثورة ، ثم بالحروب النابليونية خلال ربع قرن تقريباً ، ثم اكتسبت مناسبة ضعف الملكية بفرنسا من بعد ، ونشوب ثورة ١٨٤٨ فيها لانتزاع امتيازات الكاثوليك في خدمة الاماكن المقدسة التي كانت خصتهم بها تركيا .

ولكن نابليون الثالث ما ان انتخب رئيساً للجمهورية الفرنسية الثانية حتى انصرف لاستعادة الحقوق التي انتزعها الروم ، ومن ورائهم روسيا ، من الكاثوليك . وقد أفضت مراجعاته الملحة للباب العالي الى تعيين لجنة الفت اعضاؤها من مختلف المذاهب وقررت (١٢٦٨هـ=١٨٥٢م) ، بعد اجتماعات عدة ، اعطاء الحق للكاثوليك دون الارثوذكس في رعاية وخدمة كنائس واديرة كثيرة في بيت المقدس وما حولها . وقد وقع الباب العالي ، من جراء ذلك ، في ازمة سياسية ، ذلك لان فرنسا كانت تلح عليه بوجوب تنفيذ هذه المقررات بينما ان روسيا كانت تهدد وتواعد اذا وضعت هذه المقررات موضع التنفيذ .

ثم لما جنح الباب العالي الى تنفيذ قرارات اللجنة اشهرت روسيا عليه الحرب فعلا ، الحرب المعروفة بحرب القرم . وكانت الدول قد استثقلت مطامع القياصرة في بلاد السلطنة ، وخافت المصير ان نجحوا في هذه الحرب فتألبت عليهم كل من فرنسا وانكلترا والنمسا وبيمونتي واسوج ومشوا للقتال ضدهم نجدة لتركيا ، فما وسع الروس منذ المناوشات الاولى الا طلب الصلح . ولكن الحلفاء اشترطوا على روسيا لوقف الحرب قبولها بالمواد الاربع التالية :

اولا — منع روسيا من الاستئثار بحماية النصارى من رعية الدولة العلية ، ومن بسط حمايتها على امارتي الافلاق والبغدان (رومانيا) .

ثانياً — حرية الملاحة في نهر الطونة (الدانوب) لجميع الدول على السواء .

ثالثاً — تعديل المعاهدات المختصة باجتياز (بواغيز) الاستانة ، ولا سيما معاهدة سنة ١٨٤١

رابعاً — وضع قاعدة جديدة لتوازن القوى الدولية في البحر الاسود . وقد رفضت روسيا في اول الامر هذه الشروط ، ولكنها اضطرت بعد انكسارها في الحرب التي خاضتها : حرب القرم ، للتوقيع على معاهدة باريس التي كانت اشد من ذلك عليها ، وهذه بعض شذرات من موادها .

« في المادة ٧ — الدولة العلية ان تشترك في منافع الحقوق الاوروبية المتبادلة والاتفاقات الدولية . وتعهد بحفظ استقلالها ، وبقائها غير مجزءة .

« في المادة ٩ — لا يحق للدول في اي حال التعرض ، كلها او بعضها ، لشؤون السلطان ورعاياه ، او التدخل بادارة السلطنة الداخلية .

« في المادة ٢٢ — تبقى بلاد الافلاق والبغدان متمتعة بالامتيازات والاعفاءات وذلك تحت رعاية الباب العالي ، وبالاتفاق مع الدول المتعاهدة . ولا يسوغ لاية دولة التدخل في امورها الخاصة .

« في المادة ٢٨ — تحتفظ الصرب بامتيازاتها تحت سيادة تركيا بالاتفاق مع الدول المتعاهدة . » اه

وهذه المعاهدة انقذت السلطنة من معاهدة « **خونكار اسكله سي** » كما انها وضعت حداً للتدخلات الاجنبية في بلادها . ولكن روسيا الحاقدة لم ترضخ ، بل ظلت تتحين الفرص وتعمل في الخفاء على اثارة البلقان ، حتى اذا وقعت الواقعة على فرنسا في الحرب الفرنسية الالمانية الاولى ، وعقد على اثر ذلك مؤتمر لندن ١٨٧١ استطاعت تعديل بعض مواد معاهدة باريس . بيد ان هذا التعديل لم يطفيء لهيب مطامعها الرامية الى استعادة نفوذها على السلطنة بصورة اكمل فشرعت تمهد وتعبد الطرق لبلوغ هذه الامنية . واستعانت على ذلك باثارة الهرسك والبوسنه فالبلغار ، كما اوعزت الى اميري الصرب والجبل الاسود لاشهار الحرب على السلطنة (١٨٧٦) . وبرزت وسيلة ناجحة استطاعت روسيا ان تنتزع بها عطف الدول الاوروبية على الثائرين حينما اضطرت تركيا لاستعمال القسوة في تأديبهم ، كما استطاعت بها ان تسحب الدول الى جانبها حينما رفضت تركيا الرضوخ لمقررات مؤتمر الاستانة الذي عقده سفراء الدول ، وطلبوا فيه اعطاء الثائرين مطاليبهم . وحينئذ بادرت روسيا الى اعلان الحرب على تركيا (المتمردة) وذلك سنة ١٨٧٨ ، وساعدها انتصارها على بلوغ امانيها ، ولا سيما في حماية المسيحيين الارثوذكس ومعابدهم في الاماكن المقدسة ، وذلك حين عقد معاهدة « اياسطفانوس » عقب تلك الحرب .

ولكن الدول الاخرى اصبحت تميل ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، الى المساهمة في النفوذ بالشرق ،

وتقاوم الاستئثار اذا حاولت دولة منفردة القيام به . لذلك فما تركت لروسيا الفرصة لاستثمار انتصارها كاملا ، بل ربطوها بمعاهدة برلين التي لم تجد روسيا سبيلا للتملص منها من بعد .

. . . . .

القسم الثالث _ في الحماية

وهو دور المشاركة الدولية ١٢٩٦ﻫ الى ١٣٢٦ﻫ موافق ١٨٧٨م الى ١٩٠٨م

لم تكن الدول الاوروبية راضية عن الامتيازات التي نالتها فرنسا في السلطنة خلال الدور الاول ؛ كما انها لم تكن لاهية عن الحقوق التي كسبتها روسيا بالقوة اثناء الدور الثاني ؛ بل كانت الدول لا تفتأ تراقب بحسد هذه المنح والمكاسب التي كانت فرنسا وروسيا تستأثران بها ؛ ثم هي لا تتوانى عن الجري على غرارهما لادراك نصيبها من هذه الامتيازات. وقد حاولت النمسا في المعاهدات التي عقدتها مع تركيا ، ولا سيما بمعاهدات بساروفتش وبلغراد وسيستوفا، حاولت ان تساهم في حماية رعايا السلطان ، فاشترطت ان يكون لكاثوليك الشرق الحرية في مزاولة عباداتهم ، وبسطت حمايتها على بعضهم ، نخص منهم بالذكر كاثوليك البانيا ، واقباط مصر العليا .

كما ان بريطانيا العظمى مدت يدها باسم البروتستانت ، وتحت ستـــار حماية الارساليات البروستانتية ، الى التدخل بشؤون السلطنة. وحاولت في القرن التاسع عشر ان تقوي عصبيتها الضعيفة بدروز لبنان ، وبذلت المساعي في سبيل كسبهم ، واعتبارهم اياها مرجعاً لهم[1] .

ثم ان حسد الدول الاوروبية انقلب الى خوف حينما نالت روسيا بالقوة حق حماية النصارى ، وتداخلت فعلا بشؤون الارثوذكس العثمانيين . ذلك لان عدد هؤلاء الارثوذكس كان وقتئذ ينوف على عشرة ملايين شخص ، ولان اتصال الحدود بين القياصرة والسلاطين كان من شأنه ان يجعل تركيا مهددة في كل وقت .

وهذا الخوف بالاضافة الى الخلاف على خدمة المعابد في فلسطين حمل الدول على التألب ضد روسيا فقاتلوها في حرب القرم الى جانب تركيا ، ثم عاكسوها عقب انتصارها على تركيا سنة ١٨٧٨ وعقدها معها ، على انفراد ، معاهدة أياستفانوس التي حطمت معاهدة باريس . وانتهى بهم الامر الى عقد مؤتمر برلين حيث وضعوا معاهدة ابطلت مـــعاهدة اياستفانوس ، وجعلت

١ — من مقال المؤلف في مجلة الحديث الحلبية نيسان ١٩٥٢

الامتيازات في تركيا مشاعاً بينهم .

هذا وكانت فرنسا قد شعرت ،قبيل مؤتمر برلين، بان اتجاه الافكار الدولي يرمي الى جعل الامتيازات الدولية والحقوق المكتسبة في السلطنة عامة مشـاعاً بين كل الدول الكبرى ، فاوجست خيفة على امتيازاتها الخاصة ، وعلى نفوذها القائم على اسس هذه الامتيازات . وبناء على الحاح باريس رضيت الدول بأن لا يتعرض مؤتمر برلين الى شؤون مصر وسوريا والاماكن المقدسة حيث تتمتع فرنسا بامتيازاتها الخاصة .

ولما قرر المؤتمر في المادة ٦٢ من المعاهدة حرية الاعتقادات الدينية والمساواة بينها ، وقبول شهادة العثمانيين على السواء ، ومساواة جميع الاكليروس والزوار والرهبان ، وتفويض امر حمايتهم الى قناصل الدول وممثليهم ، وحماية معاهدهم الدينية والخيرية . لما قرر المؤتمرون هذه المادة استدركوا في آخرها ، وعقبوا عليها بقولهم : « **اما الحقوق الممنوحة لفرنسا ،فلا تزال مرعية ؛ ولا يبدل شيء في الستاتيكو بالبلاد المقدسة** » .

غير ان هذه المادة فسرت من قبل الدول تفسيرات مختلفة تبعاً لاختلاف اهوائها : فبينما كانت فرنسا تعتقد ان هذه المادة تخولها حق حماية الاكليروس اللاتيني جميعه وحماية ممتلكاته سواء أكان الاكليروس افرنسياً او غير افرنسي ، كانت ايطاليا تذهب الى القول بان من حقها وحدها حماية اللاتين الايطاليان وممتلكاتهم ،بحكم ان مؤتمر برلين فوض الى كل دولة حماية رعاياها في السلطنة .

وبناء على ذلك كان السنيور كرسبي Crispi رئيس وزراء ايطاليا في ذلك الحين يرى ان لا امتياز لفرنسا في السلطنة الا في البلاد المقدسة. واقتفى اثره خلفاؤه في الرياسة بروما مثل مازيني Mazzini وغاريبالدي Garibaldi ، غير انهم لم يفلحوا لان سياستهم كانت ذات لون ماسوني مما حمل البابا لاوون الثالث عشر على استجابـة طلب سفير فرنسا لديه ، واصدار امر موجه الى كافة الاكليروس اللاتيني والكاثوليكي يأمر به رعاياه ان يستمروا تحت حماية فرنسا ، ووجوب رجوعهم اليها في مهام امورهم (١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م).

وهذا المرسوم البابوي لم يكن موجها ضد ايطاليا فحسب ، بل شمل غيرها من الدول ، لان النمسا وانكلترا كانتا تسعيان كل منها لبسط الحماية في السلطنة على الارساليات الكاثوليكية التي هي من رعاياهما . كما ان المانيا كانت تتعدى ذلك عاملة على تأييد مسعى يؤدي الى اسقاط نفوذ فرنسا في الشرقين الادنى والاوسط .

وما اشد ما ارتعدت فرائص فرنسا خيفة على نفوذها في الشرق ابان زيارة الامبراطور غليوم

الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني في آخر القرن التاسع عشر ، ذلك لان هـذا الامبراطور (البسمركي) كان يستند الى الحزب الكاثوليكي في الرشستاغ ،وكان قد وجه الكاردينال كوب الى قداسة البابا قصد اكتساب عواطفه .

حسبت فرنسا لهذه المحاولات الالمانية الف حساب فبادرت الى البابا لاوون الثالث تستنجدبه، وما خيب قداسته امانيها، بل كتب كتابا الى كردينال مدينة رمس Reims يثبت فيه امتيازات فرنسا . وهذه نبذة منه :

« لفرنسا مهمة خاصة في الشرق عهد الله بها اليها . وتلك المهمة الشريفة لم تتأكـد بالمزاولة والاستمرار فحسب ، بل تأكدت بعهود خارجية ايضاً . وذلك ما اعترف لها به مؤتمرنا التبشيري في تصريحه المؤرخ في ٢٢ ايار سنة ١٨٨٨ .

« ان الكرسي المقدس لا يريد ان يمس شيئاً من المنح الارثية التي ورثتها فرنسا جدا عن جد ؛ تلك المنح التي تستحق فرنسا ان تحافظ عليها ، خصوصاً وانها تظهر دائمـاً جدارة في مزاولتها[١] ».

غير ان اوامر قداسة البابا لاوون الثالث عشر الموجهة الى جميع الارساليات الكاثوليكية في الشرق ، على اختلاف جنسياتها ، كيما يعتبر كل منها ممثلي فرنسا مرجعه الوحيد ، ان هذه الاوامر وان كانت فوزاً باهراً لفرنسا الا انها لم تنفذ برمتها . ذلك لان الدول الاخرى ،وعلى رأسها ايطاليا والمانيا وانكلترا ، استطاعت اقناع رعاياها من الاكليروس الكاثوليكي بان لا يرضخ احد منهم لهذه الاوامر البابوية ، وان ينبذ حماية فرنسا ، ويتبع ممثل دولته فحسب .

ولا يزال هذا النزاع قائماً حتى بعد ان صارت الامبراطورية العثمانية في ذمة التاريخ .

وفي الواقع فان هذه الامبراطورية لم تصبح اثراً بعد عين الا من جراء هذه الاغلاط السياسية التي ارتكبتها دون روية في ابان عظمتها وجبروتها ، غير حاسبة اي حساب للمستقبل .

1 - René Pinon. L'Europe & l'Empire Ottomone. P. 5.8

٤

جهاز السلطنة الاداري وانظمتها

ظلت السلطنة العثمانية حتى مطلع القرن التاسع عشر محافظة على شكلها الاداري وانظمتها التي جرت عليها منذ قرون ستة سابقة ؛ فكان هذا الجمود ابان ما سجل العالم في هذه القرون من تقدم محسوس ، في كل النواحي ، من اسباب انحطاطها وزوالها.

وهذا ما سنوضحه في الدراستين التاليتين .

أ ــ جهاز السلطنة

ب ــ قوانين السلطنة وانظمتها

حتماً ان الدولة شعرت بمغبة هذا الجمود ، وعمدت مضطرة الى اقتباس اساليب الحكم الاوروبي في عهد السلطان عبد المجيد ، كما انها اختارت القوانين والانظمة المدنية ، ولكن هذا الاصلاح جاء متأخراً بعد ان كانت عوامل الجمود جعلتها بعيدة بمراحل عن مستوى العالم الاوروبي .

*

ا ــ جهاز السلطنة

كانت قبيلة «قايي خان» التي ينتسب اليها آل عثمان اصيلة في البداوة ، فلما اتيح لهذه الاسرة ان تستقل عقب انحلال سلطنة السلجوقيين في الاناضول (٦٩٩ هـ = ١٣٠٠ م) اسوة بالامارات الاخرى جرت في ادارة شؤونها ، على الطريقة البدوية او المخضرمة التي وصفها الخالدي بما يلي :

«كان قصر السلطنة في الممالك العثمانية مرتباً على الاصول والتقاليد الموروثة عن المغول حيث كانت الدولة عبارة عن خيمة كبيرة حكومتها بابها العالي[1]. واول واجب على هذه

[1] ــ في الواقع ان الباب العالي لم يكن موجوداً في عهد تأسيس السلطنة وانما هو لقب اطلقه السلطان سليمان القانوني على مجلس الوزراء

الحكومة ازال الخان المعظم على الرحب والسعة، واسكان من معه من الحريم والعائلة والاقارب والحاشية المقام الرفيع، واستكمال اسباب راحتهم وسعادتهم، واستحضار النفقات اللازمة لهم ولرؤساء (العرضي). فالعمود الاوسط القائمة عليه هذه الخيمة هو «الصدر الاعظم» القائم مقام الخان المعظم، والحامل لختمه الذاتي، والوكيل المطلق عنه في جميع مسائل الدولة الداخلية والخارجية. وبجانبه «قاضي عسكر» لفصل الدعاوي وتقسيم موارد الجند، والمحافظة على حقوق السلطنة. وشيخ الاسلام[1] انما هو قاضي عسكر وظيفته احدث عهداً. فقضاء المعسكر قديم في الدولة، ومتقدم فيها على قضاء المدن، مما يدل على حياتها العسكرية المتنقلة. ثم «النيشانجي» الذي يكتب الورادات والفرمانات وغيرها. فهؤلاء اعمدة ثانوية حوالي العمود الاعظم الذي في وسط الخيمة. واما حبال الخيمة فهم الاغوات[2] »

على ان السلطان ووزراءه كانوا بالاضافة الى اضطلاعهم بشؤون الدولة الداخلية والخارجية ينظرون في المظالم بين الناس؛ ويتولون بانفسهم القضاء. ثم انحصر نظر السلطان في مسائل الدولة المهمة، وناب عنه في القضاء وحل الخلافات وكيل يسمى «باشا قبوسي» يتولى الامور تحت اشرافه، وظل السلطان يتردد احيانا على ديوان الاحكام، حرصاً على دوام العدل.

ثم كان قيام السلطنة على انقاض الامبراطورية البيزنطية في قسطنطينية وما حولها مصدر انقلاب عظيم في تشكيلاتها: فقد اقتبس محمد الفاتح تقاليد القياصرة في التنظيم، وجرى مجراهم، هو واتباعه، في المظاهر والاساليب المرعية؛ ولكن السلاطين ظلوا مع ذلك يواصلون الاشراف بانفسهم على سير الحكم والقضاء، وعلى تنظيم الجيش وقيادته، ويحضرون الديوان الكبير، كما يقودون الجيوش اثناء الحروب.

غير ان المجد الذي ادركته السلطنة في حكم السلطان سليمان القانوني، والاتساع الذي بلغته بالاضافة الى الثروة التي تدفقت عليها القت الطمأنينة الكاملة في روع السلاطين، وحملتهم على العيش عيشة الاكاسرة والقياصرة.

ان السلطان المشار اليه الذي اهتم بوضع القوانين الجديدة والترتيبات الحديثة اصبح يراقب

---

١ — ربما اراد كاتب هذا المقال «المفتي» لان لقب شيخ الاسلام لم يكن معروفاً في صدر السلطنة. والسلطان محمود الاول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) هو الذي اسمى مفتي ايستامبول «شيخ الاسلام»

٢ — روحي الخالدي مجلة الهلال السنة ١٧ الصفحة ٧٢

من وراء حجاب جهازي الحكم والقضاء. ولكن اهتمامه هذا بسائر شؤون الدولة اصبح صوريا مذ القى، في الواقع، اعباء المملكة على عاتق الصدر الاعظم واعوانه، ومذ عهد ايضاً بقيادة الجيوش الى القادة العسكريين، مختاراً حياة القصور بين الجواري والخصيان.

وبعد فقد مرّت منذ السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر الى السلطان عبد المجيد في القرن التاسع عشر ثلاثماية سنة تبدلت فيها الارض غير الارض، وذلك من جراء استفحال التمدن الحديث، وبما نشأ فيه من تطورات وترقيات في الاساليب الادارية والعسكرية، وما رافقه من اختراعات واكتشافات. ولكن هذه الثلاثماية سنة كانت بالنسبة لآل عثمان، كطرفة عين؛ فلم يستفيدوا منها شيئاً في تنظيم اساليب الحكم والسياسة والجيش، كما انهم لم يكسبوا خلالها شيئاً من عناصر الثقافة والعمران.

ولا يسع المقام ان نتناول الخلل والجمود وسوء الاستعمال التي كانت تسيطر على كل ناحية من نواحي السلطنة، وعلى كل ادارة من اداراتها، ولكنا لا نجتاز هذا البحث دون الاشارة الى واحدة منها تعتبر ميزان كل دولة، واعني بها الادارة المالية. فلقد تعرض أوسون Ohsson الى تنظيم السلطنة المالي، والى جمودها فيه، وقال: « **ان السلطان محمد الفاتح وضع ادارة المالية وجعلها ثمانية عشر قسما، وزاد عليها حفيده ياوز سليم؛ ثم سليمان القانوني فاحمد الثاني اقساماً اخرى حتى اصبح عددها ٢٥ قسما، ولكل قسم مكتب خاص.** »

ثم مرت الاجيال على هذا التدبير المالي، ودخل القرن التاسع عشر وادارة المالية لا تزال على حالها من حيث الشكل؛ ولكنها ازدادت في الخلل فاصبحت على شيء كثير من الفوضى لا ضابط لحساباتها ولا قيود لارقامها. وكما يقول شارل سينوبوس « صارت اوراق حساباتها تجمع في الاكياس دون ترتيب ولا تنظيم[١]. » هذا فضلا عن انه لم يعد يوجد من يحسن ادارة المالية خصوصاً مذ امسى معظم موظفيها من الانكشارية المتغلبين على الوظائف[٢].

والى هذا فان السلطنة كانت تجهل ميزان دخلها وخرجها لانها لم تكن قد احصت نفوس رعيتها، ولا « مسحت » اراضي مملكتها ولا جمعت مواردها ونفقاتها؛ ولذلك فكثيراً ما كانت اوامر اولياء الامر تصدر الى الخزينة وتأمر بالانفاق دون ان يعلم هؤلاء شيئاً عن قدرتها.

وكيف تستطيع دولة هذا حالها ان تحيا طويلا بين دول تنافست، طيلة اجيال، في كسب

---

١ — سينوبوس. تاريخ التمدن الحديث صفحة ٢٠٨

2 - A du Velay. Essai sur l'histoire financière de la Turquie P.38 - 43

العلوم والفنون وفي ممارسة التنظيم ، دول اخذت تتسابق في الاستعدادات الحربية حتى ملأت الارض جيوشاً مجربة مجهزة ، وغطت البحار بالبواخر الحربية ؟

لقد قضي على آل عثمان بالفناء منذ ان جمدوا خلال استعدادات اخصامهم ؛ ولكنهم استمروا مع ذلك على قيد الحياة مدة طويلة ، وكان الفضل في ذلك « للتوازن الدولي » الذي كان لا يفتأ يشتت كلمة هؤلاء الخصوم .

*

ب — قوانين السلطنة وانظمتها

تختلف الحاجة الى القوانين والنظم باختلاف احوال الناس ودرجاتهم في سلم المدنية : ذلك لان الامة تحتاج اثناء حضارتها ، وعلى قدر هذه الحضارة ، الى روابط وقيود مدنية لا تعرفها في بداية عهدها بالتمدن . فاذا لزمت الجمود ، ولم تتمش مع العصر التقدمي ، واذا لم تحور وتعدل في نظمها المدنية تحويراً وتعديلا يتناسبان مع حالها الاجتماعي ومع روح العصر صارت تلك القيود قيوداً تكبلها واثقالا تهوي بها .

وهذا ما اصاب السلطنة العثمانية ؛ فقد اقتبست عن الدول الاسلامية ، التي سبقتها ، قوانينها وانظمتها ، فكانت هذه القوانين بما فيها من انصاف وعدل ورحمة من اسباب رقيها اثناء الفتح ، كما وضحنا ذلك في الكتاب الاول من هذا السفر . ثم اتى على ذلك حين من الدهر تطورت فيه الاحوال العالمية وانظمتها ، ولا سيما الانظمة المالية والعسكرية والجمركية وقانون الحقوق المدنية ، ولكن السلطنة ظلت حتى القرن التاسع عشر لا تعير اقل اهتمام لهذا الموضوع رغم الحاجة الماسة لزيادة ريع الخزينة ، ورغم تجدد الاساليب العسكرية . وربما كان مرد ذلك ، في بعض الاحيان ، الى مراعاتها ميول الشعب المحافظ الذي كان لجهله يعتبر كل تغيير او تبديل متنافياً مع الشرع الاسلامي .

هذا وكانت الضرائب المقررة عند الدولة حتى القرن التاسع عشر هي التي وضعها الاسلام ، وجرت عليها الدول الاسلامية : العشر وضريبة الاملاك والجزية على اهل الذمة ، يضاف اليها المكوس . ثم طرأت عليها زيادات استندت الى مراسيم وقوانين تبعاً لحاجات السلطنة للمال . ولكن المساوئ لم تكن في الواقع تقتصر على جمود الدولة في ناحية وضع القوانين والانظمة المتفقة

مع الزمن ، ولم تكن نتيجة لنسبة (الرسوم) المقررة ، وانما كانت لشيوع الفوضى في تحصيل الاموال وابتزازها والتفنن في المصادرات ، فضلا عن تجاوز القوانين . وهـذا ما حدا باللجنة الدولية التي عهد اليها النظر في مشروع الباب العالي لاصلاح مكدونيا ، اواخر القرن التاسع عشر ، لان تدرج في تقريرها العبارة التالية : « **الانظمة الحسنة لم تنقص الدولة العثمانية في يوم من الايام ، ولكن النقص كان في تطبيق تلك الانظمة .** »

على ان هناك نقصاً لا مبرر له في التشريع العثماني الجمركي : فقد كانت تركيا تتقاضى رسماً جمركياً متماثلا عن السلع حين دخولها الى المدينة ام حين خروجها منها . وكان هذا الرسم يتفاوت ، ويراعى فيه دين المكلف ووطنه . فالمسلم يؤدي اثنين ونصف في المائة ، بينما يؤدي الذمي خمسة في المائة ، والاجنبي عشرة في المائة . وكان مفروضاً على اصحاب هذه البضائع ان يؤدوا مثل هذا الرسم عنها في كل عام اذا بقيت في حوزتهم .

وظل الحال على هذا المنوال الى سنة ١٨٣٨ حيث عقدت معاهدة بين تركيا وفرنسا تعدلت فيها تلك الرسوم . وهي ان دلت على شيء فانما تدل على قصر نظر الباب العالي الى حد بعيد . ذلك انه رضي ان تفرض على صادرات بلاده رسوماً جمركية اكثر من ضعفي الرسوم المفروضة على السلع الاجنبية الواردة اليها . فقد تقرر بين الدولتين المتعاقدتين ان تحدد مكوس الصادرات من البلاد العثمانية بـ ١٢ في المئة ، يدفع ٩ منها حين وصول السلع للمرفأ ، و ٣ ابان شحنها للخارج ، بينما تحددت رسوم الواردات اليها ٥ في المئة فقط تدفع ٣٪ منها حين دخول السلع للجمرك و ٢ عند اخراجها منه .

وكأن الباب العالي ، قد انتبه بعد فوات الوقت ، الى الاجحاف الكبير الذي يصيب الرعية : زراعاً وتجاراً وصناعاً ، من جراء اثقال كواهلها بالمكوس الجمركية حتى لا تستطيع ان تثابر على التصدير . كأنه قد انتبه الى هذا الغلط الذي ارتكبه فعمل على تعديل هذه المعاهدة بينه وبين فرنسا بعد سنين قليلة من ابرامها . وقد تسنى له بلوغ هذه الامنية في ٢٩ نيسان ١٨٦١ وذلك على الوجه التالي : انقصت الرسوم التي قررت على الصادرات من ١٢٪ الى ٨ بينما زيدت المكوس على الواردات من ٥ الى ٨ ، فاصبحت الرسوم الجمركية عن الصادرات والواردات ٨ في المئة على السواء . وقد طبقت بنود هذه المعاهدة المعدلة على سائر الدول الاوروبية .

والواقع ان الاجحاف على الرعية لم يزل قائماً رغم هذا التعديل ؛ لان من واجب الدولة ان تشجع الصادرات باعفائها من الرسوم ، وتحمي منتوجات بلادها بزيادة المكوس على الوارد

اليها من البلاد الغربية ؛ وهو امر لم يلبث الباب العالي ان اهتمّ به ، وشرع يعمل على تحقيقه ؛ ثم ما زال يكتسب الفرص لاخذ موافقة الدول على تعديله تدريجياً حتى استطاع اسقاط الرسم الجمركي في سنة ١٩٠٧ عن الصادرات الى واحد في المئة بينما رفع رسم الوردات الى ١١ في المئة.

فهذه الغفلة في العقود المتبادلة بين تركيا والدول الاخرى بالاضافة الى فوضى الجباية وسوء الاستعمال ، والى جمود السلطنة في انظمتها المالية وغيرها ، كانت في عداد العوامل الفعالة لاختلال احوالها ومن اسباب سقوطها.

٥

اتصال الحروب واهمال الاستعداد

ربما لا توجد دولة بين الدول الغابرة او بين الدول الحاضرة التهمتها نيران الحروب الدامية مثل سلطنة آل عثمان .

وقد ُتعذر الدولة اذا هوجمت ، ولكنها لا ُتعذر اذا وضعت نفسها عرضة للهجوم . او اذا كان مصدر اشعالها الحروب يرجع الى العواطف العاصفة ، او الى تحريض الاغيار دون ان يكون لها مصلحة فيها .

فالسلطنة العثمانية التي ابتعدت عن مقر عصبيتها في اواسط آسيا حباً بالفتح — باسم الدين — عرضت نفسها لان تكون هدف هجوم اوروبي متواصل باسم الدين . هذا فضلا عن انها كثيراً ما اشتبكت بحروب خاسرة نتيجة لانصياعها الى بعض الدول التي طالما تخلت عنها اثناء المعركة .

وهذا ما ننتقده على عواهل آل عثمان ورجال دولتهم . لقد استساغت تركيا الحروب في بداية الامر ، لانها كانت مقرونة بالظفر والفتح . ولا بدع فالناس ، في مثل هذه الظروف ، تخضع للعواطف حباً بالكسب والفخر . ولكن النتيجة كانت ان جعلت نفسها ، بعد السلطان سليمان القانوني ، عرضة لحروب اخرى جبرية . وهي اما لدفع هجوم ، واما مجاراة لرغبات الانكشارية ، واما لاشغال هؤلاء عن ثوراتهم الداخلية التي كانوا كثيراً ما يثيرونها ، ابان السلم ، ارضاء لشهواتهم الدموية .

على ان اشد ما تلام عليه السلطنة هي تلك الحروب التي اعلنتها عند مسيس حاجتها للسلام وذلك انتصاراً للمستنجدين بها وباغرائهم ، او بتأثير نساء القصر اللواتي كنّ احياناً يتحركن بايد خفية لا يعرفن شيئاً عنها . وقد اوردنا مثالاً على ذلك في فصل « نفوذ الحرم ومضاره » ، وبيّنا كيف استطاع ملك اسوج اثناء السلطنة في حرب ضروس ضد روسيا بواسطة غادة يهودية . ومن الامثلة على ذلك ايضاً تلك الحرب التي اشتبكت بها تركيا مع النمسا وبولونيا وروسيا

والبندقية استجابة لرجاء المجر . وكان انكسارها في تلك الحرب مجبرا لها على توقيع معاهدة كارلوفتز المشؤومة : تلك المعاهدة التي رسمت لها خطوط التدهور السريع . هذا الى ان كثيراً من المعاهدات المخزية التي وقعتها تركيا، من بعد، مع روسيا كانت نتيجة لدخولها الحروب اما نجدة لاسوج او لبولونيا ، او اصغاء لغوايات فرنسا. على حين ان دولة باريس لم تتورع ، في مناسبات عدة ، عن التخلي عنها . ولنسمع ما رواه لافاليه الافرنسي في هذا الصدد. قال :« **ان تركيا كثيراً ما كانت تبدي شكاويها من فرنسا من جراء تخليها عنها ابان حروب كانت تنساق اليها اجابة لطلب باريس . من ذلك تخلي لويس الرابع عشر عنها ومفاوضته خصومها وعقده معاهدة ريسويك ١٦٩٨ . هذا فضلاً عن انسحاب لويس الخامس عشر من حروب بولونيا تاركاً اعباء الحروب واثقالها على عاتق السلطنة وحدها .**

الواقع انه لا يوجد احط مبدأ من ذلك الذي ارتكبه نابليون عندما تخلى عن تركيا التي دفعها الى الحرب ، وعقد مع روسيا معاهدة تيلسيت .

ولكن التاريخ لم يدون ، ما دونه في هذه المناسبة ، من عقاب سريع جاء جزاء وفاقا لهذه السياسة المخزية ، ذلك لان هذا التخلي عن الاتراك كان من الاسباب التي ساقت هذا الرجل الكبير الى جزيرة القديسة هيلانة[1] »

هذا وكأن السلطنة اخذت تستفيد من العبر، او كأنها شعرت ، منذ ذلك ، بان انكشاريتها لم تعد على شيء من الكفاءة لمقابلة جنود اوروبا المنظمة ، فشرعت تجنح للسلم ، ولكنها صارت تحاول عبثاً لان ضعفها اصبح مغرياً للخصوم الطامعين بها فتساق الى الحروب سوقاً . وان اتيح لها نصيب من السلم نسي رجالها الحروب ، واهملوا الاستعدادات واصلاح الخلل ، وراحوا يجرون وراء شهواتهم .

وهل ننسى الصدر الاعظم ابراهيم باشا في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠) ؟ عقد الصلح مع النمسا على شروط شديدة الاجحاف بدولته ؛ وكان يبرر موقفه هذا بأنه ينوي تنظيم الجيش واعداد المعدات لاخذ الثأر. ولكن ما ان كان يتمتع بالسلام حتى ينسى الحروب؛ ويهمل الاستعداد . فلنصغ الى المؤرخ جودت باشا يحدثنا عنه قال : « بعد ان وقع ابراهيم باشا على الصلح ترك امر الحروب البتة حتى ضربت على سيوف الغزاة الحداد حجب النسيان ؛ ومنع على الناس التحدث بأمر الحرب ؛ وهبطت اثمان جواهر السيوف ، واستبدلت معامل النقوش

---

1 - LaVallée Histoire de la Turquie T. II P. - 294

والقصوص المزخرفة بمعامل السلاح، وصارت ميادين تدريب الجنود وتعليمهم مسارح لطلاب البسط والانشراح، وانصرف الناس في عهده الى الخلاعة ومعاطاة الصهباء[1].»

وكانت عين روسيا تراقب هذه الاحوال التي منيت بها تركيا، فاذا بها لا ترضى بمعاهدة «بروث» على ما فيها من الخذي بعدوتها والعار، بل تبادر الى طلب تعديلها بالتهديد والوعيد. وكان لها ما شاءت لان الباب العالي حرصاً منه على ان لا يعكر صفـــاء جوه المليء بالشهوات اجابها الى رغبتها طائعاً مختاراً، وعقد معاهدة جديدة خسر بها البحر الاسود. وكان هذا البحر بحيرة لآل عثمان لا شريك لهم فيها، يحرصون عليها، كما قال بعض المؤرخين الافرنج، حرصهم على محرمهم.

وجنت تركيا مغبة الاستهتار، ليس من جراء طغيان روسيا من بعد، وتعديها المتواصل عليها، وعلى حليفتها بولونيا فحسب، بل بسبب انكسارها ايضـــاً في الحرب التي اضطرت لاشهارها على الروس سنة ١٧٦٨. ذلك ان الجيش العثماني لم يستطع منذ الجولة الاولى الصمود في وجه الاعداء لان المدفعية والتحصينات والتدريب العسكري كانت كلها، كما قال لافاليه، بحكم المفقودة. هذا فضلا عن جهل الوزراء مبادئ فنون الحرب الاولية. ويقول المؤلف المشار اليه في التعليق على ذلك ما يلي: «**بذلت فرنسا جهودها لتنوير السلطنة، وقد رفع مندوبها توت Tott ايضاحات لجة السلطان عززها برسوم المواقع الحربية. وكان السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) في غفــلة عن كل ذلك فاستيقظ مندهشاً، ونصب مندوب فرنسا المشار اليه مشرفاً على المدفعية بسائر اقسامها. وكم كان دهشة توت عظيمة حينما دخل دور الصناعة الحربية (الترسانة) في استامبول؟ فان القاء نظرة واحدة عليها كان كافيا ليعرف هذا القائد سوء المصير، او بكلمة اخرى، فقــد كان يكاد يقرأ على معادن تلك الاسلحة مقدرات تلك الدولة[2]**.»

وينهي لافاليه حديثه هذا بقوله: «ان فرنســا ما نصحت الاتراك وقتئذ من اجل صلح قينارجي (١٧٧٤) الا لتنقذهم من خراب محقق، ولتترك لهم الوقت الكافي للاستعداد والثأر من اعدائهم الروس. ولكن الديوان لم يلبث بعد الصلح ان عاد لغفلته واستهتاره؛ ولم يقم بأي تدبير لحماية التخوم، ولتشكيل جيش[3] يعتمد عليه في المستقبل، فشرع يقع على التوالي في

---

١ — جودت باشا صفحة ٦٩

2 - La Vallée . histoire de la Turquie T. II P. 211

3 - Lavallée , Histoire de la Turquie T. II. P. 228

حروب كانت كل واحدة منها اشأم حظاً من التي سبقتها .

حقاً ان تركيا استيقظت ، من بعد ، من سباتها العميق ، وحاول بعض سلاطينها ، وعلى رأسهم سليم الثالث (١٧٨٩=١٨٠٧) تدارك الامر باصلاح الجيش وتنظيمه على الفنون والاساليب الحديثة ، ولكن الجيش نفسه ، وفي طليعته الانكشارية ، أمسى عدواً لكل اصلاح وتنظيم ، فقتلوا سليما ، وكادوا يلحقون به محموداً الثاني (١٨٠٩—١٨٣٩) من اجل انهما عمدا الى تنظيم الجيش على الاصول الحديثة . حقاً ان محمود المشار إليه وفق بالفتك بطائفة الانكشارية التي كانت اكبر خصوم التجنيد الحديث . ولكن برزت للميدان في ايامه عوامل خارجية قتلت برنامجه الاصلاحي في المهد . ذلك ان روسيا لم تمهله ريثما يتمم مشروعه العسكري ، بل سرعان ما اشهرت الحرب عليه ؛ كما ان فرنسا اغرت والي مصر به ، فحمل محمد علي باشا حملته المعروفة على متبوعه حتى كاد يبلغ قسطنطينية .

ومنيت تركيا ، بعد ذلك ، بالافلاس في عهدي عبد المجيد (١٨٣٩—١٨٦١) وعبدالعزيز (١٨٦١—١٨٧٦) فما استطاعت ان تنهض بجيشها النهضة المطلوبة . ثم لما صار العرش للسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦—١٩٠٩) ، وكان حريصاً على تنظيم الجند واعداد المعدات له دفعاً لمطامع الاجانب ، ابتلي بالخوف من شعبه ، ولا سيما من جيشه ، فذهبت امانيه هباء منثوراً .

اجل ان عبد الحميد لم يبخل على الجيش ، ولم يهمل تدريبه ، وتجهيزه ، ولكن أنى للجنود ان تتدرب وتتعلم وكانت تحظر عليها المناورات والمراس ؟ وانى للمعدات ان تبقى صالحة ، او ان يوثق بجودتها ، وهي رهن صناديق مقفلة ، ولا يسمح للقادة والفنانين العسكريين بتجربتها ؟

ان صفقات المعدات الحربية التي كانت تعقد في العهد الحميدي ، ووجود الاخصائيين الالمان على رأس الجيش كان من شأنها ايهام الناس بانها قد امدتا للسلطنة جيشاً قويا مدربا . والواقع ان البنادق والمدافع والذخائر التي كانت تبتاع لمنفعة التاجر الالماني فقط كانت تبقى في مستودعات الاسلحة بصناديقها ؛ بل كثيراً ما كانت تهمل وتترك في مستودعات المرفأ كل ذلك لان خوف السلطان التقليدي من ثورة داخلية قد تنشب ضده كان يتعارض مع فكرة تسليح اجناده[1] .

وبعد فنحن لا ننكر ان الحروب المتصلة التي منيت بها تركيا قبل «خط تنظيمات» الاصلاحي الذي اعلنه السلطان عبد المجيد ، كانت ذات اثر شديد في تقصير تركيا في الناحية العسكرية ، كما ان الثورات الداخلية التي توالت ، من بعد ، في بلادها ، بتشويق الدول الاجنبية ، ولا سيما في البلقان ، اضاعت عليها كثيراً من فرص الاصلاح المنشود .

ولكن كل هذه العلل لم تؤثر في الواقع على مصيرها مثل تأثير اولئك الذين تحكموا في مقدراتها ، واهملوا الاستعدادات الحربية ، خوفاً او طمعاً ، وانصرفوا الى شهواتهم .

---

1 - V. Bérard . La mort de Stamboul . P. 219 — 220

الجزء الثالث

القوى الحربية

لا ريب في ان كثيراً من التبعات في ناحيـــة انحطاط السلطنة وزوالها تقع على السلاطين ووزرائهم لان هؤلاء هم بمثابة دماغها المفكر الموجه ؛ ولكن القوى التنفذية الحربية ، واعني بها جند الدولة ، هي مسؤوله ايضاً عن هذا الانحطاط والاضمحلال نظراً لان جيش الدولة هو ساعدها اثناء الملمات ؛ ولان بعض طوائف هذا الجيش كانت هي الهدامة في صرح السلطنة .

وفي هذا الجزء سنستعرض المضار التي منيت بها السلطنة من قبل قواها الحربية ، سواء اكانت برية ام بحرية ؛ ونخص منها بالذكر طائفة الانكشارية التي كان لها ثلث الاثر في الكوارث التي اصابت الدولة اثناء عهد الانحطاط ، كما كان لها ثلثا الفضل في الانتصارات العثمانية ابان الفتح .

وانا نستهل الكلام ، بالمامة عن تاريخ الجند في السلطنة اتماماً للفائدة .

١

الجيش

تطور الجندية وتنظيماتها

كان ارطغرل بن سليمان شاه ، والد السلطان عثمان مؤسس اطبراطورية آل عثمان ، اميراً على قبيلة تركية اسمها « قايي خان » . وكان رجالها كلهم اجناداً ، تعاونهم النساء في الكر والفر ، اسوة بالقبائـــل

البدوية وعوائدها .

ولما استقل السلطان عثمان مؤسس الدولة (٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م) ظل قومه يتبعونه كالظل في غزواته طمعاً بالاجر والاجرة[1] ؛ ولكنه ، مع ذلك ، وضع نواة للجندية بانشاء فرقة من الخيالة اسماها « **أقنجي** » كان افرادها ينصرفون ، متى انتهت الحرب ، الى بيوتهم على انتظار دعوة اخرى .

غير ان الامير علاء الدين اخ السلطان اورخان الاول (١٣٢٦—١٣٦٠م) وساعده الايمن في ادارة السلطنه كان اول من الف جيشاً من المتطوعة باجور معينة واسماه البيادة (اي المشاة) وجعله كتائب : عشرات ومئات على ترتيب الجند العباسي[2]. ولما شعر الامير بتحزب كل فئة من هذا الجيش للقبيلة التي ينتسب اليها فكر بتنظيم جند آخر لا خوف من تحزبه لعشيرته على ان لا يكون غريباً البتة عن الرعية على قدر بعد المماليك عن اهل مصر ، اولئك الذين لم تكن تجمع بينهم وبين المصريين اية جامعة . وقد استحسن الامير اقتراحاً أبداه خليل جندرلي ، احد قادة الجيش ، مآله تجنيد ابناء الاسرى النصارى مع الفتيان الذين لا اوليـاء لهم وتربيتهم على الاساليب الاسلامية والعسكرية حتى اذا شبوا اجناداً لا يعرفون غير السلطان ولياً ، وسوى الاسلام ديناً .

فلما اجتمع لدى السلطان أورخان عدد منهم سار بهم الى الحاج بكطاش في قصبة اماسيا ، وهو شيخ طريقة البكطاشية ؛ ورغب اليه ان يباركهم ، ويدعو لهم ، فرفع الشيخ يده ، والقى كمّ جبته على رأس احدهم ، وقال : « **وليكن اسمهم يكي تشاري ، (اي الجيش الجديد) وليبق وجههم مشرقاً ، وساعدهم قوياً ، وسيفهم قاطعاً ، ورمحهم نافذاً ، وليعودوا دائماً محفوفين بالنصر** » وتذكاراً لهذه المناسبة علق الامير علاء الدين على اللبادة المستطيلة البيضاء التي عمّم بها رؤوس هذه الكتيبة قطعة قماش ارادها ان تكون رمزاً لطرف كمّ الشيخ اثناء مباركته اياهم . والى هذه القطعة يرجع مصدر (الشرابة) في الطرابيش .

ولما كانت طائفة الانكشارية نشأت في احضان السلطـان ، وهم لا يعرفون سواه اباً ، اخلصوا في حبهم له ، وتفانيهم في سبيله . وظلت كتيبتا البيادة (المشاة) والاقنجي (الخيالة) موجودتين بعد انشاء الجيش الانكشاري . وكانت تلقى على عواتق البيادة المحافظة على البلاد

---

١ – يوزباشي محمد شكري اسفار بحرية عثمانية المجلد الاول صفحة ١٣٢

٢ – مجلة الهلال الجزء ١٧ الصفحة ٥٧ ؛

المفتوحة ، وتأمين المواصلات فيها على ان يكون لهم حق استثمار مزارعهم[١] .

وعززت فرقة الاقنجي (الخيالة) بفصيل اخر من هذا النوع اسمي **« مسلمان »** كانت مهمته ، كمهمة البيادة ، المحافظة على التخوم لقـــاء استثمار الاراضي هناك دون بدل . وكان مقر هذا الفصيـــــل في الروملي ، بينما كان مقر فصيـــــل آخر من هذا النوع في الاناطول واسمه « **يايا** »

ثم حصل تحوير كبير في التنظيم العسكري خلال حكم السلطان مراد الاول (١٣٦٠—١٣٨٨) . ولما كانت خدمات الخيالة مسلمان ويايا لا تتعدى اللواء الذي يحتلونه انشأ السلطان طائفة اخرى من الفرسان ، ثم أعدها لتكون على اهبة السير للحرب واسماها « **السباهي** » . وقد اقطعها الاقطاعات ، ولا سيما على تخوم الدول المجاورة . وكانت هذه الطائفة تقسم الى اربع فرق : بلوك سباه ، وبلوك سلحدار ، وعلوفه جي ، وعزبا .

هذا واما الاقطاعات العسكرية فكانت تقسم ، بحسب اتساعها ، الى ثلاث درجات . ادناها التيمار ، فالزعامت ، فالبكلك . واثناء الحرب كان صاحب التيمار يمشي تحت قيادة صـــاحب (الزعامت) ، وصاحب (الزعامت) يزحف تحت راية البيك . كما كان البكوات يأتمرون بأمر باشا الايالة .

وكان اصحاب الاقطاعات هؤلاء يتقاضون عن الاراضي والعقارات العشر والرسوم المقررة لقاء محافظتهم على الامن وحمايتهم المنطقة .

وفي عهد السلطان يلديرم بايزيد (١٣٨٨—١٤٠٣) وضعت اصول التعليم العسكري ، ودربت عليها العساكر من المشاة والفرسان ، كما اضيفت كتائب اخرى بصفة مختلفة[٢] .

ولما صار الملك للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦) احتفظ بهذا التنظيم ، ولكنه حور بعض انظمة الفرق ، وزاد عددها .

*

اضمحلال نظام الاقطاع العسكري

كان نظام الاقطاع ، الذي وضعه السلطان مراد الاول ، يقضي بأن يولي امير الأمراء ، اي حاكم الأيالة ، على الاقطاع من يرى فيه الكفاءة مكان المتولي السابق ، وتصـــدر الارادة (الشاهانية) في التولية

1 - La Vallée. Histoire de la Turquie T. I P 189 — 190

٢ — تاريخ جودت جزء الاول الصفحة ٤٠ - ٤٢

استناداً الى اقتراح امير الامراء المشار اليه . غير ان السلطان سليمان القانوني نزع هذا الحق من حكام الايالات ، وعهد به الى الصدر الاعظم ؛ ولكنه ترك الى البكلربك (امير الامراء) حق تولية من يشاء على المراكز الصغيرة فقط . وبذلك الغى السلطان طريقة اللامركزية في الادارة ، والقى زمام السلطنة ، حتى في الشؤون العسكرية ، بين ايدي الصدور العظام .

وكان منصب الصدارة لا يدركه الا رجالات الدولة المعروفون بكفاآتهم واخلاقهم ، الذين نشأوا في الوظائف وترقوا فيها تدريجياً : من امارة السنجق الى امارة الامراء (بكلربك) الى امارة امراء الروملي . غير ان السلطان سليمان انحرف عن هذه القاعدة ، ووجه مقام الصدارة العظمى مباشرة الى ابراهيم آغا الذي كان يشغل منصب **«خاص اوطه باشي»** اي رئيس ديوانه . ثم ولى الصدارة صهره رستم باشا ، ونصب على امارة الامراء خسرو باشا ، وكان موكولاً اليه ، من قبل ، ان يذوق طعام السلطان قبل ان يقدم الى جلالته .

وكان هؤلاء الاخصاء ، الذين القى السلطان مقاليد السلطنة بين ايديهم ، لا يتمتعون ، كاسلافهم ، بالاخلاص والاقتدار .

اضف الى ذلك ان السلطان اختار التحجب عن رعيته ، واهمل قيادة الجيش في الحروب ، فشرع هؤلاء الاخصاء ، الذين خلا لهم الجو ، يتصرفون بمقتضى منافعهم واهوائهم . هذا الى ان السلطان وهب اراضي فسيحة في البلاد التي فتحها الى صهره رستم باشا المشار اليه ، وهي من حق الغزاة المحاربين بمقتضى التقاليد العثمانية المقررة ؛ فشرع هذا الصدر يوقفها على من يشاء ، وحسبما يشاء . كما ان البكلربك خسرو باشا المنوه به كان يمنح مناصب التيمارات (الاقطاعات العسكرية) الى الذين يؤدون اليه الرشوة اكثر من سواهم .

وما كان اسرع رواج هذه البدع السيئة المخزية بعد السلطان سليمان ، وما كان اشد تفاقمها! اجل وما ان صار الملك للسلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٦) حتى استفحلت مفاسد الدخلاء ، وتجلت علائم انحطاط الدولة[١] . وقد وُلي على الصدارة في عهده عربي ينتهي بنسبه الى العباسيين ، وهو عثمان باشا ابن اوزدمور باشا الذي جاء من تبريز . ومن المؤسف ان التاريخ سجل لهذا العربي بدعة بيع البلوكات والتيمارات ، فتسرب اشخاص اجانب عن الجندية الى وجاقات الفرسان والزعامات والتيمارات .

---

١ — المؤلف . اوليات سلاطين تركيا صفحة ٢٣

على ان عثمان باشا ، وان عرف عنه بانه كان لا يختار إلا الاكفاء حين بيع هذه المناصب العسكرية لاشخاص اجانب عنها ، الا ان الذين خلفوه في الصدارة تجاوزوا هذا الحد ، وراحوا يولون على التيمار والزعامت خدمهم وذويهم ، بينما كان اصحاب الاستحقاقات الذين منوا بالحرمان ، لا يجدون مرجعاً يشكون اليه امرهم .

هذا الى ان حاشية السلطان مراد المشار اليه استغلوا هذه الغفلة فاغتصبوا بعض القرى والمزارع ، ووقفوا بعضها على ذويهم دون اصحاب الاقطاعات العسكريين ؛ فتوزعت بين كتابهم وبين اغوات كل من امراء السناجق وامراء الامراء والوزراء ، بل صار بعضها الى الندماء والمهرجين وحتى الى الاقزام .

اضف الى ذلك انه كان من مغبة هذه المركزية التي حصرت حق التعيين والوظائف العسكرية بواحد ام اثنين في العاصمة ، رواج سوق الرشوة الى حد ان فرمان الولاية على اقطاع واحد كان كثيراً ما يمنح لأكثر من وال واحد .

وبدهي ان يضمحل الجيش بسبب هذه المفاسد ، ليس من حيث عدده فحسب ، بل بمعنوياته . يضمحل حتى صار لا يلبي الدعوة الى الحرب في كثير من الاوقات . وذلك لانه صار يحسب الف حساب لاولئك المتنفذين الذين سرعان ما كانوا يدعون بحقوق لهم في الاقطاعات ، ويستولون على المحاصيل والانتاجات ، بينما يكون اصحاب الاقطاعات المحاربون يفدون ارواحهم في سبيل الدفاع عن الوطن[١] .

*

اضمحلال طائفة الانكشارية

... وضع مؤسسو الانكشارية نظاماً دقيقاً لهم : هو قاس على المذنبين ورؤوف بالمخلصين ، يحظر عليهم الزواج مدة الخدمة ، ويؤمن مستقبلهم ومستقبل اولاد الذين يتزوجون منهم بعد ادراك سن (التقاعد) . وقد نص هذا القانون على ايوائهم بثكنات خاصة يربون فيها التربية الصالحة ، ويتمرنون على الاعمال العسكرية ، وعلى الرياضة البدنية .

---

٢ — تاريخ جودت باشا الجزء الاول صفحة ١٠٣ — ١١٣

وبفضل المحافظة على هذه المراسيم نشأ الانكشارية في صدر الدولة نشأة جند لا مثيل له يجمع بين الشجاعة والدربة، وبين الطاعة والتقوى، حتى كان يقال بمناسبة طاعتهم « **ان اربعين جنديا منهم كانوا يقادون بشعرة** » وحتى كان الفرس يتساءلون، بمناسبة تقواهم، اذا كان بين جنود السلطنة المحاربين اولئك الذين يكثرون الركوع والسجود.

وكان السلاطين الاوائل يحرصون، على ان لا يتسرب الى الانكشارية غير ابناء الاسرى والاقطاء. ويروى عن السلطان ياوز سليم (١٥١٢—١٥٢٠)، فاتح بلاد الشام ومصر، انه احتاج للمال اثناء حملته هذه، فاقترض دفتر داره ستين الف ريال من احد التجار الموسرين؛ ثم لما توفر لديه المال استحضر التاجر لاعادة نقده اليه. فقال هذا: « **اني غني بفضل الله، وبودي التخلي عن هذا القرض للخزينة السلطانية. والذي ارجوه لقاء ذلك قبول ابني في سلك الانكشارية** » فكبر الامر على السلطان وانتهر الدفتردار الذي نقل هذا التمني الى جلالته، وقال له. « وتربة اجدادي لولا خوفي من ان يقول الناس ان السلطان سليما، فاتح الحرمين الشريفين، قتل تاجراً طمعاً بماله لأمرت بتتلك وقتله بهذا السيف. اعد النقود الى صاحبها حالاً، ولا تعد مرة اخرى الى مثل هذه الجسارة. ذلك لان كل من يجرأ على ادخال غريب الى وجاق الانكشارية فجزاؤه القتل. »

لذلك فان عدد الانكشارية ظل قليلا، ولم يكن يتجاوز الالف في بداية الامر، ثم ازداد من بعد بالفتيان الذين كانوا يجمعونهم من انحاء المملكة وبالاسرى، ولا سيما مذ صار للسلطان خمس الغنائم، وفي جملتها الاسرى والسبايا. فكان السلاطين يتخذون من هؤلاء الاسرى، الذين دخلوا في نصيبهم، خدماً في قصورهم، وما زاد يضيفونه الى الغلمـــان الاعاجم لينتظموا في الوجاقات. وبحسب احصاء سنة ٩٣٠هـ=١٥٢٣م، اي في بداية عهد السلطان سليمان القانوني، بلغ عددهم ١٢٠٠٠ جندي.

وكان السلطان سليمان القانوني كاسلافه في الحرص على سلامة وجاق الانكشارية من الدخلاء، كما كان اشد من اسلافه اهتماماً بهم، حتى انه رفع رواتبهم، وقربهم اليه، واناط بهم حراسة العاصمة. فضلاً عن انه وزعهم على المدن الكبرى والمعاقل، وانتدب منهم. (قواصي) السفراء[1] ولكن السلطان اساء ايضاً في هذه الناحية من حيث لا يقصد: ذلك لان نقل فريق منهم

---

١ — جودت باشا الجزء الاول الصفحة ١١٩

الى العاصمة افضى بالتالي الى تدخل رؤسائهم بالسياسة ؛ فامتدت ايديهم الى المناصب العليا ، كما ان دخول افواج من الناس ، فيما بعد ، في هذا السلك دون مراعاة شروط الانتساب اليه الى الفوضى بين صفوفه .

وقد بسط « لافاليه » الاضرار التي نجمت عن هذه الاوضاع فقال : « **اصبح عددهم غير كاف للقيام بالخدم المترتبة عليهم ، فاضطرت الحكومة الى فتح الباب للشبان من أي فئة ودين كانوا . هذا فضلاً عن انها قلبت اوضاع نظامهم ايضاً حيناً سمحت لهم بالتزوج ، وبقبول ابنائهم في صفوفهم ، وحيناً اجازت لهم مزاولة مهنهم الخاصة .**

« **ولما صاروا اباء عائلات وباعة وصناعاً لم يعودوا يقيمون في الحصون والثكنات بقدر ما يقيمون خارجها ، فاضاعوا من ثم ، مزايا اسلافهم العسكرية ، ولا سيما الطاعة . ثم تمتعوا بالنفوذ ، وصار الناس يتهافتون عليهم طالبين حمايتهم او وساطتهم فانقلبوا الى حرس وطني بعد ان كانوا جنداً للدولة متأهباً لرفع رايتها والدفاع عنها**[1] »

والواقع ان كلمة « حرس وطني » لم تعد تنطبق عليهم ؛ بل اصبحوا مذ تدخلوا بالسياسة ؛ مصدر شقاق دائم بينهم وبين الوزراء وسبب دمار السلطنة . وحسبنا الاشارة هنا الى تلك الهزيمة التي اصيب بها الجيش التركي ، في مطلع عهد السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ — ١٧٠٣) ، اثناء الحرب ضد النمسا للتدليل على مغبات تدخلهم في السياسة العليا . لقد قلنا ان فساد الوجاق الانكشاري يرجع الى السلطان سليمان القانوني ، ولكن هذا الفساد لم يستفحل في الواقع الا في سلطنة مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٦) ذلك ان السلطان اقام ، بمناسبة ختان ولده محمد ، مهرجاناً عظيماً في العاصمة تقاطر اليه الناس من اطراف المملكة ؛ ونظراً لكثرة الزحام هلك كثيرون من الوافدين الى الاستانة فضلا عن سكانها . فاراد السلطان ان يكافأ طائفة من الشباب اظهرت قسطاً كبيراً من الشجاعة واللباقة في انقاذ الناس من الازدحام فاصدر ارادته السنية بقبول طلبهم وهو الدخول في السلك الانكشاري . وقد اصر السلطان على ذلك رغم اعتراض فرهاد آغا رئيس هذا السلك الذي انكر هذه البدعة لمخالفتها القوانين المرعية ، واستقال . ولما خلفه يوسف آغا أمر بقبول انتساب هؤلاء الشباب في السلك تحت اسم « اغا جراغي » فبلغ من جراء ذلك عدد الانكشارية ١٣٦٠٠ بينما لم يكن يتجاوز من قبل ٩٨٦ . وظل هذا العدد يزداد تباعاً حتى ادرك

---

1 - la Vallée. Histoire de la Turquie T.I. P.358

١٤٠٠٠٠ في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٩—١٨٣٩)[1]

وربما كان هذا العدد اسمياً لان كثيرين من اتباع الوزراء والمتنفذين كانت تحشر اسماؤهم في سجلات هذا الوجاق لقبض المرتبات فحسب ، على حين اذا نادى منادي الحرب فلا يلبي منهم الا القليلون .

ومع ذلك فان هؤلاء القليلين صاروا معاول هدامة في كيان السلطنة ؛ فاذا زحفوا للحرب اشبعوا البلاد نهباً وسلباً ، ثم متى سمعوا طلقات المدافع كانوا يفرون حاملين معهم ذخائر الجيش ومعداته . وقد وصفهم احد الباشوات بقوله : «**هم نساء شيخات لا يزلن يتكلمن دون انقطاع عن جمالهن ، في حين انهن لم يعدن يصلحن لاي شيء .**»

*

مفاسد الانكشارية

العلل التي اودت بالدولة ومحتها من معالم الكون كثيرة ، واشدها وبالاً كانت تصرفات الانكشارية الاستبدادية .

حتماً ان هذه التصرفات استفحل امرها بعد ان تسرب الى هذه الطائفة الفساد ، وانخرط بسلكها الاشرار دون قيد ؛ ولكن عهدها الاول قبل السلطان سليمان القانوني لم يخل ، مع ذلك ، من بواكير الاعمال الشاذة . فقد كان اول اضراب للانكشارية يذكر في التاريخ ، يرجع الى حين وفاة السلطان محمد الاول (٨٢٤ هـ = ١٤٢١م) في غليبولي . ان وزراءه والقادة شاؤوا اخفاء النبأ ريثما يبايعون ولده مراداً الثاني ؛ ولكن ما ان شاع بين الانكشارية هذا النبأ حتى تألبوا ورفضوا الذهاب الى بروسه ، عاصمة الدولة وقتئذ ؛ ثم لم يمتثلوا الاوامر حتى احتال عليهم رجال الحكم واوهموهم بان السلطان لا يزال على قيد الحياة اذ اقاموا جثته وراء نافذة في القصر ، وجعلوا يده تتحرك اثناء مرور صفوفهم امامه حركة التحية .

ثم لما تخلى السلطان مراد الثاني لابنه محمد الثاني عن الملك (٨٤٨ هـ = ١٤٤٤م) وسار الى مغنيسيا للاستجمام ، استصغر الانكشارية عاهلهم الجديد ، فثاروا في ادرنه : عاصمة السلطنة

---

١ — مجلة الهلال الجزء ١٧ الصفحة ٤٥٨—٤٦٢

الجديدة ونهبوها، وما سكنت ثائرتهم حتى عاد مراد الى عرشه، واشغلهم بحرب اليونان ١٤٤٥م.

ولكن ما ان وافاه الاجل وعاد ولده محمد (الفاتح) الى العرش، حتى عادوا كرة اخرى للتمرد، فأضربوا واستمروا على اضرابهم الى ان اجبروه على زيادة رواتبهم. ونظراً لما صار لهم بعدئذ من الباع الطويل في تأمين فتوحاته الواسعة، ازدادوا الحافاً عليه في المطاليب.

اما تدخلهم الفعلي بشؤون الدولة السياسية فقد بدأ اثر وفاة هذا السلطان في سكوتاري، حيث رأى الصدر الاعظم محمد باشا قرماني اخفاء خبر وفاته، ونقل جثته بقارب مغلق الى قسطنطينية العاصمة مذيعاً بان القصد من ذلك هو المحافظة على جلالته من البرد بعد خروجه من الحمام. ولكن الانكشارية سرعان ما علموا الحقيقة. فثاروا وقتلوا الصدر؛ وتقدموا من السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) بمطاليب ما وسعه الا قبولها. وكانت هذه المطالب تتعدى العفو عن ثورتهم. ذلك انهم فضلا عن قتلهم الصدر الاعظم، اشترطوا على جلالته ابعاد صفيه مصطفى باشا، واسناد منصب الصدارة العظمى الى عامل العاصمة اسحاق بك. فكان هذا بدء تدخلهم بشؤون السلطنة العليا. كما ان العطايا التي طالبوا بها بمناسبة تبوئه العرش ونالوها، صارت فريضة على خلفائه لا يستطيعون العدول عنها. وقد واتتهم الظروف فازدادوا غطرسة وكبرياء. ذلك انه كان للسلطان اخ اسمه الامير جم تمرد عليه وخف الى منازعته على الملك، فاضطر السلطان لان يتملقهم ثم ما زال يداريهم حتى استهانوا باوامره واخذوا يساومونه عند كل فرصة. من ذلك انه لما انتصر بايزيد على اخيه، الامير جم، الذي فر الى اوروبا، اقبل الانكشارية على مدينة بروسة التي كانت تؤيده، وهموا بنهبها والفتك باهلها، وما صدعوا لامر السلطان وارتدوا عنها الا بعد ان ادى لهم فدية عن كل شخص الف اقجاية!

وشجعهم هذا التسامح من قبل جلالته على استضعافه، واملاء اراداتهم عليه: فلما ثار ولده سليم، وهرب الى القرم، اثر انكساره في واقعة تشورلو، اجبروا السلطان والده على ان يستدعيه اليه، وينصبه عاملا على سمندريا.

وكان سليم شرساً بطاشاً، قوي الارادة، ولذلك لقب بياوز (القاطع) حين صار اليه الملك (٩١٨ هـ = ١٥١٢ م). ولكنه كان مديناً للانكشارية بحياته اثناء سلطنة ابيه، ومديناً لهم بالعرش ايضاً، هذا فضلاً عن الانتصارات الواسعة التي احرزها بمساعدتهم لذلك. فما وسعه، رغم حزمه، الا ان يغمرهم بالعطايا في المناسبات، ويربطهم مباشرة بشخصه[1].

---

١ — المؤلف. اوليات سلاطين تركيا. صفحة ١٨

غير ان هذا العطف الذي حباهم به جلالته قوّى في نفوسهم روح التمرد حتى انه لما امرهم بعد دخول تبريز فاتحاً (٩٢٠ هـ = ١٥١٤م) بمواصلة الزحف وراء الشاه طهماسب رفضوا الامتثال لاوامره والتقدم الى ما بعد نهر الرس بحجة البرد القارس وقلة المؤن. ولا بدع «**فان انت اكرمت اللئيم تمردا**». يضاف الى ذلك انهم صاروا يحرصون على استمرار الحروب حباً بالنهب والسلب: ثلاث سنين فقط اتت على عام ١٥٢٢ دون اشتباك بحرب جديدة وذلك في مطلع حكم سليمان القانوني، فشق عليهم الامر. وكالنار التي تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله خفوا الى قصور الوزراء فنهبوها، والى مستودعات الجمارك فسلبوها؛ ثم انصرفوا الى حي اليهود فعاثوا فيه، واستباحوا امواله؛ ولولا ان تدارك الأمر السلطان ووزع عليهم مائة الف دوكا (قطعة ذهب) لاستفحل شرهم واستشرى. على ان السلطان سليمان وان اقتص بعدمن بعض ضباطهم تأديباً لهم الا انه اضطر، في سبيل اشغالهم عن الفتن، ان يشهر الحرب تباعاً على فارس وعلى المجر. ورغم اوامره الصارمة بشأن المحافظة على سلامة مدينة بودابست، التي فتحها، وعلى سلامة جنود النمسا حين انسحابهم منها، وذلك وفقاً للاتفاق بين الفريقين، فان الانكشارية انقضوا على المدينة انقضاض الذئاب، مثلما انقضوا على الجند الذين منحهم الامان، واشبعوهما سلباً وتقتيلا.

هذا وقد ارغموا، فيما بعد، السلطان سليماً الثاني (٩٧٤ هـ = ١٥٦٦م) على اداء العطايا قبل الصعود الى العرش: سبقوه الى العاصمة، وصمدوا في وجهه امام ابوابها قائلين علانية: «**ان واجب امراء آل عثمان ان يمروا تحت سيوف الجند قبل ان يتسنموا العرش**» فاضطر السلطان ان يرضخ لمشيئتهم، وان يوزع عليهم، وعلى اكابر المملكة الاموال العزيزة حتى فرغت الخزينة.

ثم بلغ من استهتارهم بالسلاطين انهم خفوا الى نوافذ ثكناتهم حينما علموا بان موكب السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٦) سيمر امامها، ورفعوا كؤوس الخمر وشربوا نخبه؛ فأصدر السلطان اوامره بمعاقبة الذين يتعاطون المسكرات. ولكن الاجناد: الانكشارية والسباه، قابلوا هذه الاوامر بالاضراب والاعتصاب، واهانوا الصدر الاعظم، وكادوا يثورون لولا ان صدرت الاوامر ثانية بالترخيص لهم بتناول القليل من الخمر!

ثم لما ساروا الى حرب فارس سنة ١٥٨٢ جعلوا تلك الحملات اداة استثمار لانفسهم ذلك انهم فضلاً عن تمردهم على القادة، اتفقوا مع اشقياء جيورجيا في ارمينيا والقفقاس على النهب والسلب، وتقاسم الاسلاب. وما ان بلغهم ان السلطنة على وشك عقد الصلح مع فارس حتى ثاروا في العاصمة، وقتلوا كلاً من الدفتردار (وزير المال) وبكلر بك الروملي (قائد الجيش)

وذلك بحجة انها ارادا اعطاءهم دراهم ناقصة. ثم لما طال عليهم زمن السلم ثاروا مرات اخرى في العاصمة، وفي بودابست، والقاهرة، وتبريز وغيرها، مما جعل سنان باشا الصدر الاعظم، يضطر لاشغالهم بحروب طاحنة ضد المجر رغم يقينه بفقدان الاستعداد الحربي عند الدولة ورغم الحاجة الماسة للراحة.

واستعلت ايديهم في عهدي محمد الثالث (١٥٩٥—١٦٠٣) واحمد الاول (١٦٠٣—١٦١٧)، حتى تاقت نفوسهم لاستبدال السلاطين طمعاً بتجدد العطايا. ثم لم يمض على السلطان مصطفى الاول غير ثلاثة اشهر حتى خلعوه (١٠٢٦ هـ = ١٦١٨) طمعاً بمكافأة السلطان الجديد عثمان الثاني. ثم اعادوه الى العرش حينما علموا بان السلطان عثمان المشار اليه نقم عليهم بسبب ضغطهم على السلطنة لوقف القتال مع بولونيا، وساقوه الى قلعة «يدي قوله» حيث قتلوه شنقاً. وكانت هذه الجرأة على السلاطين نقطة انطلاق جديدة للانكشارية شطر التمادي في طغيانهم والتحكم بالسلطتين المدنية والعسكرية. ولكن هذه الجرأة التي بلغت حد اعدام السلطان قوبلت باستياء عام بين الناس وبين سائر الاجناد، وانكرها فريق من طائفتهم، خصوصاً لما مدوا ايديهم الى الخزنة، وشرعوا يبددون اموالها جزافاً في سبيل تخفيف وطأة هذه الجريمة. ولكنهم لم يحفلوا باحد، بل استرسلوا في طغيانهم، ولما وجدوا في كمانكش علي باشا مؤيداً لهم رفعوه الى مقام الصدارة. وقد اشار عليهم هذا بخلع السلطان مصطفى الاول، ومبايعة مراد الرابع، الذي كان حديث السن، كيلا يكون فوق يدهم يد اخرى.

ولقد صح فألهم. فمضت عشر سنين على سلطنة مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) كانوا خلالها اصحاب القول الفصل، فطغوا وبغوا، وواصلوا الثورات، وطالبوا بقتل بعض رجالات الدولة. وكان السلطان الفتى لا يرى مندوحة من تحقيق رغباتهم؛ ولما انتهز الشاه عباس هذه الفرص لتوسيع رقعة بلاده، وتقدم حتى استعاد بغداد اظهروا مللهم من الحرب، واجبروا الصدر على التراجع بهم الى ديار بكر.

وبلغ من وقاحتهم انهم رجعوا الى العاصمة حينما علموا بان السلطان اعاد الى الصدارة حافظ باشا وعزل عنها خسرو باشا المتمتع بعواطفهم، وطالبوه بان يرجع خسرو باشا الى منصبه. ولما لم يستجب لهم قتلوا الصدر حافظ باشا وتجاسروا على اقتحام قصر الخليفة والفتك ببعض خدامه وحرسه الامناء. وكان السلطان قد بلغ اشده، فصرخ بهم، وامر طواشيه ان يقتلوا رجب باشا، وان يلقوا بجثته امامهم. ومنذ هذه اللحظة استعاد مراد هيبته، وبسط سلطته. بل استعاد، الى مدة من الزمن، هيبة السلطنة في الخارج، ولا سيما مذ تولى قيادة الجيش بنفسه.

وعني السلطان باصلاح شؤون الجيش على وجه عام : فابعد بعض زعماء الانكشارية والافراد المشبوهين ، واعاد للتيمارات انتظامها ، كما انه كف ايدي السباه التي امتدت الى الشؤون الادارية. ولكن الانكشارية لم يلبثوا ان عادوا الى سيرتهم الاولى لما انتهى الملك الى خلفه السلطان ابراهيم (١٦٤٠—١٦٤٨م) ، وطغوا حتى كانوا يوجهون علناً انتقاداتهم للسلطان. وما ان علموا بانه ينوي الفتك ببعض زعمائهم حتى اعلنوا خلعه ، ثم قتلوه خنقاً . وظلوا يرتعون في بحبوحة العز.

اجل تمتع الانكشارية بالنفوذ المبرم في بداية حكم السلطان محمد الرابع (١٦٤٨—١٦٨٧) ثم في عهد خلفه. وخلال ذلك وابان النقمة الشديدة عليهم التي استحكمت في نفوس طبقات الناس : شعباً وحكومة وجنداً ، برز الى الميدان آل كوبرلي العظام المعروفون باخلاصهم. وقد بادر احدهم محمد باشا، منذ تولى الصدارة العظمى ، الى تأديب الانكشارية عقب تمرد حدث منهم ، وامر بالقاء جثث قتلاهم في البحر ، وقيل ان عددها بلغ اربعة الاف جثة .

فبهذه الشدة التي عاملهم بها على التوالي كل من محمد باشا ، وولده احمد باشا وقره مصطفى باشا ارتاح الناس ، فترة من الزمن ، من طغيانهم .

غير ان السلطنة منيت ، في ذلك الوقت ، بانكسار فظيع حول اسوار فيينـــا فانتهز الانكشارية الفرصة وكرّوا على العاصمة فخلعوا السلطان ؛ ونصبوا مكانه سليمان الثاني (١٦٨٧— ١٦٩١) الذي كافأهم بالتجاوز عن سيآتهم وبتوزيع العطايا عليهم. هذا فضلا عن نصبه اثنين من زعمائهم احدهما على ولاية الروملي ، والثاني على جده ؛ فاستردوا بذلك نفوذهم .

وكانت السلطنة تعاني الشدائد من جراء الحرب القائمة بينها وبين الدول المتألبة عليها: النمسا وبولونيا والبندقية . وابان ما كانت ترجو الفرج من الانكشارية كان هؤلاء سبب خسرانها المعركة وفشلها. ذلك لانهم بالاتفاق مع السباه قد ثاروا مع اغواتهم ، ومثلوا بهم شر تمثيل ؛ ثم هاجموا قصر الصدر الاعظم سياوش باشا ، حيث مزقوا جسمه افظع تمزيق ، وقطعوا انفي امرأته واخته وايديهما وارجلهما؛ ثم جروهما عاريتين الى الشارع ، وانطلقوا بعد ذلك الى اسواق العاصمة يفتكون باهلها ، وينهبون.

وفي هذه المرة ايضاً عاد الفضل في انقاذ السلطنة من الدمار السريع الى اسرة كوبرلي. فما ان عهد السلطان بمنصب الصدارة الى احدهم مصطفى باشا حتى كسب عواطف الجند والرعية ، واحرز الانتصارات المجيدة في ساحة الحرب . ومن سوء حظ السلطنة ان الله لم يمد في أجل هذا الرجل العظيم ، بل سرعان ما استشهد في حرب النمسا ، وتشتت ، فيما بعد ، اجناده . ولولا ان السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥—١٧٠٣) لم يبادر الى قيادة الجيش بنفسه لما وقفت جيوش روسيا

والنمسا وبولونيا والبندقية عند حد .

على ان هذه الاندحارات المتوالية التي منيت بها جيوش الدولة كانت حافزاً لهذا السلطان ورجاله للتفكير باصلاح الشؤون الداخلية . ولكن ما الحيلة وهؤلاء الانكشارية قد وقفوا في وجوههم عقبة كأداء ؟ ولما لم يجد الصدر كوبولي حسين باشا وسيلة للاصلاح فضل الاستقالة . واما السلطان فقد شاء ان يصمد لهم ولم يرض ان يستجيب طلبهم اقالة محمد باشا ؛ بل ساق قوة من الجند لتأديبهم . ولكن جلالته خسر بهذا عرشه لان القوة التي ساقها انضمت الى الانكشارية ، وخلعوه ، وقتلوا المفتي فيض الله افندي. ثم حملوا السلطان الجديد احمد الثالث(١٧٠٣ــ١٧٣٠) على اسناد مقام الصدارة الى نيشانجي احمد باشا .

على ان السلطان المشار اليه لم يلبث الا قليلا حتى حاول ايقافهم عند حدهم ، فبادر الى عزل هذا الصدر ، وعاقب بعض رؤسائهم . وفرض عليهم هيبته مدة من الزمن . ولكن هؤلاء الاجناد ظلوا يتربصون به الدوائر حتى اذا برزت الفرصة خفوا الى استرداد نفوذهم : فقد اتخذوا من رغبة الدولة في مسالة فارس حينما اغارت هذه عليها وسيلة للثورة ، وطلبوا قتل الصدر والمفتي (شيخ الاسلام وقتئذ) وقبودان باشا (امير البحر) فاضطر السلطان ، خيفة على نفسه منهم ، ان يسلم اليهم الصدر والقبودان. فقتلوهما شر قتلة ، والقوا جثتيهما في البحر ؛ ثم لم يكتفوا بل استرسلوا في طغيانهم فخلعوا السلطان نفسه ، ونادوا بمحمود الاول خلفاً له (١٧٣٠ــ١٧٥٤) ، وبذلك اصبحت السلطة الحقيقية بقبضة زعيمهم بطرونا خليل . فأخذ هذا ينصب من يشاء ويعزل من يشاء دون قيد ولا رقيب . وظلت السلطة كذلك بيدهم في حكم السلاطين عثمان الثالث ومصطفى الثالث وعبد الحميد الاول اثناء ما كانت السلطنة في حروب متصلة تارة مع الفرس وطوراً مع روسيا والنمسا اللتين تآمرتا عليها ، وقررتا اقتسامها بينهما. ولولا الثورة الافرنسية ، وما رافقها وتلاها من الاحداث السياسية التي صرفت هاتين الدولتين وسائر الدول عن تركيا ، وجعلت اوروبا مغمورة بمشاكلها الخاصة ، لما سلمت السلطنة من هذه المؤامرة ، ولما اتيح للسلطان سليم الثالث (١٨٧٩ــ١٨٠٧) ان يعتمد صلحاً شريفاً .

وبعد فقد شاء السلطان سليم ان يكتسب هذه الظروف الدولية . وينهض بمملكته وذلك بالاصلاحات المدنية ولا سيما في الناحية العسكرية ؛ فكان مصيره القتل . ونصب الانكشارية مكانه مصطفى الرابع صنيعتهم وموضع ثقة الرجعيين خصوم التجدد . ثم ارادوا ان يمثلوا نفس الدور بالسلطان

محمود الثاني (١٨٠٨—١٨٣٩) لولا انه اصبح الوحيد من سلالة آل عثمان ، فتراجعوا عنه اذ برز اليهم بشجاعة . ثم شاء هذا المصلح ان يحمل اعباء مهمة السلطان سليم الثالث في صدد الاصلاحات فما تراجع عنها ، بل ظل يدبر الايقاع بهم حتى ابادهم عن بكرة ابيهم . وبذلك اتيح له ان يأتي بما لم تستطعه الاوائل . حقاً انه انقذ السلطنة من شرورهم . ولكن **«الترياق لم يأت من العراق الا بعد ان اشرف المريض على الهلاك»**

٢

الاسطول

نواة الاسطول

لم يكن الترك يألفون ركوب البحار شأن الامم البدوية. ولكنهم ما ان نزلوا عند سيف البحر الاسود ومرمرة، وما ان ذهبت بهم المطامع الى اجتياز البواغيز في الجانب الاوروبي حتى استهانوا بالصعاب، وزالت من انفسهم تلك الوحشة. وسرعان ما ساق السلطان عثمان الاول (١٣٠٠–١٣٢٦م) نفراً من قومه الى جزيرة «**قالوليمني**» المجاورة على قوارب صغيرة ففتحوها، وهاجموا جزيرة اخرى اسمها «**كيوس**»: ثم اتخذ من هذه القوارب حامية للشواطيء كان على رأسها قره مرسل.

ولما همّ بفتح غليبولي أسرى بكره الامير سليمان الى الجانب الاوروبي عبر مضيق مرمرة مع بعض الاجناد حيث استقلوا سفن البيزنطيين وعادوا بها اليه، وشحنها بالمقاتلين الذين فاجأوا العدو، واجلوه عن تلك المنطقة. وشرع الامير سليمان، من بعد، بانشاء سفن اخرى كانت نواة الاسطول العثماني.

غير ان واضع اسس الاسطول في المعنى الصحيح هو السلطان مراد الاول (١٣٦٠–١٣٨٨م)، الذي باشر فتح بلاد «**روم ايلي**» في البلقان ونقل العاصمة الى ادرنه باوروبا. وهو عدا تنظيمه الجند البحري اقام دور الصناعة (الترسخانة) في كليبولي وازمير وكمليك [١]، مصدراً امره الى البكلر بك لاله شاهين بالاهتمام سريعاً بانشاء عدد كبير من السفن [٢] كما انه اتخذ من تنظيمات الانكشارية اساساً للتشكيلات البحرية، وعمر في غليبولي ثكنة للبحارة [٣].

---

١ – المؤلف. اوليات سلاطين تركيا صفحة ٧ و٨

٢ – يوزباشي محمد شكري. اسفار بحرية عثمانية المجلد الاول صفحة ٢٣٦–٢٥٠

٣ – اسفار بحرية عثمانية المجلد الاول صفحة ١٣٦

وفي عهد بايزيد الاول (١٣٨٨—١٤٠٣م) تعزز الاسطول بما التحق به من قرصان الترك وغيرهم. فوسع جلالته مرفأ غليبولي حتى صار يتسع لنحو سبعين مركباً. غير ان وقوع السلطان اسيراً في قبضة تيمورلنك وما خلف ذلك من انقسام الاسرة المالكة قضيا على هذا الاسطول القضاء المبرم!

ولما استتب الامر لابن السلطان المشار اليه محمد (١٤١٣—١٤٢١) سعى هذا لتجديد العمارة البحرية مستعيناً على ذلك بالاروام والايطاليان والاسبان. ولكن اسطوله الصغير كان قصير العمر ايضاً لاحتراق ثلثيه في القتال الذي وقع بينه وبين عمارة البندقية على مقربة من جزيرة غليبولي.

ولما صار الملك لمراد الثاني (١٤٢١—١٤٥١) بذل عناية فائقة للتعويض على ما خسره الاسطول. ولكن كان ذلك على نطاق ضيق.

*

السيادة على البحر الاسود

والواقع ان السلطان محمد الفاتح (١٤٥١—١٤٨١) هو الذي انشأ قوة بحرية تذكر للدولة لان مطامعه التي انصرفت لفتح عاصمة بيزنطة حملته على التأهب لتحقيق هذه الامنية فانشأ عدداً كبيراً من السفن، بلغ على رواية المؤرخين اليونانيين ٤٢٠ سفينة[1].

ثم ما ان احتل قسطنطينية واتخذها عاصمة للسلطنة حتى امتدت مطامعه الى البحرين الاسود والابيض. وكان الجنويون يعتبرون البحر الاسود منطقة نفوذ لهم، كما كان البندقيون يعتبرون البحر الابيض ملكاً لهم. ولكل منهما اسطول كبير.

وادراكاً لهذه الغاية انصرف السلطان لتعزيز القوى البحرية تعزيزاً عظيما حتى اذا اعتمد عليها وجهها الى البحر الاسود فاحتل جزيرة امارة أماصرة التابعة لجمهورية جنوا، كما احتل سينوب: قاعدة امارة قسطموني، فطرابزون التي كان يحكمها احد الامراء البيزنطيين؛ ثم اتبع بها بقية الثغور التي كانت تابعة لجنوا في البحر الاسود فاصبح هذا البحر بحيرة لتركيا، ولا سيما بعد ان امتدت فتوحات خلفائه الى كل مكان وطوقته تطويقاً.

---

١ — يوزباشي محمد شكري. اسفار بحرية عثمانية الجزء الاول الصفحة ٢٦٥

السيادة على البحرين الابيض والاحمر

واتجه السلطان الفاتح الى البحر الابيض ايضاً غير متهيب جمهورية البندقية ، التي كانت اعظم دولة بحرية وتجارية ، فاستولى على جزيرة « نجر بونت » التي كانت مركزاً استراتيجياً لها في الارخبيل ، واتبعها بجزر اليونان في جانبه الغربي ، وبمرفأ « اوترانت » في جنوبي ايطاليا وغيرها[١] .

غير ان ابنه السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ — ١٥١٢ م) الذي غلب عليه حب السلام ، واستهوته خيرات الملك ، حرم القوى البحرية والبرية ، على السواء ، من العناية ؛ كما ان السلطان ياوز سليم (١٥١٢ — ١٥٢٠) نأى بجانبه عن الاسطول نظراً لانصرافه الى الفتح براً في آسيا.

وما ان صار الملك الى سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٧٦) حتى خف لاستكمال ما بدأ به مراد الثاني ، وما حققه محمد الفاتح في صعيد انشاء اسطول جدير بان يشق الطريق عنوة بين اساطيل الدول الكبرى ، ويتقدمها .

استهل عمله بفتح جزيرة رودس ، ونصب خير الدين باربروس ، القرصان المخيف ، اميراً على البحر الابيض .

وقد ارتعدت فرائص اوروبا من غزوات الاسطول العثماني المتواصلة وانتصاراته ؛ وهال البندقية ، بصورة خاصة ، امر افتتاحه خمساً وعشرين جزيرة لها واستمراره على مهاجمة سواحلها؛ فالتجأت الى البابا بطرس الثالث ، فما خيبها ؛ بل دعا قداسته الى حرب صليبية ، لبته اليها البرتغال واسبانيا ومالطة . وقد كمنت الاساطيل المتحدة مع عمارة البندقية في جزيرة «قورفو».

وكانت العمارة التركية تمخر في البحر الادرياتيكي قاصدة فتح « برْوزه » ولا يتجاوز عددها ١٢٢ سفينة ؛ ولكن مهارة خيرالدين اميرها ، رجّحت كفتها على الاساطيل المتحدة ، رغم ان لواءها كان معقوداً لامير البحر الجنوي الشهير اندريا دوريا ، ورغم ان عددها كان ضعافاً مضاعفة . وهذا الانتصار العظيم الذي احرزته السلطنة قرر ، من بعد ، سيادتها المطلقة على البحر الابيض ؛ ولولا ان الشتاء ادرك خير الدين باشا بأنوائه لظل يتعقب اندريا دوريا، وافتتح ما تبقى من الجزر في هذا البحر[٢] .

---

١ — محمد فريد . تاريخ الدولة العثمانية العلية صفحة ٦٦ .

٢ — اليوزباشي محمدشكري . اسفار بحرية عثمانية . ج١ ص٤٠٣-٤١٦

وفي تلك الاثناء كان الاسطول البرتغالي يعتبر البحر الهندي منطقة نفوذ له بالاضافة الى خليج فارس والبحر الاحمر . وكان البرتغاليون يرتكبون الفظائع في تلك الاصقاع ، فاستجار محمود ملك كجرات في الهند بالسلطان سليمان فما خيبه ، بل بادر الى توجيه اوامره الى امير امراء مصر سليمان باشا كي يضع حداً لتعديات البرتغال . وقد توفقت تلك الحملة بالاستيلاء على عدن ، وبسط سلطة آل عثمان على البحر الاحمر كافة . ولكن انصراف السلطان سليمان وخلفائه الى اوروبا التي تألبت عليهم صرفهم ، بعد ذلك ، عن البحر الهندي وما يليه .

على ان الانتصارات الباهرة التي كان يحرزها واحدة بعد واحدة الاسطول التركي في البحر الابيض مكنته من الاستيلاء على طرابلس الغرب ، واسترداد وهران في الجزائر وبنى زرت في تونس ، كما جرأته على غزو ميورقه احدى الجزر الاسبانية وغيرها . فاهتزت اوروبا ، من جراء ذلك ، ايما اهتزاز ، ووقع الرعب في قلوب فرسان القديس حنا اصحاب مالطة .

وقد خف هؤلاء الى اوروبا المتحمسة مستنجدين ، وطفقوا ينذرونها بشر المصير ويدعونها الى المبادرة لمداركة الخطر قبل فوات الوقت ، وكان يؤيدهم في هذه الدعوة قداسة البابا ، فاستجابت لهم اوروبا .

وعلمت تركيا ، من سفينة اسبانية وقعت في اسرها بالارخبيل ، ان اساطيل الدول المتحدة ستستهل عملها بالاستيلاء على طرابلس الغرب . فلم يمهلها بياله بك امير البحر العثماني ، بل خف الى لقائها ، وادركها على مقربة من جزيرة جربا بين تونس وطرابلس الغرب . وكان فوزه عليها ذلك الفوز المبين مؤكداً ومؤيداً سيادة آل عثمان على البحر الابيض المتوسط . وقد خلا لهذا الامير الجو ففتح جزيرة ساقز عام (٩٧٣هـ=١٥٧٥م) . هذا ويمكن اعتبار هذا التاريخ بداية عهد انكماش آل عثمان عن البحار ، وضياع سيادتهم عليها[1] .

*

خسران آل عثمان السيادة على البحار واضمحلال اسطولهم

لم تطل مدة سيادة آل عثمان على البحار : ففي عهد السلطان سليمان القانوني عقدت لهم فعلا راية هذه السيادة ، وفي عهده ايضاً نشأت العلل التي افضت الى سقوط هذه الراية . فقد كان جلالته يختار في صدر ايامه لامارة البحر الرجال المجربين . امثال خير الدين بربارُس ، ومحمد باشا صوقللي ، وسنان باشا ،

١ — محمد شكري . اسفار بحرية عثمانية ج ١ ص ٤٦١—٤٩١

ويعتمد على امثال طورغورجه رئيس احد القرصان المشهورين . ولكنه لما استطاب التحجب ، وترك مقاليد السلطنة الى اتباعه وذويه جرى هؤلاء على اهوائهم في اسناد المناصب الى المقربين . فنصبوا ، بعد وفاة سنان باشا، بياله بك، وهو رئيس حجاب الحرم السلطاني، اميراً على البحر وقائداً للاسطول .

وكان بياله بك لا يعرف شيئاً عن الحرب ، ولا يلم بامور البحار ؛ ولكنه امتثالا لامر السلطان اتكل على طورغورجه رئيس (طورغود) القرصان الشهير حتى كان لا يبرم امراً الا برأيه . ولذلك فلم يظهر اي تقصير في رئاسة الاسطول .

وكان بياله بك ذكياً مقداماً فاستفـــاد كثيراً من خبرة طورغورجه رئيس . وقد ظلت كفاءته بادية للعيان حتى بعد ان استشهد طورغورجه المشار اليه اثناء حصار فينا . غير ان الضرر قد حصل من حيث المبدأ: ذلك ان السلطان سليما الثاني جرى مجرى ابيه في صدد اختيار خلف لبياله بك على امارة البحر من سلك لا يمت بصلة للملاحة واهلها : فقد كافأ بياله بك برفعه الى مرتبة الباشوية والوزارة ، ونصب مكانه علي آغا من الوجاق الانكشاري ، فقضى بذلك ليس على سيادة السلطنة البحرية فحسب ، بل على الاسطول نفسه .

لقد كان السلطان كثير التشوق لفتح قبرص، ويرجع طمعه بها الى ايام ولايته على مغنيسا، او على رواية بعض المؤرخين الافرنج الى ما اشتهرت به هذه الجزيرة من الخمور المعتقة ! فوجه السلطان اسطوله لفتح هذه الجزيرة، وقد رافقه التوفيق في احتلالها واحتلال دولسينيو وانتيفاري، وفي غزو اكريد وسهريكو وظانطا وكفلونيا ونفاران . وكان من تأثير هذه الانتصارات ان خفت البندقية ، كرة اخرى ، الى الاستعانة بالفاتيكان . وانضمت اليها اسبانيا ورهبنة مالطة ، وتعاقدوا على الاثار من الترك مهما كلف الامر .

وكان الاسطول التركي قد رسى في اينا بختي Lepant باليونان بعد غزواته الموفقة ، وذهب اكثر جنوده الى اهليهم زائرين بمناسبة موسم الشتاء . فاذا باساطيل الحلفاء المتحدة تفاجئه على غير انتظار ، فتأسر اكثره، وتحرق ما تبقى منه حتى اصبح اثراً بعد عين(٩٧٩هـ=١٥٧١م) .

انها لخسارة كبرى المت بآل عثمان ليس لضياع عمارتهم فحسب ، بل لانها افقدتهم ، من ثم، سيادتهم على البحار . وكان الذنب ذنب اولئك الذين اختاروا انكشارياً لامارة البحر ، وهو غريب عن فن الملاحة وحروبها ، ذلك الانكشاري الجاهل علي اغا الذي كان على جهله يستبد برأيه ، ولا ينصاع لنصائح مرافقه الخبير اولوج علي باشا .

واما اوروبا المتاعة الخائفة فقد هلات و كبرت لهذا الانتصار واقامت معالم الزينات في كل مكان ، وافرطت في التسبيح بحمد دون جوان دوتريش ، امير الاساطيل المتحدة ، الذي احرز هذا الانتصار ،الى حد ان قداسة البابا لم يتورع عن القول ، اثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس ، بمناسبة هذا النصر : « **ان الانجيل قد عنى دون جوان نفسه حينا بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا[1]** »

ثم اتى على ذلك حين من الدهر ظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا الفوز البحري حتى ان القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر « **ثغر ليبانت** » الا وتذكر معه دون جوان المشار اليه على اعتباره انقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها[2] .

واما السلطنة العثمانية التي الفت بشائر الانتصارات ، فقد كان نبأ ذلك الانكسار عليها كالصاعقة ، وبلغ من تأثيره على السلطان ، على رواية لافاليه ، انه استمر ثلاثة ايام مضربا عن الطعام[3] .

والواقع ان هذا الانكسار في اينابختي ، كان نقطة الانطلاق شطر اضمحلال قوة السلطنة البحرية . حقاً لقد عقبه نشاط كبير استمد من قوة محمد باشا صوقللي احد رجالات تركيا الافذاذ ، وكان من ثمراته ، ان خرج الاسطول في العام التالي مؤلفاً من ٢٥٠ سفينة حربية بقيادة أولوج علي باشا ، ووفق الى حمل دولة البندقية على قبول شروط صلح مخزية لها . ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار . ذلك لان السلطنة انصرفت ، من بعد ، الى حروب متواصلة نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة ، وبينها وبين فارس من جهة اخرى ، كما انها التهت باخماد الثورات الداخلية المستمرة التي تأججت نيرانها فاهملت الاسطول اهمالا كلياً حتى ظل طويلا لا يخرج من مرافئه .

غير ان حادثة عرضت فيما بعد ابان حكم السلطان ابراهيم الاول (١٦٤٠—١٦٤٨) حولت انظار جلالته الى الاسطول ، فشرع يعززه ويجهزه بالمدافع . ذلك ان بعض مراكب مالطة اسرت ،على رواية مؤرخي الافرنج ، سفينة كانت تقل احدى نساء السلطان وطفلها في طريقها الى الحج ، او مرضعة ابن السلطان وولدها ،على رواية الاتراك ،ولجأت هذه المراكب الى جزيرة

1 - La Vallée . histoire de la Turquie T.II P..II — 13
2 - petit Larive et Fleury. P. 746
3 - Lavallée , Histoire de la Turquie T. II. P. II — 13

اكريت التي كانت للبندقية . فثارت ثائرة السلطان ، وامر بتجهيز اسطول كبير لفتح هذه الجزيرة . ولكن الدولة جابهت ، في سبيل هذه المحاولة ، مقاومة شديدة من قبل البندقية استمرت خمساً وعشرين سنة ، وخسرت فيها ١٢٠ الف مقاتل . على رواية هامر Hammer ، وعدداً كبيراً من السفن والذخائر ، فضلا عن الجزر . وكانت عاقبة هذه المحاولة وخيمة حتى ان عمارة البندقية استطاعت ان ترابط قبالة الدردنيل مدة طويلة . ويظهر ان هذه الانكسارات لم تفت في عضد السلطنة ، وما كادت توقع معاهدة صلح « **فاسفار** » سنة ١٦٦٤ مع النمسا وحلفائها حتى انصرفت لتعزيز الاسطول مولية وجهها شطر اكريد التي كانت سبب هذه الحروب . وبعد استعداد عامين استقل البحر الصدر الاعظم كوبرلي احمد ففاز بهذه الامنية التي امتنعت على اسلافه .

على ان هذا الانتصار المبين قوّى معنويات آل عثمان وجعل قره مصطفى ، الذي خلف الكوبرلي على الصدارة ، يزداد حماساً في تعزيز الاسطول ، ولا سيما عقب ان عقد صلح رادان ١٦٨١ مع روسيا . كما ان هذا الانتصار كان القاضي على نشاط البندقية ، من بعد ، الى حد ان السلطنة استعادت سيادتها على الارخبيل وعلى القسم الشرقي من البحر المتوسط ؛ ثم نشطت الى غزو جزر اسبانيا ، ومطاردة قرصان اوروبا .

ولكن ما الفائدة ونجم آل عثمان كان قد اذن بالافول على وجه عام من جراء علل داخلية وخارجية لم تلبث ان اثرت على القوى البرية ؟

— لم تكن ثمة فائدة لهذا النشاط الموقت للاسباب التالية :

١ — اشتداد ساعد روسيا ، وموازرتها للنمسا في القضاء على تركيا . ثم اخذها على عاتقها هذه المهمة . وكانت تركيا قد اطمأنت الى البندقية التي كانت تزاحمها على السيادة في البحار ، فأهملت شأن قواها البحرية للانصراف انصرافاً تاماً الى تعزيز جيشها المشتبك في حروب متصلة مع النمسا وروسيا .

٢ — فساد الاخلاق بين رجال السلطنة ، وفي جملتهم امراء البحر وعماله . فصار هؤلاء لا يهمهم من انشاء السفن الا الاختلاس على حين ان جيوش البحر انفسهم اصبحوا ، كما وصفهم جودت باشا ، « **عديمي المروءة ينصرفون الى المكاسب المالية ويتعرضون لاعراض الناس . واذا ما خرجوا بالاسطول فويل الرعايا ساكني الجزر من تعدياتهم**[١] . »

١ — تاريخ جودت باشا ، الجزء الاول الصفحة ١٧٣-١٧٦-١٧٧

٣ — جمود السلطنة ابان تقدم الاساطيل الاوروبية وفنون البحر .

٤ — افلاس الخزنة من جراء الحروب المتصلة ، والفتن المستمرة ، فضلاً عن فوضى الاحكام واستبداد الجند .

هذه الاسباب كلها تضافرت على البحرية العثمانية ، وهوت بها الى الحضيض ، الى حد وصفه المؤرخ توكس بقوله : « **لما جاءت عمارة روسية صغيرة من بحر البلطيك الى الارخبيل بادرت السلطنة الى جمع شتات اسطولها لرد هذه الغارة المفاجئة ، وعمدت الى جمع المقاتله والبحارة قسراً من طبقات العمال والزراع الذين لا عهد لهم بفن الملاحة ، والذين كانوا يصابون بالدوار عند تلاطم الامواج . وكانت النتيجة ان العمارة العثمانية ، رغم وفرة عددها ، منيت بالانهزام ، ثم احترقت في مرفأ (حشمه) سنة ١٧٧٩ [1] . ولولا جهل الكسي ارلوف ، الاميرال الروسي ، ولولا همة توت الجري ، الذي كان معلماً للمدفعية العثمانية ، وبذله الجهود الجبارة في تحصين قسطنطينية لتم للروس الاستيلاء عليها [2] .** »

*

عهد التجدد الفاشل

توفق السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ — ١٧٨٩) بالغاء فرقة اللوند البحرية التي تفاقم شرها ، وبقتل وتشريد رجالها ، بالاضافة الى انشائه بعض السفن ، واصلاحه دار الصناعة البحرية .

وخلفه ابنه السلطان سليم الثالث ، وكان اصلاحياً متجدداً ، فعني بالبحرية ، وانشأ سفناً عدة حربية على شاكلة احدث السفن الفرنسية والانكليزية ، واصلح دور الصناعات البحرية ، كما عني بالمدرسة الحربية ، وبتحصين الثغور ، ومطاردة القرصان .

ولكن الحظ لم يحالف السلطان المشار اليه : فقد استهواه سبستياني سفير نابليون الاول لمظاهرة فرنسا ضد بريطانيا العظمى . فكانت عاقبة ذلك ان دخل الاسطول الانكليزي بوغاز الدردنيل ، دون ان يمس بسوء ، ودمر في غاليبولي الاسطول العثماني الجديد ١٢٢١هـ=١٨٠٧م) [3] .

---

1 - Tooke's life of Cathérine II T. P. 44 — 45

2 - Lavallée. Histoire de la Turquie. T. II. P. 212 — 214 — 242

٣ — تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٩٠ - ١٩١ - ٢٠٨

ثم ذهب السلطان ضحية الدسائس التي حاكها الانكليز بيد الاوساط الرجعية والانكشارية، فخلع وقتل[1]، وذهبت مساعيه الاصلاحية ادراج الرياح.

وبلغ من اضمحلال البحرية العثمانية بعده ان بحارة من اليونان استطاعوا احراق بعض وحدات الاسطول التركي في جزيرة ساقز (١٢٣٧ هـ = ١٨٢٢ م) ثم قضت، بعد خمس سنين من ذلك، اساطيل انكلترا وفرنسا وروسيا في ناورين باليونان، على البقية الباقية منه وعلى العمارة المصرية التي خفت لمساعدته.

واستوى السلطان عبد العزيز على العرش (١٨٦١—١٨٧٦) وليس للدولة اثر لاسطول، فخف لسد هذا الفراغ: فأصلح دار الصناعة، وأنشأ لها حوضاً سابحاً، وفتح مدرسة للفنون البحرية، واوصى معامل اوروبا على جملة من السفن الحربية على النمط الحديث، بالاضافة الى ما كانت تصنعه دار الصناعة في الاستانة.

ولكن هذه الاصلاحات التي قام بها لم تثمر لان السلطان عبد الحميد الذي خلفه وشاهد بنفسه كيف ان هذه القوى البحرية تآمرت على عمه عبد العزيز يوم خلعه، وحاصرت قصره من ناحية البحر؛ ان هذا السلطان رأى العبرة بغيره فاعتبر، فأهمل الاسطول كل الاهمال؛ وجعل مقره الخاص بعيداً عن البحر في يلديز. والى هذا فان عبدالحميد حظر على هذه السفن الخروج للمناورات حتى اعتلى ادواتها الصدأ. ثم لم يسمح بانشاء غير طرادين اثنين وبضع نسافات، كلفت الخزنة الاموال الكثيرة.

وان ننس فلا ننسى حسن باشا وزير البحرية. فقد قيل ان فؤاد باشا الذي لقب ب (دلي فؤاد) اي المجنون نظراً لجرأته، دخل على السلطان اثناء ما كان يشاهد اعمال احد المشعوذين. ولما اظهر جلالته عجبه واستغرابه لابتلاع المشعوذ السيف الطويل دون انزعاج ابتسم فؤاد باشا وقال: «**عفواً سيدي لا تعجب فان بين وزرائك من يفعل اعظم من هذه الاعجوبة**».

قال السلطان مندهشاً: «**من هو؟ وكيف؟**»

فأجابه فؤاد باشا: «**ان حسن باشا وزير البحر طالما بلع السفينة الحربية اثر اختها دون اي انزعاج!**»

وهو يشير بذلك الى ما كانوا يتهمون به هذا الوزير بان دار الصناعة البحرية في العاصمة ما كانت تقذف الى البحر سفينة حربية الا ومعها سفينة اخرى للوزير المشار اليه.

---

١ - المؤلف اوليات سلاطين ص. ٤٢ - ٤٣

الجزء الرابع

عقلية السلف وجمود الخلف وبطء الاصلاح

عقلية السلف

قال فيكتور برار : « ان دولة الاتراك العسكرية لم تفكر ، في يوم من الايام ، بايجاد حق يسوغ لها الحكم والسلطان غير حق الفتح . »

والواقع فان الحق الذي يستند اليه العالم حتى الآن لا يزال حق القوة ، ولكن آل عثمان يؤاخذون على انهم حافظوا ، حتى عهد قريب ، على شكل من الحكم العسكري بدائي تقوم اركانه على اسس من البداوة . ثم انهم واظبوا على ذلك الشكل طويلا بينما كان العالم ، وهو على مقربة منهم ، يسير بخطوات واسعات في طريق التمدن ، وفي الاخذ باوضاعه وفنونه السياسية والاجتماعية والحربية .

لقد أتاحت الفرص لآل عثمان النجاح في الفتوحات ، واخضاع الامم والعناصر الكثيرة ، لاسباب فصلناها تفصيلا في كتابنا الاول من هذا التاريخ ، فاعتمدوا لذلك على قوتهم العسكرية فحسب . على انهم فضلا عن جمودهم في حقل التجدد العسكري قد اهملوا الوسائل الاخرى التي يعتمد عليها الفاتحون في توثيق روابط الممالك . فما ان تسرب الضعف الى قواهم العسكرية بالنسبة للجيوش الحديثة حتى كان اختلاف الاديان والمذاهب والتقاليد واللغات بين العناصر التي تتألف منها مملكتهم الواسعة حرباً عليهم وعوناً لاعدائهم .

كان حكمهم الى « خط تنظيمات » في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) يكاد

يكون اشبه شيء بالاحتلال العسكري ، او كاحتلال البدو لارض يكتفون بما تنتجه الطبيعة فيها ، ثم هم ينقلون منها الى غيرها شأنهم شأن النحل التي تغزو الزهور حتى اذا امتصت عسيلاتها تخلى عنها لتنتقل الى غيرها .

نشأت السلطنة العثمانية على فكرة التوسع وحمل راية الاسلام الى أبعد ما يمكن من تخوم اولئك الصليبيين الذي هاجموه، ثم انكفأوا عن بلاده عنوة وقسراً . وقد نشطها نجاحها العظيم في هذه الحملات للتقدم تباعاً حتى حاصرت فينا عاصمة النمسا ثلاث مرات . وكان هذا النجاح الذي، اشغلها عن التنظيم والتمدين وصرفها عن ربط المملكة الواسعة بوحدة الدين ووحدة اللغة ، هو نفسه شاغلا لها فيما بعد حينما تألب العالم الاوروبي عليها واشهر حرباً شعواء متدسة تهدف الى اجلائها بالقوة عن اوروبا .

على ان تاريخ آل عثمان وان لم يكن يخلو من عواهل عنوا بالعلماء ، وانشأوا المدارس وعمروا المساجد والتكايا ، وقاموا ببعض الاصلاحات العمرانية ، امثال السلطان اورخان ، ومحمد الفاتح ، وسليمان القانوني ؛ غير ان هؤلاء ، على قلتهم ، كانوا يقتصرون غالباً ، في هذه الاصلاحات ، على العواصم ؛ تشبهاً ببعض عظماء الملوك في كل زمان الذين كانوا يتباهون بتقريب اهل العلم والادب ويحيطون انفسهم بهالة من الدعاوات بانشاء المساجد والتكايا . واما الولايات الكثيرة التابعة لهم فكانت تحرم من عنايتهم . حتى اذا جلا آل عثمان عن تلك الولايات تباعاً لم نعثر لهم فيها على اثر عمراني اللهم الا بعض مساجد عمروها ، وبعض مدارس انشؤها في مرحلتهم الاخيرة .

*

جمود الخلف

بلغت الامبراطورية العثمانية شأوا رفيعاً في المجد ربما لم يكن يحلم به السلاطين المؤسسون : فقد خلفت الامبراطورية البيزنطية على اقطارها كائنة في اوروبا وآسيا ، وقامت على انقاض دولة المماليك في الشرق الادنى ، والحقت بها الممالك الكثيرة التي كانت تقوم في اوروبا الشرقية ، كما انها اجتزأت قسما كبيراً من كل من بلاد النمسا باوروبا ، وامصار فارس في اسيا الوسطى ، واستولت على جزر البندقية وغيرها فدانت لها البراري وخضعت لها البحار . واصبحت نقطة الثقل في كفة السياسة العالمية[1] .

---

١ — المؤلف . فلسفة التاريخ العثماني الكتاب الاول ص ٢٨١

وكان من سوء طالع هذه السلطنة ان بدأ التمدن الحديث في بلاد خصومها ابان ما كانت منصرفة الى الدفاع عن كيانها الاوروبي . وشرع هذا التمدن يتفاقم في بلاد هؤلاء الخصوم بما صاحبه من علم وفن وعمران ، ثم لم يمض الا حين من الزمن حتى اصبح العالم غير العالم ، وحتى لم تبق اية نسبة بين مستوى الامبراطورية العثمانية ، وبين اوروبا المتجددة .

ومن سوء طالع هذه الامبراطورية انها وان كانت تجاور البلاد التي شب فيها هذا التمدن الا انها ظلت بعيدة ، وبعيدة جداً عنه لسببين : اولهما انها كانت تعتبر هذا التمدن وما تلاه من تجدد من عمل الاعداء : الاعداء في السياسة والدين ، فتجتنبها . وثانيهما انها استناداً الى مابلغته من مجد وسلطان خضعت لنفوذ الغرور ، شأن البشر كافة ، فظلت ، حتى بعد ان هوت الى الحضيض ، تتوهم انها ارفع من اوروبا ، مهد التمدن الحديث ، في المنزلة والمقام .

هذا فضلا عن انصرافها كل الانصراف الى الدفاع عن حوزتها حيال الحروب الصليبية التي اشهرتها عليها اوروبا ، وعدا انغماسها بالفتن التي القاها فيها جنودها المتمردون ، ولا سيما طائفة الانكشارية في البر ، وطائفة اللوند في البحر .

قال ده فولاي : « **الى اوائل القرن التاسع عشر ظلت السلطنة تدفع كل الافكار الحديثة دون اهتمام بما يجري وراء تخومها ؛ حتى انها كانت ترفض انتداب سفراء لها الى البلاد الاجنبية ، وظلت على ذلك الى عهد السلطان محمود**[1] » وذلك في مطلع القرن التاسع عشر متوهمة ان العالم الذي هو بحاجة اليها واجب عليه دونها ان يقيم في عاصمتها السفارات .

وبلغ من جمودها ، وتخوفها من كل جديد يقتبس من اوروبا انه لما عاد منها رسمي احمد افندي وشرع بشرح ليوسف افندي احد المقربين من السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ١٧٧٤) ما شاهده هناك من المنشآت ، ويقترح عليه اقامة المحاجر الصحية أظهر يوسف افندي دهشته من هذا الاقتراح ، وقال له مؤنباً : « **ظننتك ذا فكر ثاقب تفكر في المصير ، فاذا بي اجدك لا تلاحظ ان سبب عدم اقبال الاوروبيين على هذه الجهات يرجع الى خوفهم من الاوبئة السارية . وانهم لا يلبثون ان يتهافتوا علينا متى قمنا بتحقيق اقتراحك . وكيف يتسنى لنا من بعد ان نسوسهم**[2] ؟ »

---

1 - A du Velay . Essai sur l'histoire financière de la Turquie P.83

٢ — تاريخ جودت باشا الجزء الاول ص ١٣٧

وظل هذا الخوف من التعامل مع الاوروبيين والاقتباس عنهم سارياً ، رغم ان افكار أولياء الامر تبدلت ، واصبحت ترى الحاجة ماسة للقيام بالاصلاحات ، ولا سيما ما كان منها يتعلق بالدفاع العسكري . فقد ظهرت لهم جلياً اثناء الحرب مع روسيا ، سنة ١٨٥٤ ، ضرورة مدّ الخطوط الحديدية التي تؤمن نقل الجنود والعتاد ، وتحقق لهم السرعة . ولكن ما ان اعرب مستشارو الباب العالي عن هذه الامنية الى السلطان عبد العزيز ، (١٨٦١—١٨٧٦) حتى ثار الرأي العام خوفاً من ان يمتد النفوذ الاجنبي مع هذه الخطوط الى السلطنة .

غير ان الصدر الأعظم فؤاد باشا كان يجيب المعارضين مطمئناً الى ان وجود الشركات الاجنبية في السلطنة مع اموالها سيكون مدعاة لاحلال الامان السياسي[1] . وقد استطاع ان يهدىء روع الرأي العام بحججه الناصعة . وبمساعيه امتد اول خط حديدي في المملكة .

هذا ويرجع خوف الاتراك من كل شيء يقتبس من اوروبا الى امرين .

اولهما : ان التعصب والجهل كانا يصوران لهم ان التشبه بالاوروبيين كفر لا يقره الدين ، بالاضافة الى اعتقادهم ان لا خير في المدنية الحديثة ، وان هذه المدنية هي دون ما عندهم من ارث الاجداد . وقد أيدّ هذه المزاعم واقرها في نفوسهم تصرفات بعض الخاصة مذ اخذوا يقلدون الغرب . وصف جودت باشا هؤلاء بقوله : « **وبدلا من عناية هؤلاء بالصناعات الاوروبية المنتشرة والفنون انصرفوا لاهوائهم واسترسلوا في اسرافهم . فكان ذلك مما اثار اهل الاستانة الذين كانوا ، اذ ذاك ، على غاية من التعصب للدين ؛ وحملهم على النفرة منهم ، وهم كبار الموظفين ، وعلى انكار وازدراء جميع المحدثات المقتبسة عن اوروبا حتى بلغ هذا النفور الى حد استنكارهم ايضاً الابنية المشيدة على الفن الحديث**[2] »

وثانيهما — ان تركيا كانت تؤمن بان جميع النكبات التي احاقت بها كان مرجعها اوروبا ، ولا سيما مذ جعلت للاجانب بعلاقاتها المالية وشركاتها التجارية وسائل للتدخل في شؤون السلطنة ، وللادعاء بحق حماية الاقليات . وقد اشار الى ذلك فيكتور بيرار حيث قال : « مذ باشر التركي الاصلاح العسكري واجه انفراط عقد مملكته : فبين سنين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ مُني بضياع الموره ومصر . كما انه واجه منذ خف للاصلاح الاداري بمثل هذا التفكك : فبين سنين ١٧٧٨—١٨٨٢ خسر تساليا والبوسنه وبلغاريا والروملي وقبرص ؛ فضلا عن بعض الامصار التي اغتصبها الروس .

1 - A. du Velay. Histoire financière de la Turquie P. 284

٢ — تاريخ جودت باشا ص ٧٥

والنمسا، او التي حررها رعاياه القدماء. ولعل هذه التجربة المزدوجة في حقل الاصلاح حملت التركي على النفور من كل شيء اوروبي؛ وباعدته عن اقتباس المدنية الاوروبية[1]».

*

بطء الاصلاح

ترددت كلمة الاصلاح على السنة ساسة تركيا منذ سلطنة عبد المجيد (١٨٣٩—١٨٦١)، وكانت لهذه الكلمة مواسم، واكثرها ابان النكبات؛ كما انها كانت تظهر عند ارتماء الدولة بين ايدي الدول مستنجدة ببعضهم على بعض، وعند التجائها اليهم طالبة القروض.

على ان الاصلاح العسكري يرجع الى عهد ابعد من نشوء «المسألة الشرقية» (١٨٢٥) ذلك لان تركيا انما هي دولة عسكرية قبل كل شيء آخر، وعلى جندها يتوقف بقاؤها.

ويمكن القول ان حركة الاصلاح العثماني جرت على الوجه التالي:

١ — الاصلاح العسكري

٢ — الاصلاح الاداري والمدني

٣ — الاصلاح الدستوري

وعلى هذا الاساس سنعالج الموضوع في الفصول التالية:

*

الاصلاح العسكري

بدأت فكرة الاصلاح في الناحية العسكرية منذ طغى الانكشارية وامسوا خطراً على الدولة. وربما كان السلطان عثمان الثاني (١٦١٨—١٦٢٢) اول من فكر في التنكيل بهم عقب امتناعهم عن مواصلة القتال في الحروب التي كانت ناشبة بينه وبين بولونيا. ولكن هؤلاء الجنود ما ان علموا بانه شرع يحشد جيشاً في آسيا ويعنى بتدريبه حتى خلعوه ثم شنقوه. وفعلوا مثل ذلك بالسلطان ابراهيم الاول (١٦٤٠—١٦٤٨) حينما شعروا بانه يتآمر عليهم. والحقوا بهما السلطان احمد الثالث

1 - V. Béard . La mort de Stamboul. P. 9.

(١٧٠٣ـ١٧٣٠م) لمادار في خلده تنظيم الجيش فخلعوه ونصبوا مكانه محمود الاول .

وكانت الانكسارات المتوالية التي لحقت بتركيا قد اقرت في نفوس اولياء الامر فوائد التنظيم والتدريب والاستعداد العسكري على الاصول التي اعتمدتها اوروبا ، ولا سيما بعد ان رأوا هذه الفوائد عياناً في حروبهم ضد القيصر بطرس الاكبر الذي حرص على تجديد روسيا .

وكانت فرنسا التي اخذت تتحبب الى الباب العالي ترويجاً لمصالحها السياسية والاقتصادية لا تفتأ تنصحه بوجوب القيام بهذا التنظيم . وقد ارسلت الى تركيا بعض الضباط للتدريب على الانظمة العسكرية التي طبقها لوفوا في الجيوش الفرنسية ، ثم انتدبت البارون دي توت لهذه الغاية . ولكن ما الحيلة ، وكان السلاطين ورجالهم يخشون شر الانكشارية حتى كان احدهم لا يجسر ان يحدّث الاخر في هذا الامر خوفاً من وصول حديثه اليهم . فاكتفى محمود الاول (١٧٣٠ـ١٧٥٤) بفرقة صغيرة عهد للضباط الفرنسيين بتدريبها ، واقتصر مصطفى الثالث (١٧٥٧ـ١٧٧٤) على انشاء معمل للمدافع الخفيفة في العاصمة ، ومدرسة لتعليم المدفعيين بادارة البارون دي توت المشار اليه .

ثم ازدادت فرنسا اهتماماً بكسب تركيا ، اثر تألب اوروبا عليها بعد الثورة ، واثناء حكم نابليون الاول ، فأصحبت سفيرها الجنرال دوبيّت A. Dubayet بضباط ومهندسين ومعلمين لجميع انواع الاسلحة ، وبعمال لصب المدافع .

وكان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) قد وطد العزم على التجديد والاصلاح منذ ان ساعده نشوب الثورة الافرنسية على انقاذ السلطنة من الحروب التي كانت تدور بينها وبين كل من النمسا وروسيا ، خصوصاً وان تلك الحرب برهنت على ان مصير السلطنة سائر الى الهلاك اذا لم تقابل القوى الحديثة بمثلها .

ولم يقتصر جلالته على القيام بالاصلاحات في الناحية البرية ، بل شملت عنايته الناحية البحرية ايضاً . وبمساعدة هؤلاء الافرنسيين استطاع اصلاح مدرسة المدفعية ووضع نظام للجنود المشاة ، وانشاء فرق جديدة على النظام الاوروبي .

غير ان الانكشارية ومن ورائهم جماعة المحافظين قابلوا هذه الاصلاحات بالامتعاض باسم الدين واعلنوا الثورة في ادرنة مطالبين بالغاء هذه التدابير الجديدة وتسريح الجند النظامي وطرد مدربيه الافرنج . وزحفوا على العاصمة ، فما وسع السلطان الا ان يرضخ لهم ، فعزل وزراءه واسند مقام الصدارة الى زعيمهم . ولكنهم مع ذلك لم يطمئنوا اليه ، بل عمدوا ، توصلا الى ازاحته عن العرش ، الى استفتاء المفتي الذي كان متواطئاً معهم ، ووجهوا اليه السؤال التالي :

«هل يحق للسلطان الذي يحارب في مسلكه وانظمته القواعد الدينية المقدسة التي نص عليها القرآن الكريم البقاء على العرش؟» فكان الجواب: «كلا.»

وعند صدور هذه الفتوى، نادوا بخلع السلطان سليم وبمبايعة مصطفى الرابع (١٨٠٧ — ١٨٠٨م) خلفاً له؛ غير ان انصار الاصلاح، وعلى رأسهم مصطفى باشا البيرقدار حاكم روستجق، زحفوا يريدون اعادة السلطان المخلوع الى العرش، فعاجله هؤلاء بالقتل قبل ان يدركه انصاره. ونادوا بالسلطان محمود الثاني ملكاً على العثمانيين.

وكان محمود شاباً شغوفاً بالاصلاح والتجدد، فأسند مقام الصدارة العظمى الى مصطفى باشا المشار اليه الذي استهل اعماله بعقد مؤتمر اشترك فيه رجالات السلطنة، وانتزع منهم الموافقة على المواد الآتية:

١ — ابطال الرشوة المنتشرة بين الفرق العسكرية.
٢ — اجبار الانكشارية العزّب على الاقامة في الثكنات.
٣ — قطع مرتبات الانكشارية الذين يسكنون خارج الثكنات، والذين لا يقومون بالواجبات المرتبة عليهم.
٤ — اجبار الانكشارية على حمل السلاح، والقيام بالتدرب على الفنون الحربية.
٥ — تأليف فرقة على النظام العسكري الحديث.

وما ان اتصل بالانكشارية خبر هذه القرارات حتى ثاروا، وأشعلوا النار في العاصمة وهبوا لاعادة السلطان مصطفى الرابع الى العرش[1] ولكن السلطان محموداً لم يجبن، بل ألقى امامهم جثة اخيه مصطفى، وخرج بنفسه الى لقائهم، وامرهم بالانسحاب. ومع ذلك فان السلطان لم يبدأ من مصانعتهم فألقى اليهم ايضاً برأس عبد الرحمن قاضي باشا، وكان من اشد انصاره، فارتصوا وتفرقوا[2].

وكان السلطان محمود يشعر بنية محمد علي باشا والي مصر، وما كان يبيّته للسلطنة بالاستعدادات العسكرية الكبيرة التي كان يقوم بها بمساعدة فرنسا؛ او لعل انكلترا، التي كانت تعتبر سياسة فرنسا في مصر موجهة ضدها، قد أوضحت للباب العالي هذه المؤامرة. لذلك فقد عقد العزم مع رجال دولته على الغاء جيش الانكشارية وتنظيم جند حديث اسوة بمصر، وسائر العالم المتمدن.

---

١ — محمد فريد. تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٩٨

2 - LaVallée Histoire de la Turquie T. II P. - 299

ورغم ان هذه القرارات الاصلاحية اتخذت في دار المفتي ووافق عليها كبار الانكشارية الذين شهدوا الاجتماع ؛ فما ان بادرت الحكومة لتنفيذها حتى ثارت ثائرة هذه الطائفة الخبيثة ، وزحفت قاصدة الى قصر السلطان . وهي في سبيلها اليه ، وبمن التف حولها من غوغاء الناس ، اخذت تنهب وتسلب ، ولا سيما قصور رجال الاصلاح . غير ان رجال الذين ظاهروا السلطان في هذه المرة ، وزحفوا وراء جلالته يتقدمهم العلم النبوي ، واحاطوا بالانكشارية من كل جانب ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً حتى قطعوا دابرهم (١٢٤٠ هـ = ١٨٢٦ م) .

ويرجع الى هذا التاريخ بدء الاصلاح العسكري : ذلك لان السلطان محموداً ، وقد اتيح له ما لم يتح لسواه من ازالة العقبات الداخلية التي كانت تقف دون هذا الاصلاح في عهد اسلافه ، خف الى العمل : واستهله بالغاء تكايا الدراويش البيكتاشية الذين كانوا ظهيرين للانكشارية في محاربة الاصلاح ، وبقتل زعمائهم الثلاثة . واطلق على الفرقة العسكرية ، التي شرع بتدريبها على الاصول الحديثة ، اسم « جند محمد المنتصر » ، واخذ يزيد عددها حتى بلغ العشرين الفاً في سنة واحدة .

ولكن كان قد بقي امام السلطنة عقبات اخرى تحول بينها وبين بلوغ الاماني الاصلاحية . واعني بها العقبات الخارجية التي لم يكن بوسع السلطان تذليلها : فان روسيا سرعان ما اعلنت عليه الحرب بغية اكتساب الفرصة قبل اكتمال عدد الجنود النظامية وعددهم ؛ ثم فاجأته مصر ومن ورائها فرنسا . ولولا التوازن السياسي ومبادرة بريطانيا العظمى والنمسا وغيرها لانقاذ تركيا لابتلعتها روسيا ، او لقامت على انقاضها دولة محمد علي باشا الناشئة .

على ان السلطان محموداً اتخذ من هاتين الحربين عبراً ودروساً فازداد رغبة في تنظيم الجيش ، رغم الازمات المالية الشديدة التي كانت تعترضه ، وانشأ قسم البوليس ؛ وارسل الى اوروبا ضباطاً للتخصص ، كما انشأ مدرسة حربية على نمط مدرسة سان سير التي اقامها نابليون في فرنسا[1] . وعهد الى الجنرال مولتك القائد الشهير البروسياني بتنظيم الجيش[2] هذا فضلا عن انشائه سفناً حربية تجارية في دار الصناعة العثمانية[3] .

ولما خلفه ولده السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) اصغى الى نصائح الدول التي

---

١ — محمد فريد . تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص. ٢٣٢

٢ — سينوبوس تاريخ التمدن الحديث . ص. ٢١٢

٣ — المؤلف . اوليات سلاطين تركيا ص. ٤٥

انقذت السلطنة من الحملة المصرية ، وعني ، عناية شديدة ، بالاصلاح في جميع وجوهه ، وفرض الخدمة العسكرية الاجبارية على المسلمين ، ثم جعلها تشمل الملل الاخرى في « **خط الاصلاحات الخيرية** » عملا بالمساواة التي طالبت بها الدول[١] . ولكن الرعايا غير المسلمين ابوا هذه المساواة في الجندية ، والتمسوا ان يعودوا الى اداء البدل العسكري[٢] ، فأجيبوا الى طلبهم .

ثم خطا التنظيم العسكري الحديث خطوات واسعات في عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) سواء اكان ذلك في القوى البرية او البحرية ، فبلغ عدد الجيش مع الرديف ٨٠٠ الف جندي مجهزة افضل تجهيز بالاسلحة الحديثة . هذا الى ان هذا العاهل انشأ في الطوبخانه مصنعاً للمدافع يصب ٣٠٠ مدفع في كل عام[٣] . وكان المفروض ان يبلغ الجيش اشده في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ولكن الحروب الخارجية والفتن الداخلية التي شغلت هذا العاهل صرفت جلالته عن اهدافه الاصلاحية ، وجعلت اهتمامه ينحصر في المحافظة على شخصه ، وفي اتباع سياسة « فرق تسد » بين الدول والرعية . ومع ذلك فان تيار التقدم العالمي العام حمل معه تركيا الى الامام ؛ وكان في جملة الاصلاحات التي باشرتها ، مجاراة لروح العصر ؛ زيادات غير كثيرة في الجندية ومعداتها ، وبعض تحسينات في انظمتها وتدريباتها . فبلغ عدد الجيش العامل والاحتياطي سنة ١٩٠٣ ، مليونا واربعماية الف نفر ، كان منهم تحت السلاح ٧٠٠،٦٢٠ جندي موزعين على سبعة فيالق[٤] ، وقد عهد بتدريبهم الى بعثة عسكرية المانيــة كان يرئسها فون غولتز باشا .

غير ان هؤلاء الجنود كانوا ، في الواقع ، محرومين من الرفاه الذي تتمتع به جيوش الدول الاخرى ، ما عدا الفرق التي كان يناط بها حراسة « **الذات الشاهانية** » . وكان اسوأهم حظاً اولئك الذين يلتحقون بالفرق المرابطة في الولايات الداخلية حيث يكونون بعيدين عن انظار الاجانب وانتقاداتهم . وكم كانت قلوبنا تتصدع عند مشاهدة الحملات العسكرية ، وهي عائدة من اليمن ويكاد افرادها يكونون حفاة عراة ؟

وهذا الاهمال والاستهتار بالجيش ، والعدول عن اتباع العدل والانصاف في ترقية المستحقين

---

١ — الشيخ محمد بيرم . صفوة الاعتبار . الجزء ٥ . الصفحة ٥٧
٢ — سينوبوس تاريخ التمدن الحديث . ص ٢١٤
٣ — الشيخ محمد بيروم . صفوة الاعتبار . الجزء ٥ ص ٦١
٤ — مجلة الهلال السنة ١٦ الصفحة ٤٣

ن افراده سهل لجمعية الاتحاد والترقي ان تستميله في مكدونيا ، ولا سيما ابان تذمره من حبس
رتباته[١] وان ترحف به الى العاصمة وتزيح عاهلها عن عرشه ، رغم ما انفق من اموال في سبيل
حافظة على سلامته .

الاصلاح الاداري والمدني

قال فيكتور بيرار : « الى مطلع القرن التاسع عشر ، وحتى قيام السلطان محمود ببعض الاصلاح
نت السلطنة مملكة مؤلفة من اقطاعات ، وليس لادارة جيشها البري والبحري غير اسلوب اولي
ذج . وكان السلطان واجناده لا يهتمون الا بيومهم الحاضر غير عابئين بما هو آت ، وهم
يعتمدون على قيود وسجلات »[٢] شأن الدول المنظمة .

حقاً ان هذا لعجيب . وما هي اسبابه ؟ هل كان ذلك لاشتغال تركيا في حروب كانت
ومية في البداية ثم صارت دفاعية ؟ اجل لقد كانت هذه الحروب تشغل الدولة عن الاصلاح ،
سيما لانها كانت تجعل خزائنها المالية فارغة على الدوام ؛ ولكن العلة الحقيقية في اغفالها امر
صلاح ومجاراة اوروبا الناهضة انما كانت ترجع الى اسباب اخرى معنوية . ذلك ان المجد
ظمة والتفوق التي ادركتها تركيا ، وخصوصاً في عهد السلطان سليمان القانوني اوحى اليها
ن طينة غير طينة اوروبا ، بالاضافة الى انها كانت تعتبر دول الغرب حينذاك كأنها عتيقة سيفها ، اذ
ت تتقاضى الجزية من اشد مملكة في البر ، واعظم دولة في البحر ، هذا فضلا عن ان السلطنة كانت الى
السلطان سليم الثالث تترفع عن مبادلة الدول في التمثيل السياسي فلا ترضى بتعيين سفرائها

---

١ — وقد تسنى لنا وقتئذ الاطلاع على البرقيتين التاليتين ١ - الاستانة ٢٤ اذار ١٩٠٨ « ثار فرقتان من
ة الحميدية في القلعة بادرنه من جراء تأخر مرتباتهم طالبين هذه المرتبات واخلاء سبيل الذين اتموا الخدمة ،
أ بعضهم المسجد باسلحتهم ورغم ان فرقة من المشاة طوقت المسجد صرح الثائرون انهم لن يسلموا حتى تحقق
يم » ٢ - الاستانة ٢٢ حزيران ١٩٠٨ « يسود معسكر مناستير اضطراب شديد جداً : ان الفاً من
د تقريباً لجأوا لاستعمال القسوة في طلب تذاكر اخلاء سبيلهم . هذا وافادت برقيات من سكوتاري ان
من الضباط والاجناد احتل مركز التلغراف يطلبون من السلطان عزل الوالي وقائد الدرك وقائد الموقع
براء تأخير مرتباتهم »

2 - Victor Bérard. La mort de Stamboul. P. 210

في العواصم على اعتبار انها المرجع وان الدول ذات المصالح مجبورة وحدها بان ترسل سفراءه الى دار السعادة. كما كانت لا تسمح لاي سفير من السفراء بالامتثال بين يدي السلطان الا ان يقد بين يديه هدية هي بمثابة أتاوة على الدول. ولكن تلك الهزيمة المخزية التي اصابت اسطولها في واقعة ليبانت (٩٧٩هـ=١٥٧١م) ايقظتها من غفلتها وأرتها عيانا ما صارت اليه اوروبا من القوة كما حملتها على التسامح مع سفير فرنسا بأن يقابل السلطان سليماً الثاني دون هدية، خصوصاً وان سعادته كان وسيطاً للصلح بين المتحاربين[1].

وكما كانت واقعة ليبانت المذكورة قاضية قضاء مبرماً على سيادة آل عثمان في البحار، فان معاهدة ستيفاتوروك Stivatorok التي اضطرت لعقدها مع النمسا (١٦٠٦م)، قصد التفرغ لمحاربة فارس، قضت على سيادتهم في البر، وزعزعت اركان التقاليد المرعية التي كانت لهم نتيجة لتينك السيادتين على البر والبحر.

ولا بأس ان نترك الكلام هنا الى المؤرخ الالماني همر. قال: «ان صلح ستيفاتوروك الذي يلفت انظار المؤلفين الفاتا تاما، والذي انمحى ذكراه من جراء صلح كارلوفتز بعد مضي قرن ان هذا الصلح ذو اثر كبير في تاريخ الحقوق السياسية والعلاقات الدولية المتبادلة ما بين آل عثمان وبين الدول الاوروبية. فهو لم يضع حداً للفتح التركي فحسب، بل اقام العلاقات الدولية على قاعدة المساواة: فالمظاهر التقليدية التي كانت تشير الى سيادة آل عثمان، والخراجات التي كانوا يتقاضونها كل عام بواسطة السفراء الغيت» — الى ان قال: «لاول مرة في التاريخ لوحظ ان السلطان والصدر تقيدا بعد ذلك بالاصول السياسية المرعية بين الدول الاوروبية، هذا فضلا عن انه لوحظ ان معتمدي النمسا لم يوقعوا، كما كان يقع قبلا، على المعاهدة المحررة باللغة التركية فحسب دون ان يدققوا ترجمتها.

وفي الجملة فان صلح ستيفاتوروك كان بمثابة اعلان صريح عن انحطاط الباب العالي؛ فضلا عن انه مهد السبيل لمعاهدة كارلوفتز التي هي اكثر شؤماً منه على الاستانة[2]»

على ان تركيا وان بدأت منذ صلح ستيفاتوروك تشعر بقوة الدول الاوروبية الا انها كانت تميل شأن البشر، الى عدم الاعتراف بانحطاطها شخصياً؛ وساعدها على ذلك نشاط وقتي انعشها خلال صدارة محمد باشا الكوبرلي (١٦٥٦—١٦٦١)، ثم في صدارة ابنه احمد باشا (١٦٦١—١٦٧١

---

1 - La Vallée. Histoire de la Turquie T. II P. 16

2 - Hammer. T. II P. 327

نشاط اغراها ، ايضاً خلال صدارة خلفها قره مصطفى باشا وسوّل لها بأن تعيد سيرتها الاولى فتلحق بالنمسا حتى تلقي الحصار على عاصمتها (١٦٨٢) للمرة الثالثة .

والواقع ان الظروف كانت قد تطورت : وما ان دق جرس الخطر في الاوساط الاوروبية عند وصول الترك الى فينا حتى تألبت عليهم الدول باسم « **الاتحاد المقدس** » واصلوهم حرباً مهلكة افضت الى التوقيع على معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) تلك المعاهدة التي كانت بالنسبة لهم نقطة انكماش عن فتوحاتهم ، وكانت للدول الاوروبية نقطة انطلاق شطر التجاسر عليهم ، والطمع بممتلكاتهم .

وكان لا بد لآل عثمان ان يشعروا ، في اخر الامر ، بانحطاطهم العسكري اثر توالي انكساراتهم ؛ ولكنهم ، مع ذلك ، ظلوا يحسبون انفسهم ارفع مدنية من اوروبا ، واعلا كعباً في الحضارة ، فاهملوا الاقتباس عنها ، وحرّموا التشبه بها . وكفروا دعاة الاصلاح والتجدد . وحسبنا الاشارة الى مصدر الفتوى بخلع السلطان سليم الثالث من جراء مباشرته بعض الاصلاحات الضرورية .

غير ان هذه المكابرة وان حالت بينهم وبين الاصلاحات الواجبة الا انها لم تستطع ان تقف ، وجها لوجه ، امام الواقع في ناحية المعاملات الدولية : من ذلك ان الباب العالي لم يبدأ بعد ، من (التواضع) ، ونصب اول سفير له عند الدول : نصبه في باريس (١٢١١هـ=١٧٩٦م) في عهد السلطان سليم الثالث ، فعدّ هذا الحدث من قبيل التحول عن سياسة الاستخفاف بالآخرين .

الاصلاح عهد (المسألة الشرقية)

لما ثارت اليونان على السلطنة في سبيل الاستقلال (١٢٤١هـ=١٨٢٥م) وكان السلام قد ستتب في اوروبا قبل عشر سنين ونيف ، اتجه سياسيوها شطر تركيا ، وهم بين طامع بها يود تقسيمها ، وبين محافظ عليها يود ان يجعلها ترساً لمصالحه . غير انهم كانوا على اتفاق بصدد تحرير ليونان عملا بمبادىء الثورة الافرنسية ظاهراً ، وتحقيقاً لتحرير العناصر والدول المسيحية من ربقة لاسلام باطناً . ولما رفض الباب العالي تدخلهم احرقوا الاسطولين العثماني والمصري في نافارين اليونان ، وزحفت روسيا لتحرير مكدونيا وما حولها . فكان ذلك بداية (المسألة الشرقية) في عرف الدول الغربية . وهي في الواقع رجعة الى الحروب الصليبية التي كانت الثورة الافرنسية د اوقفتها مدة ؛ ولكنها رجعة كانت بنظر بعض الدول تعني التدخل بشؤون تركيا الداخلية ،

وحملها على الاصلاحات ، ولا سيما ما كان منها يؤمن مساواة الاقليات في الحقوق ، ومنع الحيف عنهم . وتعني بنظر روسيا اجلاء المسلمين عن سائر اوروبا المسيحية .

وكان السلطان محمود قد وفق لالغاء وجاق الانكشارية وتبديد انصاره ، وشرع يقلد اوروبا في اصلاحاتها الاجتماعية . كما انه بدا الجند النظامي الذي عني به ، قد انشأ مدرسة طبية ، واصدر جريدة رسمية ، واتخذ اللباس الافرنجي وجعله لباس الجند والموظفين ، ووضع نظاماً للحجر الصحي ، وانشأ الاوسمة ، هذا فضلاً عن ارساله بعثة من الطلبة الى اوروبا ، وقيامه ببعض المشاريع العمرانية[١] ولولا حملة محمد علي باشا والي مصر عليه (١٨٣٩) لاسترسل السلطان في اصلاحاته.

ولما خلفه على العرش السلطان عبد المجيد كان مصير تركيا قد اصبح بين أيدي اوروبا من جراء الحملة المصرية . فبادر الى اعلان الاصلاحات التي كانت تتطلبها الدول : وهي اصلاحات مدارها تحسين احوال الاقليات في المملكة ، وذلك « **بفرمان سلطاني** » قرأ في « **كلخانه** » وعرف بهذا المكان . ثم عزز هذا الفرمان بفرمان اخر عرف باسم « **تنظيمات** » ، وشرع السلطان ، من ثم ، في تحقيق كثير من الاصلاحات الحكومية والمدنية .

غير ان هذه الاصلاحات كانت تسير على غاية من البطء وذلك لقلة الاكفاء بين رجال الدولة ، ولان رعاياها كانوا عقبة كأداء في سبيل تحقيقها . قال في هذا الصدد فيكتور بيرار : « لقد كان المسلمون يتطلبون الافضلية ؛ التي يجب ان تكون من نصيب المؤمنين وحدهم في بلاد الخلافة ، بينما كان النصارى يحرصون على الحقوق والامتيازات الموروثة التي كانت لطوائفهم ولكنائسهم . وكان وراء المسلمين الاسـلام وعطف الدولة ، وكان خلف النصـارى الدول الاوروبية ودسائسها وتداخل جيوشها[٢] . »

وكانت روسيا من جهة اخرى حريصة على عرقلة هذه المساعي الاصلاحية حرصها على اقناع ساسة الدول بتجزئة امصار السلطنة فيما بينها ، وحرصها ايضاً على اثارة الفتن في هذه الامصار.

ولما أشهرت على تركيا حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) حالت بينها وبين الاستمرار على الاصلاح ، كما حملتها اعباء عجز مالي حملها تقدم على عقد اول قرض في اوروبا .

وقد باءت حكومة القيصر بالفشل في هذا الحرب لان كلا من انكلترا وفرنسا اشتركتا

---

١ — المؤلف . اوليات سلاطين تركيا صفحة ٤٤ — ٤٥

1 - V. Bérard . La mort de Stamboul . P. 216

فيها الى جانب تركيا، وانضمت اليهما حكومة سردينيا[1] وذلك دفعاً للخطر الروسي ، ووقفاً لتجاوز بطرسبرج في شؤون فلسطين المذهبية .

على ان هذه المساعدة التي نالتها السلطنة، حملتها على ان تصغي لنصائح كل من لندن وباريس، في صدد تنفيذ الاصلاحات المطلوبة ؛ فاصدر السلطان على اثر ذلك فرماناً اسمي **« الاصلاحات الخيرية »** جاء مؤكداً لمضمون خط **« كلخانه »** الاصلاحي ، وقد تلقته الدول بمزيد الارتياح .

عهد الاصلاح الجدي

في اواسط القرن التاسع عشر ظهر بين ساسة تركيا بعض عظماء الرجال الاصلاحيين الذين كانوا يحملون اعلام التجدد بحزم وعزم ، وينشرونها فوق رؤوس الشعب المحافظ . وفي مقدمة هؤلاء مصطفى رشيد باشا الذي اخذ على عاتقه اخماد ثورة الالبان التي ثارت عقب اصدار **« التنظيمات »** سنة ١٨٤٤[2] وضدها، وعالي باشا، وفؤاد باشا. وقد جاء في وصية هذا السياسي الكبير التي كتبها على فراش الموت ورفعها الى السلطان عبدالعزيز ما يلي : « ان رقي جيراننا السريع ، وتأخرنا الناتج عن اغلاط اجدادنا التي هي غير مقصورة قد القيا بنا الآن في هوة من الهلاك عميقة لا يمكن الخلاص منها ومن عواقبها الوخيمة الا بقطع كل صلة لنا بقديمنا ، وبالعمل على التجدد في قوانا حسب الوسائل العصرية الحديثة .»

ولما ساءت احوال السلطنة المالية بعد حرب القرم ، وتأزمت، حتى اشرفت على الافلاس، نهض كل من عالي باشا وفؤاد باشا لانقاذها ؛ فاستصدرا الارادات الشاهانية تباعاً في وجوب الاقتصاد التام حتى في مخصصات السلطان ، وفي انشاء البنك العثماني ، وفي اشراك بعض الاقتصاديين الدوليين في تنظيم مالية الدولة . ولكن الخلل كان مستحكماً الى حد بعيد لا يمكن تلافيه خلال مدة قصيرة ؛ خصوصاً وان الفتن كانت لا تزال تتوالى فتصرف الباب العالي عن الاصلاح ، وتستنفد الاموال التي يعدها لهذا الاصلاح . ولما توفي السلطان عبد المجيد كان الباب العالي ، على ضيق ذات يده ، يعالج الفتنة التي نشبت في لبنان ، ويكافح الثورة في الجبل الاسود؛ ولكن لما نودي بالسلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) أحيا الآمال ، وألقى الثقة في الاسواق

1— A. du Valey. Essai sur l'histoire finanɔière de la Turqute P. 108 - 109 et 138

٢ — الشيخ محمد بيرم: صفوة الاعتبار الجزء ٥ ص ٥٨

المالية العالمية الى حد ان القرض الذي حاول عقده في لندن وباريس، في صدر ايامه، غطي بنسبة اربعة امثاله مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الدولة. وفي عهده نظمت شؤون النقد والمالية، وصدر اول ميزان للدخل والخرج، ووضعت القوانين والمجلة، واقتبس عن فرنسا وانكلترا نظام تشكيل الولايات، وأنشيء البنك الزراعي، وسمح للشركات الاجنبية بمد الخطوط الحديدية الاولى. ولكن الاموال التي انفقت على هذه الاصلاحات بالاضافة الى ما انفق على انشاء المدارس الرسمية في العاصمة والولايات، وما بذل من الاموال بسخاء في سبيل تعزيز القوى البرية والبحرية، فضلاً عن تبذير السلطان ووفرة الاعتمادات لاخماد ثورة اليونان، كل ذلك افضى الى افلاس الخزينة منذ سنة ١٨٦٥، وادى الى عجزها عن ايفاء فوائد القروض الاجنبية.

وكان لا بد لعالي باشا، الذي خلف وقتئذ رشدي باشا في الصدارة، ان يلجأ لقروض جديدة؛ غير ان الثورات التي نشبت في تلك الاثناء في البوسنه والهرسك والصرب والجبل الاسود وكريت، استنفدت ايضاً القروض المعقودة، وادت الى اعلان تركيا افلاسها[1]، كما افضت بالتالي الى خلع السلطان عبد العزيز.

ولما استوى السلطان عبد الحميد على العرش (١٨٧٦ — ١٩٠٩) كانت السلطنة تواجه اشد الازمات: استنفدت الحروب والفتن المفتعلة اموالها والقروض التي استلفتها، بينما كانت المذابح المنكرة في البوسنه والهرسك تتوالى، ويدور القتال في البلغار، وبينما كانت الدول، التي احجمت عن عقد قروض جديدة لها، اتفقت جميعها، ما عدا انكلترا، على توجيه التهديد اليها والوعيد اذا لم تسارع الى اجراء الاصلاحات في البلقان تحت اشراف هيئة محلية.

وكانت روسيا قد اعتزمت اشهار الحرب على السلطنة بغية تعديل معاهدة باريس التي عقدت بعد حرب القرم، وحباً بالتوسع في البلقـــان، فرأت في هذه الفوضى التي كانت تحيق بتركيا افضل فرصة لتحقيق الاماني. وبعد ان اتفقت مع النمسا على اعطائها الهرسك والبوسنه لقاء اطلاق يدها في الشؤون التركية، ودفعت الصرب والجبل الاسود لاعلان الحرب على تركيا سنة ١٨٧٦، تحفزت بطرسبرج للوثوب على الاستانة. وكانت لندن حريصة على «الستاتيكو»، اي بقاء ما كان على ما كان. فدعت لمؤتمر دولي يعقد في الاستانة قصد تلافي اخطار الحرب، وحمل تركيا على اجابة طلب الدول بصدد اجراء الاصلاحات المطلوبة في الهرسك والبوسنة والبلقـــان. ولكن

---

1 - A. du Valey. Essai sur l'histoire financière de la Turquie. P. 173 - 3.0

موقف تركيا في هذا المؤتمر حمل سفراء الدول على الانسحاب غاضبين[١]، واعلنت روسيا بالتالي الحرب على تركيا سنة ١٨٧٧ وهزمتها شر هزيمة. على ان الدول لم تتدخل، من بعد، الا حينما وشكت روسيا ان تبسط سلطانها على تخوم عاصمة آل عثمان، وذلك بمقتضى معاهدة «ايا ستفانوس» التي فرضتها على الباب العالي بعد هذه الهزيمة؛ فعقدوا مؤتمر برلين الذي اعطى النمسا حق احتلال الهرسك والبوسنه، ومنح بلغاريا الاستقلال تحت سيادة تركيا، وجعل ولاية الروم أيلي الشرقية يحكمها وال يختار بالاتفاق مع الدول، تساعده لجنة دولية، هذا فضلاً عن ان مؤتمر برلين وضع الأسس التى استند اليها الاكريديون والارمن في ثوراتهم العتيدة، كما وسع تخوم روسيا على حساب الدولة المغلوبة. على ان هذه الهزيمة التي منيت بها تركيا جرّت وراءها مشاكل، ولا سيما في الناحية المالية، خصوصاً لان تركيا اصبحت مديونة لروسيا بثلاثمائة مليون روبل غرامة حربية. فكان ذلك مما حمل الدول على البحث في مؤتمر برلين بشؤون السلطنة المالية، وعلى تدخلهم فعلا في هذه الشؤون حتى افضى الامر لتأليف ادارة الديون العمومية (٢٨ محرم ١٢٩٩هـ = ٢٠ تشرين الاول ١٨٨١ م) التي اشتركت في عضويتها بعض الدول الدائنة.

وقد اطمأن الرأسماليون الاوروبيون، بسبب ذلك، الى مصير تركيا واموالهم فيها، فنهدوا الى طلب الامتيازات، ولا سيما في ناحية الخطوط الحديدية، واقامة المرافيء. وكان الباب العالي قد شاهد اثناء حرب روسيا الاخيرة ما تؤديه هذه الخطوط من الفوائد في تسهيل الحركات العسكرية، فما تردد في منح الامتيازات هذه، حتى ولو اقتضى الامر قبوله التعهد بالضمانات الكيلومترية. فشهدت السلطنة في عهد عبد الحميد نشاطاً كبيراً في هذه الناحية العمرانية. ذلك انه فضلا عن امتداد الخطوط الكثيرة في ولاياتها الاوروبية والاسيوية، اقيمت المرافيء المتعددة؛ وانشيء الخط الحجازي الذي لم تكن للاجنبي فيه صلات مالية.

وكان عبد الحميد يعتزم المضي في الاصلاحات الضرورية، ولكن الفتن الداخلية، التي اخذت بعضها برقاب البعض، كانت تستنفد اموال الخزنة، وتصرفه عن مشاريعه الاصلاحية. وكان مصدر هذه الفتن، التي ترمي الى التحرر من ربقة تركيا، ايدياً اجنبية تتستر وراء طلب الاصلاحات، وهي، في الواقع، انما تريد انقاذ الاقليات من الحكم التركي: فثورات اكريد وثورات ارمينيا كانت تعاصر ثورات اخرى في البلقان ومكدونيا والبانيا، فتصرف السلطان عن امانيه الاصلاحية، وتثير بالتالي الشكاوى ضده. كما ان افلاس الخزنة بسبب هذه الفتن حمل النقمة على السلطان الى صفوف جيشه المحروم فانقلب عليه وازاحه بالتالي عن عرشه.

١ — يأتي في الصفحة ١٦٣ توضيح هذا الحادث

الاصلاح الدستوري

كان آل عثمان ورعيتهم قبل عهد السلطان محمود الثاني يتشاءم اكثرهم من التجدد معتبرين ان التشبه بالافرنج انما هومن قبيل الحياد عن الشرع . ولكنهم ما ان اضطروا لاقتباس اساليب اوروبا وفنونها في الشؤون العسكرية والادارية حتى باتوا يعتقدون ان لا سبيل لمجاراة الامم الحية في نهضتها الا باتباع خطواتها في التجدد والاصلاح .

ورغم الهالة التدسية التي كانت تحيط بالخلفاء فقد اخترقتها افكار بعض العثمانيين الى الاعتقاد بوجوب قيام الحكم الدستوري . وكان اول مناد بالدستور هو مصطفى فاضل باشا وحزبه . كان مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم باشا المصري قد غادر الاستانة غاضباً على اثر اقالته من نظارة المالية ، ونزل باريس (١٢٨٢=١٨٦٦). ثم ازداد غضباً حينما استطاع الخديو اسماعيل باشا نيل موافقة السلطان عبد العزيز في صدد حصر ارث الاريكة الخديوية بذريته ، ونظراً لسخاء مصطفى فاضل باشا ووفرة امواله التحق به كثيرون من ادباء الترك ، والفواحز باثرهم يطالب بالحكم الشوري ، واصدر لهذه الغاية جريدتي « **حريت** » و « **مخبر** » ومجلة « **مجموعة علوم** » .

وكان مدحت باشا قد ترعم ، في داخل السلطنة ، حزباً اصلاحياً اخر كانت فاتحة اعماله خلع السلطان عبد العزيز (١٢٩٣هـ=١٨٧٦م) ومبايعة مراد الخامس . ولما فاوض هذا الحزب السلطان عبد الحميد بشأن مبايعته مكان اخيه مراد ، اشترطوا عليه ما يلي :

١ — اعلان القانون الاساسي (الدستور)

٢ — استشارة الوزراء المسؤولين ، دون سواهم ، في امور الدولة .

٣ — تعيين بعض افراد حزبهم في « المابين »

ولكن السلطان عبد الحميد ما ان تسنم العرش حتى كبر عليه تدخل مدحت باشا وحزبه ، واصرارهم عليه في صدد تنفيذ وعوده ، فعزل مدحت باشا من منصب الصدارة ، وشتت اعوانه . غير ان السلطان لم يلبث ان رأى نفسه مضطراً لاعلان الدستور وذلك لان روسيا كانت قد دعت الدول لاجباره على اجراء الاصلاحات المطلوبة في مكدونيا ، والا فهي ستتخذ التدابير اللازمة منفردة . وقد جرى افتتاح المجلس العمومي المؤلف من مجلسي الاعيان والمبعوثان في ١٢٩٣هـ=١٨٧٧م ، وذلك يوم افتتاح مؤتمر السفراء في استامبول الذي اقترحته روسيا . ولما تساءل السفراء في جلستهم الاولى عن سبب قصف المدافع نهض صفوت باشا وقال لهم : « **ايها السادة ان اصوات المدافع التي تسمعونها هي من اجل الاحتفال باعلان القانون الاساسي ، وهو**

سيمنح جميع عناصر السلطنة الحقوق المنشودة بحيث لم يبق موجب لاعمال المؤتمر . » ولكن روسيا حملت المؤتمرين على الاقتناع بوجوب متابعة اعمالهم ؛ ولما ابى الباب العالي خرجوا غاضبين واشهرت بطرسبرج الحرب على تركيا.

ولما رأى السلطان ان هذه الحيلة : حيلة اعلان الدستور لم تحل دون الحرب وان اعضاء المجلس النيابي كانوا غير اكفاء حتى لقب مجلسهم بمجلس « **اوت افندم** » لموافقتهم على اقتراحات الرئيس دون مناقشة[1] بادر الى حل البرلمان ، وانصرف لمواجهة الحرب الناشبة.

غير ان ما اصاب جيشه من الفشل منذ المعارك الاولى جعله يتحول مرة اخرى الى مصانعة كل من الدول والاحرار من رعيته : فاستقدم مدحت باشا من اوروبا ، وأمر بانتخاب مجلس اخر نيابي . وجرى افتتاح المجلس في ١٢٩٤ — ١٨٧٧ . ثم ندم السلطان على ما فعل حينما ايقن ان اوروبا لم تحد عن سبيلها في صدد اجلاء السلطنة عن البلقان ، وتقليم اظافرها في البلاد الاخرى ، ولا سيما تلك التي تطالب باستقلالها ؛ فاصدر ارادته السنية بعد شهرين تقريباً من افتتاح المجلس الثاني بوقفه ايضاً ، وشرع يطارد المتمردين من اعضائه ، ونفى مدحت باشا والداماد محموداً الى الطائف حيث قتلا خنقاً فيها سنة ١٨٨٣ .

وكان احرار الترك قد اقترحوا على زملائهم الارمن ، اواخر القرن التاسع عشر ، تعديل مطالبهم للعمل يداً واحدة في سبيل الدستور ؛ ثم لم يتم بين الفريقين الاتفاق لان الارمن كانوا طلاب استقلال بينما كان الترك يحرصون على دولتهم . ولما وقعت المذابح الارمنية الفظيعة سنة ١٨٩٤ وتلتها حوادث دموية اخرى في كردستان ومكدونيا تدخلت اوروبا ، وكادت ، لولا معارضة المانيا ، ان تجزىء فعلا تركيا وتتقاسمها . وحينئذ اشفق احرار الترك على بلادهم ، وانشأوا في العاصمة جمعية سرية اسموها « **جمعية الاتحاد والترقي** » هدفها اعادة الحكم الشوري . وبعثوا بنفر منهم الى باريس لانشاء فرع فيها اقاموا على رئاسته احمد رضا بك . وهم يتوهمون ان الحكم الدستوري كفيل بتسكين الفتن العنصرية ، وكف المطامع الاجنبية .

وقد اصدر هذا الفرع جريدة بالتركية باسم « **مشورت** » وملحقاً لها بالافرنسية كان الاستاذ خليل غانم اللبناني من رؤساء تحريره . ولما ضيقت عليها حكومة فرنسا مرضاة للباب العالي نقل احمد رضا بك جريدة مشورت الى سويسرا حيث كانت تصدر جريدة اخرى بالتركية اسمها الميزان اصدرها مراد بك الداغستاني احد زعماء الاتحاديين الذي رئس فرع جمعياتهم في جنيف .

---

١ — روحي الخالدي . مجلة الهلال . السنة ١٧ الصفحة ١٣٩

وكان السلطان لا يفتأ يطارد هذه الجمعية في العاصمة ، ويعمل على استرضاء افرادها المنتشرين في مصر واوروبا،حتى اذا أوتي لجلالته النصر في حرب اليونان (١٨٩٧) ، واستعاد بذلك بعض هيبة الدولة ، انصرف لقتل الحركة الدستورية جهاراً. وقد ساعده على ذلك نقص التنظيم الذي بدا عند الاحرار في المملكة وخارجها ، واختلاف زعمائهم على الرئاسات .

ولما فر محمود باشا صهر السلطان الى باريس (١٣١٧هـ=١٨٩٩م)، وشرع يسعى لجمع شتات الاحرار العثمانيين الذين تفرقوا في اوروبا ، خف السلطان لاسترضائه واعادته الى وطنه . فلم يستطع الى ذلك سبيلا . ولكن الاجل ادرك «**الداماد**» بعد اربعة اعوام فقضى نحبه تاركا لابنيه استكمال المهام .

وكان احدهما البرنس صباح الدين يتمتع بالكفاءة للمضي في هذا السبيل ، فاستطاع ان يجمع حوله ، في عاصمة فرنسا ،نفراً غير قليل من احرار العثمانيين،وقد اخذ واياهم يشددون المطالبة بالاصلاحات . وكانوا يستمدون المساعدة من الدول الاجنبية[1] . غيران احمدرضا بك وانصاره من جمعية الاتحاد والترقي لم يوافقوا على طريقة اللامركزية التي كان يطالب بها حزب البرنس صباح الدين فانشطر لذلك احرار الترك في اوروبا شطرين :حزب البرنس صباح الدين،وحزب الاتحاد والترقي[2]

. . . . .

قلنا ان السلطان عبد الحميد اتيح له ان يستأصل الجمعيات المطالبة بالدستور التي كانت في عاصمة السلطنة . ولكن الاحداث المتوالية في مكدونيا منذ مطلع القرن العشرين عملت ، بطريقة غير مباشرة ، على خلق حركة تركية تحررية هناك افضت الى التكتل والعمل حتى بلغت امنيتها في نشر الدستور . ويرجع الفضل في نجاح هذه الحركة الى الاسباب التالية :

اولاً — لان احرار الترك اتخذوا لهم قدوة الجمعيات المكدونية ،فضلاً عن الجمعيات الارمنية التي كانت تجدّ في تنفيذ خططها بكل انتظام .وكان قد ادى اجتهاد الارمن ، في آخر الامر ، الى السعي للاتفاق مع« تركيا الفتاة»على عقد موتمر فينا سنة ١٨٩٦ . وقد اشترك فيه عدا الترك

---

١ — مجلة الهلال السنة ١٧ صفحة ٢١—٢٦

2 - V. Bérard. La mort de Stamboul P.272

والارمن عناصر اخرى من العثمانيين من عرب ويونان ومقدونيين وغيرهم. وقرر المؤتمر: (١) قلب الحكومة الحاضرة (٢) اقامة حكومة دستورية لجميع العناصر العثمانية (٣) الاستعانة بالوسائل الفعالة لتحقيق هذه الاماني. وكان هذا الاتفاق باعثاً على نشاط جديد في العمل للدستور، كما كان ممهداً السبيل للعمل يداً واحدة مع الارمن منذ مطلع القرن العشرين لاسقاط السلطان عبدالحميد.

ثانياً — لان مبادرة اوروبا للتدخل عند اشتداد الازمات المكدونية كان يدفع الاحرار العثمانيين للاسراع في العمل، فأحيوا جمعية «الاتحاد والترقي» تداركاً للخطر، بعد أن كان السلطان قد اخمد جذوتها.

ثالثاً — لان مبادرة العثمانيين للعمل جهاراً في سبيل الدستور اثناء اتفاق اوروبا على منح مكدونيا الاستقلال ألقى الرعب في نفس السلطان فتحول عن المقاومة.

هذا وقد اختار احرار الترك سلانيك مركزاً لجمعية الاتحاد والترقي لان هذه المدينة كانت بمثابة قاعدة مكدونيا التحررية، وفيها عدا الجوالي الاجنبية الكثيرة عدد من المحافل الماسونية كانت عوناً لهم على تشكيلاتهم، وعلى كتمان مساعيهم.

وقد هال المابين أمر نجاح هذه الجمعية في سلانيك وانتشار فروعها في المدن المجاورة، فأوفد اليهم كثيراً من رجالات الادارة والضباط، وترك لهؤلاء حرية النقل والنفي والسجن. ولكن هذه التدابير لم تزد الاحرار الا حرصاً على المطالبة بالحياة الدستورية، خصوصاً منذ اتصل بهم ان ادوار الرابع ملك بريطانيا العظمى اتفق في مدينة ريفال (١٩٠٨) مع نقولا الثاني قيصر روسيا على تعديل موقف انكلترا في السياسة المتبعة حيال الباب العالي تعديلا هو ليس في صالح السلطنة، ووافقت عليه النمسا والمانيا. هذا الى ان الجيش العثماني كان قد تولاه اليأس ايضاً، ولا سيما من جراء تأخير مرتباته، فاستطاع رجال هذه الجمعية ان يستوثقوا من الفيلقين الثاني والثالث المعسكرين في كل من سلانيك ومناستير واسكوب وادرنه وازمير. ومنذ ذلك تقرر لهم النجاح. ذلك ان نيازي بك الالباني ارتأى التمشي على خطة المكدونيين المناضلين في تأليف العصابات، والاتفاق معهم على توحيد الصفوف في سبيل ادراك الدستور. وقد ألف مع صلاح الدين بك (قائمقام اركان حرب) فصيلة من العساكر الوطنية لجأ بها الى ناحية رسنة على مقربة من مناستير، واعلنا الثورة. واقتدى بهما انور بك وغيره من الضباط، وعمدوا الى قتل الجواسيس، والقادة، وكبار الموظفين الذين كان السلطان يعهد اليهم باخماد الثورة. وقد فت في عضد

السلطان والباب العالي حينما بلغهما انضمام عسكر الانطول الى الثائرين منذ وصولهم الى سلانيك ، وتأييد الارنؤوط للثورة ، واعلانهم في « اسكوب » القانون الاساسي . ثم لما علم السلطان ان مدينة سلانيك اعلنت في يومي ٢٣ و ٢٤ تموز ١٩٠٨ الدستور اجابة لطلب جمعية الاتحاد والترقي وذلك بمظاهرة صاخبة ، وان البرقيات الموجهة للصدارة من اجناد سلانيك ومناستير واسكوب وسرس لا تزال تلح في المطالبة باعلان الدستور ، وتهدد بالزحف على العاصمة ، لم ير جلالته بدا من الاذعان ، خصوصاً وانه كان قليل الاطمئنان لعسكر العاصمة ؛ بينما كان الجو السياسي الدولي ينذر بخطر من جراء المؤامرات التي تبيتها الدول الاجنبية ضد السلطنة ؛ فأصدر السلطان « ارادته » باعادة الدستور يوم ٢٤ تموز ١٩٠٨ .

الجزء الخامس

العهد الحميدي
(١٨٧٦ — ١٩٠٩ م)

توطئة

اتيح لنا ، في ضحى شبابنا ، ان نعاصر اواخر عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، وان نسبّح مع المسبحين بحمده . ولا بدع فالعساكر ، والطلبة في المدارس العسكرية والرسمية ، وموسيقى الحكومة كانت تستهل نهارها برفع اصواتها قائلة « **بادشاهم جوق يشا** » . والخطباء والمؤلفون كانوا لا يختتمون حديثاً ، ولا ينهون مقالا الا بالدعاء لجلالته ، بينما كانت الصحف السيارة تستهل رسالاتها ومقالاتها بالثناء والتمجيد ؛ وكان الشعراء والغاوون يرددون قول احدهم وامثاله في مدح السلطان :

« **أنامنا في مهاد الامن قاطبة وراح يكلؤنا في عين يقظان** »

والى كل ذلك كانت طائفة « **الدعوجيه** » المنتشرة في امصار الدولة ، اولئك الذين كان جلالته يجري عليهم المرتبات « **للدعاء** » له ، يبخرّون المجالس والمحافل في تعداد فضائله ومزاياه ، وفي سرد الامثلة عن عدله وانصافه وجوده ورأفته . فكانت هذه التسابيح بحمد السلطان تؤثر علينا صغاراً فنسبّح مع المسبحين مؤمنين غير منافقين .

ثم اتيح لنا ، بعيد ذلك ، ان نشهد الانقلاب العثماني الذي اطاح بجلالته عن العرش ، فاذا بنا ، بين ليلة وضحاها ، نسمع الخطب والقصائد والاناشيد ، ونقرأ الصحف والمقالات والمؤلفات ، وهي جميعها تحمل الحملات الشعواء على السلطان « **المخلوع** » وتلصق به كل فرية ، وتنسب اليه كل نقيصة شأن مصر اخيراً حيال فاروقها ؛ واذا بنا نرى « **دعوه جيه** » الامس الذين كانوا في بحبوحة من عطايا

السلطان يشاركون الرأي العام في افراحه ، ويساهمون معه في العقيدة الشائعة القائلة: إن الله اراد الخير والبركة لدولة آل عثمان حينما سهل الاسباب للجيش، ومكنه من رقبة هذا الخائن الاناني السفاك.

اما الان ونحن نغمس القلم لتدوين نصيب العهد الحميدي في انحطاط الامبراطورية العثمانية ، وقسطه في زوالها . فماذا عسانا نقول ؟

أنكرر ما قلناه في كتابنا « **اوليات سلاطين تركيا** » الصادر سنة ١٩٣١ في وصف السلطان عبد الحميد المشار اليه ، وهو : « **كان سياسياً حاذقاً ذكياً داهية ؛ ولكنه كان مستبداً صرف مواهبه عن الاصلاح الداخلي الذي يؤدي الى تعزيز قوى الدولة ويؤيد نفوذها ، الى محاربة خصومه الداخليين واعداء المملكة الخارجيين مستعيناً بسياسته «فرق تسد». وهي سياسة انما كانت من قبيل ، الترقيع ، خسرت بها السلطنة بلاداً واموالاً دون جدوى**[1] » .

ام نترك الكلام لرجل الاسلام جمال الدين الافغاني ، ونصغي اليه وهو يقول :

« **ان السلطان عبد الحميد لو وزن مع اربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة . فلا عجب اذا رأيناه يذلل ما يتام لملكه من الصعاب من دول الغرب . انه يعلم دقائق الامور السياسية ومرامي الدول الغربية . وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلماً . واعظم ما ادهشني ما اعده من خفي المسائل وامضى العوامل كي لا تتفق اوروبا على خطير في الممالك العثمانية . كان يريها عياناً محسوساً ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن الا بخراب الممالك الاوروبية باسرها . وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة بحرب كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه، وتفريق ما جمعوه**[2] »

فهذا القول لفيلسوف الاسلام وذاك الذي قلناه نحن كلاهما صحيح ، ومن الواجب ان نضيف اليهما ان السلطان عبد الحميد لم يكن مصدر هلاك السلطنة ، كما يزعمون ، بل ان السياسة الخارجية التي اختارها هي التي مدت في عمرها نحو جيل ، وان السياسة الداخلية التي مارسها كان مساقاً اليها بعوامل خارجية وداخلية كثيرة ، وكان بعضها لا يخلو من حكمة وبصيرة . ذلك ان السلطان عبد الحميد لم يرتفع الى عرش اجداده الا بعد ان تزعزعت اركانه ، واشرف ، اسوة بالسلطنة ، على الانهيار وذلك لاسباب كثيرة نخص منها بالذكر الامور التالية التي نوردها اثر تبيان الظروف التي كونت سياسة هذا العاهل .

---

١ — المؤلف. اوليات سلاطين تركيا. ص ٥٢

٢ — المخزومي .خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٦٤و٦٥

١

الاسباب التي كونت سياسة عبد الحميد

الخطر الاوروبي

منذ اواسط القرن التاسع عشر شرعت روسيا تفكر في استئصال السلطنة من الاراضي الاوروبية، والعمل على تجزئة امصارها فيما بينها وبين انكلترا والنمسا . ولما زار قيصرها نقولا الاول بعض العواصم الاوروبية بذل جهده في اقناع الدول ، ولا سيما انكلتره المعارضة ، لاتمام هذا التقسيم وكان يقول : « **يوجد بين وزرائي رأيان بشأن تركيا : فبعضهم يصرح بانها بلغت حالة الاحتضار ، وبعضهم يعلن انها لاقيت حتفها ؛ وعلى كل فلا شيء يحول دون مماتها العاجل** » .

وبعد تسع سنين من رحلته هذه اكتسب القيصر فرصة الاحتفال بعيد الدوكة هيلانة للانفراد بالسير هملتن سيمور سفير انكلترا في بطرسبرج ، وقال له : « **على سواعدنا رجل مريض ، ومريض جداً . واني اود ان اصارحك القول : اذا اتيح لهذا المريض ان يتخلص منا في يوم من الايام فسيكون من اسباب البلاء على اوروبا ؛ ولا سيما اذا حصلت هذه المفاجأة دون ان نتأهب**[١] » .

ولكن مصلحة انكلترا لم تكن تتفق مع مطامع روسيا ، بل تعارضت حتى انها كانت تلجأ الى قواها احيانا من اجل دفع هذه المطامع ، كما حدث في حرب القرم (١٧٥٣—١٨٥٤) حيث اشتركت مع فرنسا في هذه الحرب الى جانب تركيا ضد روسيا ، وكما وقع في الحرب الروسية ـ العثمانية في مطلع العهد الحميدي حينما تجاوز الجيش الروسي نهر الطونة (دانوب) ، ووصل الى اياستفانوس ، فاجبرت روسيا الباب العالي على عقد المعاهدة المشؤومة المعروفة بهذا الاسم . فسرعان ما خف الاسطول الانكليزي لانقاذ السلطنة ، بينما بادر ساسة انكلترا لانقاذها ايضا من تلك المعاهدة ، وتم لهم ذلك اذ استبدلوها بمعاهدة برلين التي اقتصرت على تقليص ظل الدولة عن اوروبا وبعض

1 — R. Pinon. L'Europe et l'empire Ottomane. P. 10

التخوم الاسيوية . على ان جزيرة قبرص التي تخلت عنها تركيا لبريطانيا العظمى وقتئذ اعتبرت مكافأة لها على ما ابدته من المساعدة ، ولتكون لها من بعد نقطة حربية للدفاع عن بقية الامصار العثمانية .

غير ان بريطانيا التي كانت ترى من صالحها الابقاء على الامبراطورية العثمانية ، فتقف في وجه الدول الطامعة بها وبعاصمتها ، لم تكن ، في الواقع ، مخلصة لها ؛ بل ما ان كانت ترى الخطر قد زال عنها حتى تخف الى الاشتراك في المؤامرات الاوروبية التي تحاك ضدها قصد تحرير الامصار والعناصر المسيحية من حكمها ؛ ولا تتورع عن المساهمة في توجيه الانذارات اليها . هذا فضلا عن ان لندن اخذت تقف موقف الخصومة في وجه استامبول من جراء منحها المانيا امتياز الخط الحديدي الذي يصل الاستانة ببغداد ، وينتهي بخليج فارس . ذلك لان بريطانيا العظمى ، التي كان مدار سياستها المحافظة على طرق الهند ، اعتبرت هذا الامتياز تحديا لها من حيث انه يوصل نفوذ عدوتها المانيا الى مقربة من البحر الهندي .

كان السلطان عبد الحميد لذلك يشعر بأنه يواجه خطراً اوروبياً عاماً . ويتساءل عن السبيل الى مداركة الامر ودفع الخطر ، ولا خيل عنده ولا مال . فما وسعه الا الالتجاء الى السياسة ، ولا سيما سياسة « **فرق تسد** » قصد مجابهة هذه الاخطار المداهمة .

*

تدخل الدول في شؤون السلطنة

اصبح تدخل الدول الاوروبية في أمور السلطنة منذ مؤتمر باريس (١٨٥٦) طبيعياً كأنه حق مشروع ، وذلك بفضل ما قدمته كل من انكلترا وفرنسا وسردينيا لتركيا من المشاركة والمساعدة في حرب القرم ، واستناداً الى معاونتها تركيا حين وضع شروط الصلح .

ثم ازداد حق الدول متانة في التدخل بشؤون السلطنة ، حينما انقذتها من حملة محمد علي باشا عزيز مصر باستثناء فرنسا التي دفعت محمد علي باشا لاقتحام تركيا ، ومدت اليه مساعدة ديبلوماسية في الاوساط السياسية . وكان نصيبها الفشل .

وبلغ هذا التدخل الى حد ان الدول الاوروبية اخذت تعقد المؤتمرات والاجتماعات لايجاد حلول لمشاكل تركيا دون ان تكون هذه مشتركة فيها ، وتطالبها ، من ثم ، بتنفيذ مقرراتها : وكان آخرها اجتماع ريفال (١١ حزيران ١٩٠٨) الذي اقنع فيه قيصر روسيا نقولا الثاني ملك انكلترا ادوار الرابع بضرورة تعديل موقف لندن من تركيا في قضية مكدونيا ، واقرّته على ذلك كل من فينا وبرلين .

هذا وكانت تركيا قد اصبحت مدينة لاوروبا بالمال منذ حرب القرم، واصبح حال خزنتها يزداد سوءاً على سوء سنة بعد سنة، وصارت يدها بالتالي ممدودة للاستقراض. فكان ذلك مما اغرى اوروبا بها حتى الاستخفاف، كما كان يحمل تركيا على التسامح حيال تدخلهم بشؤونها الخاصة، ولا سيما فيما يتعلق بالاقليات من رعاياها. والى هذا كانت اوروبا كلما استبطأت «**الاصلاحات**» التي تتطلبها توجه الى الباب العالي الانذارات والتهديدات كأنها قيّمة عليها بصورة رسمية. وان تلك اللائحة المعروفة بلائحة اندراسي التي وضعها الكنت اندراسي الوزير النمسوي سنة ١٨٧٦ وذلك بالاتفاق مع البرنس غورشاكوف وزير روسيا، والبرنس دي بسمرك الالماني وصادقت عليها فرنسا وايطاليا ان تلك اللائحة كانت بمثابة انذار لتركيا اذا لم تبادر لتنفيذ الاصلاحات ولا سيما في الهرسك والبوسنة. ولولا ان انكلترا رفضت التوقيع على هذا الانذار ووجهت اسطولها الى الدردنيل استعداداً للطوارىء لكان مصير تركيا معلقاً على مشيئة هذه الدول المتحدة.

*

تبدل عواطف العرب والترك

وتسرب الوعي القومي الى العناصر التي تتألف منها السلطنة، فوجدت اوروبا في ذلك امنيتها لاجلاء التركي المسلم الغريب عن الامصار الاوروبية، وتحرير العناصر المسيحية منه: فعطفت جميعها على المطالبين من رعايا السلطنة بالاستقلال، وكانت، وعلى رأسهم روسيا وفرنسا، ما ان ترى خموداً في مساعي هؤلاء الرعايا الاستقلالية حتى تزيدها ضراماً. فحفل عهد السلطان عبد الحميد بالفتن والثورات في اكريد وارمينيا ومكدونيا والبانيا.

*

الوعي القومي عند العناصر

وكان الوعي القومي لا يزال يستفحل في العالم المتمدن حتى غمر العرب المثقفين ايضاً بينما كان احرار الترك المطالبون بالحكم الدستوري قد اصبحوا يعتقدون ان لا عاصم لدولتهم من الدمار الا باعلان هذا الدستور، وصاروا حريصين على تهديم عبد الحميد الى حد انهم لم يتورعوا عن مد ايديهم الى الدول العدوة، والى الرعايا المناضلة ضد دولتهم كالارمن، مع علمهم بان هؤلاء انما كانوا عمالاً للخصوم.

فراغ الخزنة

وكانت خزنة السلطنـــة قد اعلنت الافلاس في عهد السلطان عبد العزيز رغم ان الاموال التي استلفتها في مدة عشرين سنة اي حتى عام ١٢٩١هـ — ١٨٧٥م بلغت ثلاثة مليارات وثلاثة عشر مليون فرنك ذهبي .

ومن جراء ذلك اصبح من العسير عندما تبوأ السلطان عبد الحميد العرش عقد قروض جديدة؛ لان الماليين الاوروبيين صاروا اذا اقدموا على شراء اسهم تلك القروض يعتبرون انفسهم كأنهم يبتاعون اسهم «اليانصيب» . وما كان يغريهم بشراء تلك الاسهم الا الفوائد الباهظة .

ومع ذلك فان القروض التي استطاع عبدالحميد ان يدركها ذهبت فريسة الحروب والفتن : فقد اشهرت عليه روسيا الحرب في مطلع حكمه ، ثم ما زالت تعمل على اثارة الحروب بينه وبين جيرانه ، وتجهد في سبيل خروج رعاياه عليه . ولا سيما في شرق اوروبا .

وان هذه الحروب والفتن التي توالت خلال حكم عبد الحميد ابتلعت اموال الخزنة ، كما التهمت القروض ؛ ثم لم تترك مالاً ولا وقتاً للقيام بالاصلاح والعمران .

. . . . .

وكان من الطبيعي ان يتأثر السلطان عبد الحميد بما احاق به من احوال وظروف ، تأثراً كانت من عواقبه تلك السياسة التي لجأ اليها في الشؤون الداخلية والخارجية ، والتي كانت موضع النقد .

وانا سنلم بهذه السياسة في الفصول التالية تباعاً ، ثم نعلق عليها وعلى مغباتها الوخيمة ..

٣

سياسة عبد الحميد الداخلية

نقل السلطة العليا الى المابين

حاول السلطان عبد الحميد، مذ ارتاح باله من مدحت باشا واعوانه، ان ينقل تدريجياً السلطة الفعلية من الصدارة العظمى ومجلس الوزراء الى المابين. وقد بيّنا في الفصل الرابع من الجزء الاول من هذا الكتاب ما هو المابين وكيف كانت تقسيماته ودوائره.

ونصب السلطان جواد باشا صدراً اعظم، وكان ياوراً لجلالته، فانتقلت، منذ ذلك الحين، السلطة الفعلية الى حوزة رجال المابين، واصبح الحل والعقد ومنح الامتيازات للسكك الحديدية والمرافيء والمعادن وغيرها من اختصاص سراي يلديز دون الباب العالي، خصوصاً اثر انتصار الدولة على اليونان، ذلك الانتصار الذي قوّى معنويات عبد الحميد. اما الوزراء فكان عليهم تنفيذ ما يبرم ويتقرر في السراي الهمايوني.

وكان النفوذ في هذه السراي يتناوب بين الكاتب الاول والكاتب الثاني ومأمور الشفرة تبعاً للثقة التي يمنحها صاحب الجلالة لاحدهم. وكان المشائخ المقربون، الذين ذكرناهم من قبل، وعلى رأسهم الشيخ ابو الهدى الرفاعي ينازعون هؤلاء سلطتهم العليا. فكان الشيخ ابو الهدى يتمتع تارة بالنفوذ، وطوراً عزت باشا العابد الكاتب الثاني، حتى استقرت السلطة اخيراً بين يدي عزت باشا فسطع نجمه على سائر النجوم دون استثناء احد حتى ولا الكاتب الاول الذي كان فوقه في الرتبة. وكان يساهم في النفوذ مع عزت باشا اغوات السراي، وفي طليعتهم غني اغا ولطفي اغا، كما يساهم معه رئيس الجواسيس فهيم باشا الذي القى الرعب في قلوب الرعية، وازعجها.

وكان بعض رجال السراي أميين، وقليل منهم من يحسن اللغات الاجنبية، واقل من هؤلاء الذين يتمتعون بخبرة سياسية، ودون هؤلاء وهؤلاء في العدد المخلصون الذين يعملون للمصلحة العامة. لذلك ساءت حالة السلطنة العامة، ولا سيما في الناحية المالية، واختلت ادارتها العسكرية. كما كان

الجاسوسية كانت قد ارهقت الرعية فكمت الافواه و كسرت الاقلام ، وجعلت الناشئة تتربى على الخوف والتملق والمداراة .

على ان هذه المرحلة التي اجتازتها الامة العثمانية في عصر النور كانت ، ولا شك ، شاذة فلم يقدر لها البقاء . وقد ظلت تثير عواطف الغاضبين عليها وتكتلهم حتى اذا بلغت الجيش قلبها ظهراً على عقب ، وقلب معها صولجان السلطان فتدحرج ، وتدحرج بعده كل تاج لآل عثمان .

✲

النضال بين السلطان والدستوريين

ارتقى عبد الحميد الى العرش عقب حادثين ارتكبهما حزب تركيا الفتاة الذي كان يتزعمه مدحت باشا ، وذهب ضحيتهما كل من عمه السلطان عبد العزيز واخيه السلطان مراد . فتركا في نفس السلطان الخوف من هذا الحزب ، وربما تركا في قرارة نفسه ايضاً الحقد على هؤلاء المتجاسرين على سلفيه المالكين ، والرغبة في الثأر منهم . ومما كان يحبب اليه الخلاص من هذا الحزب اعتقاده بوجود ايد روسية وانكليزية كانت تتعارك من وراء ستار في قضية خلع السلطان عبد العزيز وقتله .

لذلك فان السلطان ما ان استوى على العرش واستقر به المقام حتى نكل بالعهود التي قطعها قبل توليه الحكم ، لحزب مدحت باشا . فاستهل ذلك بتنحية مدحت باشا من الصدارة ونفيه ، وبأبعاد انصاره ، وانتهى بذلك النضال الذي احتدم بين السلطان وبين احرار العثمانيين الذي بسطناه في الجزء الماضي ، واختتم بخلع عبد الحميد ومبايعة اخيه محمد الخامس (١٩٠٩ — ١٩١٨)

✲

سياسة التفرقة بين العناصر

قضي على السلطنة العثمانية ان تعيش مفككة الاوصال ، متنافرة العناصر والطوائف مذ عمدت كل واحدة من الدول الاجنبية الى توجيه هذه العناصر والطوائف توجيهاً يفضي الى التنابذ بين بعضها البعض ، وذلك بغية وصول تلك الدول الى نيل نصيبها على وجه أتم من تركة «**الرجل المريض**» .

وكان من الطبيعي ان يزداد التنافر حدة ، ولا سيما بين المسلم والمسيحي ، مذ اضطر السلطان عبد الحميد لممارسة سياسة الجامعة الاسلامية والاتحاد الاسلامي ؛ وهو يتوخى ان يجد بذلك بعض الحلول ، بواسطة التفاف عواطف المسلمين ، حيث كانوا ، حول الخليفة ، لدفع مؤامرات اوروبا

التي ما زالت تحاك ضد السلطنة . اجل ان هذه السياسة جعلت بقية الطوائف تعتبر السلطان كعاهل للمسلمين اكثر منه ملكاً للعثمانيين .

وقد مضى السلطان في تطبيق سياسة التفريق الداخلية بين العناصر المسيحية والاسلامية وبين الطوائف المسيحية بعضها ضد البعض الاخر بشتى الوسائل؛ ومنها فصل الكنيسة البلغارية عن البطريركية الارثوذكسية ، بينما كانت اوروبا المسيحية تعمل جاهدة ، ولا سيما روسيا والنمسا وفرنسا ،على جمع شتات هذه العناصر والطوائف في كل قطر من الاقطار ، وتوحيد كلمتها ضد السلطنة .

ولما شرع العرب العثمانيون يتحسسون بالحس القومي منذ القرن التاسع عشر ، وكانت الارساليات والمدارس والقنصليات الاجنبية تنفخ في رماد هذا الوعي القومي ، خاف السلطان مغبة تعاون المسلمين في البلاد العربية مع اخوانهم المسيحيين الذين، كان يعتبرهم الباب العالي سواعد الاجانب ، فلجأ الى القاء الشقاق بين ابناء الملتين ، والى تحذير المسلمين من خطر (اعداء الدين)في الداخل والخارج.

ولما كانت بلاد الشام في الداخل والساحل تجمع بين النصراني والمسلم ،وكانت هذه البلاد قد شقت ، قبل غيرها ، طريقها الى التمدن ، واصبحت قدوة لسواها في العالم العربي ، عني السلطان بتطبيق سياسة التفريق في ربوعها بين الطوائف والملل قبل اي قطر آخر ، كما عني باحكام التباعد بين طوائف المسلمين انفسهم اسوة بما كان يسعى حيال الطوائف المسيحية . وقد اتيت في الفصل الثالث من الجزء الاول من هذا الكتاب على مثال شاهدته بنفسي من امثلة تعمد اولياء الامر شيوع وقتئذ المذابح بين النصارى والمسلمين في بيروت منذ مطلع القرن العشرين ، وكيف كافأوا الوالي رشيد بك، بطل تلك المذابح ، بنقله الى منصب هو اعلى مرتبة من الولاية ، بينما اجمع قناصل الدول على الشكوى منه .

على ان الخلاف وقتئذ بين المسلمين والنصارى الذي انقلب الى مذابح كان قد تعدى المدينة الى جبل لبنان ، واستشرى بين النصارى والدروز . ولا زلت اذكر تلك الفتنة التي وقعت بينهما في قرية بتاتر في الشوف عام ١٩٠٥ . وان حدوثها في نفس اليوم الذي وقعت فيه مذبحة المزرعة في بيروت جاء برهاناً على ان الفتنة في الولاية بالساحل وفي المتصرفية بالجبل كانت من عمل يد واحدة خفية .

والى هذا ، فان سياسة التفريق بين المواطنين كانت تطبق على وجه اكمل في ميدان التربية والتعليم : فبينما كانت المدارس الاجنبية المنتشرة في تركيا ، تغتنم فرصة استثنائها من رقابة

الدولة ، فتجد في القاء الرعب من المسلمين في افئدة طلابها النصارى قصد تنفيرهم من الامبراطورية العثمانية واكتساب قلوبهم ، مستعينة على ذلك ببعض التآليف التي لم تتورع عن الطعن جهاراً بالاسلام ، والتشهير برسوله ؛ اجل ، بينما كانت المدارس الاجنبية تقوم بهذا الدور كانت المدارس الرسمية لا تقتصر بدورها على رسم صور قبيحة للاجانب ولأخطارهم فحسب ، بل تتعدى ذلك الى بث روح البغضاء بين الملل المواطنة ، وبين الطوائف من كل ملة .

واما في البلاد التي لم يكن فيها غير المسلمين كجزيرة العرب مثلاً فان السلطان كان يغري ابن الرشيد بابن سعود ، ويجند اشراف مكة ضد امام اليمن ، ويلقي الخصومة بين الامام اليمني وبين اسياد عسير . هذا فضلا عن القائه العداوة والبغضاء بين الاكراد والارمن ، وبين السوريين والشراكسة في بلاد الشام .

ان هذه السياسة سياسة « **فرق تسد** » التي حرص عليها السلطان عبد الحميد ابان ما كانت الدول الاجنبية الطامعة تطبقها ايضاً في بعض امصار السلطنة جعل كلمة « **امة** » لا تنطبق على الشعب العثماني نظراً لاختلاف اماني طوائفه وامالهم ، ونظراً لاختلاف تربياتهم ووجهاتهم الثقافية .

لقد كان هذا الشعب كأنه مجموعة اعداء يتربص بعضهم الدوائر بالبعض الاخر حتى اذا فكت عقل الالسنة في العهد الحميدي باعلان الدستور خلافا لارادة السلطان انكشفت السرائر وظهرت البواطن : وظهر من ثم تفسخ فظيع بين الصفوف كان ينذر بانه من المستحيل بقاء هذه الكتل المتنافرة المتخالفة تحت سماء وطن واحد .

وحينئذ ذكرنا عبد الحميد ، وقدرنا سبب موقفه ضد الدستور ، وانتحلنا له العذر في هذا الموقف على اعتبار انه كان يعلم ان خراب السلطنة كان رهين اطلاق حرية هذه العناصر ، ولا سيما العدوة منها لسلطنته .

*

الخلافة والاتحاد الاسلامي

تبوأ السلطان عبد الحميد العرش (١٨٧٦) ابان ما كانت السلطنة تعاني اشد الازمات :

فقد استنفدت الحروب والفتن ، اموال الخزنة ، كما استنفدت اموال القروض ، ولا سيما مذ اصبحت مشفوعة بتبذير عمه السلطان عبد العزيز ، في حين ان اوروبا ، التي كانت تلح على تركيا من اجل تحقيق

ما وعدت به من الاصلاحات المكدونية وتهددها اذا احجمت ، كانت تعمل ، في الخفاء ، على اثارة العناصر هناك وفي كل مكان ، فلا تترك للدولة مالاً ولا وقتاً لتحقيق هذه الاصلاحات .

وقد حاول السلطان عبد الحميد ان يتمشى على غرار اسلافه حين ولي العرش ، فأعرب عن رغبته في اجراء اصلاح عام اثناء ما كان مؤتمر سفراء الدول يفتتح جلساته في الاستانة بغية تقرير اصلاح خاص في شرقي اوروبا ، وذلك بمفاجأتهم باعلان الدستور ؛ غير انه لم يلبث ان وجد ان الدستور ، بما فيه من مساواة بين العناصر والملل وحرية وعدل ، لم يكف شر روسيا ، بل حملها على اعلان الحرب عليه ، وحمل سواها من الدول على مشـــاركة بطرسبرج في فكرة ترويض السلطنة وتذليلها .

ثم رأى السلطان عبد الحميد ، بعد خسران هذه الحرب ، ان الدول الاوروبية ، بما فيها انكلترا التي كانت تقف بوجه العاملين على تقسيم السلطنة ، اتفقت على اجلائه عن اوروبا الشرقية بغية اعادة ممالكها القديمة ، فسلخت منها كثيراً من الامصار ؛ ولولا مركز العاصمة الاستراتيجي العالمي لما ترددت عن انتزاعها منها ايضاً .

واخيراً رأى بعين بصيرته الواعية سوء مصير السلطنة ، ولا سيما اذا ظلت تعتمد على التوازن السياسي الدولي فحسب ، فاستقر في ذهنه ان لا منجاة للدولة الا بحيازة القوة .

ولكن انّى له احراز القوة هذه ولا مال بين يديه ، ولا رجال ، وهو على رأس شعب ثلاثة ارباعه اعداء له ، او خصوم للدولة ؟

وحينئذ التفت يمنة ويسرى فلم يجد حوله الا عواطف المسلمين في اقطار العالم ، وانظارهم الشاخصة الى دولة الخلافة . فجنح الى الاستفادة من الخلافة في شأن تعزيز السلطنة بقوة جديدة ، ودفع المؤامرات التي تبيّتها اوروبا ضدها . خصوصاً وانه تذكر امثلة من نفوذ الخلافة على الهنود ، وكان آخرها في عهد والده حينما لجأت اليه انكلترا لتهدئة ثورتهم الموجهة ضدها .

وكان العرب لا يزالون في نظر المسلمين يتمتعون بقدسية ترجع الى الماضي والحاضر : أليس هم الذين حملوا راية الاسلام وراء محمد . ثم هم ، بعد ذلك لا يزالون اصحاب القرآن : أُنزل بلسانهم ، ولا يفتأ يرتل في العالم بلغتهم ؟

هذا وكان العرب لا يزالون بعيدين عن النزعات الاستقلالية التي سرت بين العناصر العثمانية الاخرى ؛ وبعيدين ايضاً حتى عن مطاليب « تركيا الفتاة » التي لا تزال ترعج جلالته .

فقر رأي السلطان عبد الحميد على ان يستعين بالمسلمين وذلك بالدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وان

يقوي عصبيته بالعرب ، نواة المسلمين ، بتقريبهم اليه ، والاعتماد عليهم . وهو يؤمل ان يستطيع بذلك هز عصا الخلافة عند الحاجة ، وان يستحوذ على قوة لا يحتاج بعدها لهز العصا .

وقد استهل هذا المشروع بالاعتماد على خير الدين باشا ، التونسي في نشأته والجركسي في اصله ، وهو مؤلف كتاب « **اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك** » ، وبالاعتماد على جمال الدين الافغاني المسلم العامل ، ولا ادري اذا كان قد دعاهما الى الاستانة قصد تنفيذ هذا المشروع ، او ان يكون المشروع من وحي احدهما بعد نزوله في العاصمة . ولكن الذي اعلمه انه نصب خير الدين باشا رئيساً لشورى الدولة ، ثم صدراً اعظم (١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨م) ، ولم يبق في هذا المنصب الا ثمانية اشهر .

هذا وقد قرب السلطان اليه فريقاً من علماء الامصار العربية المختلفة وشيوخ الطرق ، كالشيخ ابي الهدى الرفاعي من خان شيخون في جوار حلب ، والشيخ محمد ظافر من الجزائر ، والشيخ سعيد من حمص ، والشيخ احمد اسعد التيصرلي من المدينة ؛ كما اصطفى لجواره بعض اشراف مكة وعلى رأسهم السادة : الحسين وعلي حيدر وعبد الاله باشا وصادق باشا ، فضلا عن السيد فضل باشا من اشراف مليبار . واجرى على هؤلاء العلماء والاشراف المرتبات وخصهم بالعنايات ، كما اجرى المرتبات واجزل العطايا لغيرهم من المتخلفين في بلادهم المعروفين بنفوذهم .

على ان السلطان تجاوز هذا النطاق ايضاً في الاعتماد على ابناء العرب اذ عهد اليهم ببعض الوظائف والمناصب الرئيسية في الدولة دون تفريق بين الملل . نذكر منهم احمد عزة باشا العابد الذي شغل منصب الكاتب الثاني في المابين على حين ان نفوذه كان يجعله الاول في السلطنة ، وشفيق بك المؤيد المفوض في الديون العمومية ، وشفيق بك الكوراني رئيس الضابطة ، وعرب حقي باشا ، وسليم بك ونجيب بك ملحمه ، وقد بلغا رتبة الوزارة ، وكلهم من سوريا ولبنان ؛ كما نذكر طالب بك النقيب واحمد باشا الزهير من اعضاء مجلس « شورى الدولة » وهما من العراق . هذا الى ان ثقة جلالته بالعرب بلغت حداً بعيداً ، حتى رفع بعض ضباطهم الى درجات عليا في العسكرية ، واتخذ منهم خاصة له . فكان من ياورانه الفريقان محمد باشا ومحي الدين باشا ولدا الامير عبد القادر الجزائري ، وفؤاد باشا المصري . كما كان من اركان اساتذة المدارس العسكرية والحكومية المشير اركان حرب شفيق باشا واخوه الفريق وهيب باشا ، وهما من قرية المتين في لبنان ، وشكري باشا الايوبي الدمشقي ناظر الاعمال العسكرية ، والميرالآي الدكتور يوسف الرامي من قرية فالوغا في لبنان . وكان استاذاً لعلم التشريح ، والدكتور الياس مطر من بيروت ،

والاستاذ سليم باز من دير القمر بلبنان وكان استاذاً في مدرسة الحقوق .

هذا فضلا عن ان جلالته اتخذ من ابناء العروبة حرساً خاصاً به انزله حول قصره وألبسه العمائم الخضراء . ثم لم يقف ، في صدد توثيق صلات العرب به ، عند هذا الحد ، بل عمد الى مصاهرتهم ، فزوّج اميرتين من اسرته من شابين عربيين ورفعهما الى رتبة داماد ، وهما الامير عبد المجيد بن الشريف علي حيدر ، وصالح بك بن خير الدين باشا التونسي . على ان جلالته لم يهمل ، مع ذلك ، العناصر الاسلامية الاخرى ؛ فلفّ حوله طائفة من الكرد والارنؤوط كدرويش باشا الالباني ، احد الياوران ، واسماعيل باشا الكردي ، فضلا عن بعض الجراكسة . والى ذلك فقد عني بتربية الناشئة بين العشائر تربية اسلامية : فأنشأ « مدرسة العشائر » لتربية ابنائها ، ولا سيما ابناء زعمائهم تربية مدارها توثيق العلاقات بينهم وبين دار الخلافة . كما فتح ابواب معاهد الاستانة امام جميع الطلبة ؛ وجعل هذه المعاهد تقر في نفوس هؤلاء الطلبة ، الى أي عنصر انتسبوا ، انهم عثمانيون .

وكم استحسن السلطان فكرة عزة باشا العابد ورحب بها في صدد مد خط حديدي باموال المسلمين يصل بين سوريا والحجاز ؟

كانت فكرة تنطبق على برنامج جلالته اذ انها فضلا عن تسهيل الحج الى بيت الله الحرام تجعل نفوذه الفعلي يمتد الى الحرمين الشريفين ، بالاضافة الى كسب عواطف المسلمين في العالم قاطبة . وكان سروره اشد حينما حقق هذا المشروع مستعيناً ببعض الفنيين ، ولا سيما من الالمان .

وفي الجملة فقد نجح السلطان عبد الحميد في تحقيق الجامعة الاسلامية قدر المستطاع ، واستثمر هذه السياسة مدة طويلة ، فصانت سلطنته ، في مناسبات عدة ، من الاخطار ؛ كما انها استأخرت زوالها سنين عدة . اما عصا الخلافة في تلك الحقبة التي كان يلوح بها ، فكانت العلم النبوي الشريف . ولطالما كنا نسمع اثناء وجودنا في المدارس ان السلطان سينشر العلم النبوي في اليوم العصيب فيزحف المسلمون وراءه من كل صوب .

ومن هذا القبيل حادثة وقعت لفؤاد باشا ابان وجوده في بيروت مندوباً عن السلطنة وذلك بمناسبة فتنة سنة ١٨٦٠ قبل السلطان عبد الحميد : كانت بيروت تعج بعد هذه الفتنة بسفراء الدول الذين انتدبوا للتحقيق في المذابح التي وقعت بلبنان وتعدته الى دمشق ، وكان هؤلاء السفراء يتبادلون الدعوات والحفلات فيما بينهم وبين مندوبي الحكومة ، فتحفل هذه الاجتماعات بالتعليقات على الشؤون السياسية ؛ وتتخللها الداعبات . دخل المدعوون ذات يوم الى مائدة اقيمت على ظهر سفينة امير البحر النمسوي : وكان فؤاد باشا وبعض اركان الحكومة في مقدمتهم ، فاذا بهم يشاهدون اعلام الدول مرفوعة على المائدة فوق رؤوس حيوانات من المعجنات ، وكل

واحد منها يعلو رأس الحيوان الذي اتخذته الدولة رمزاً لها . فكان علم فرنسا يخفق على رأس الديك ، وعلم روسيا على هامة الدب ، وراية انكلترا على الاسد وهلجرا. واما لواء تركيا فكان مرفوعاً على هامة خنزير . وشاء احد السفراء ان يتحدى فؤاد باشا على سبيل المباسطة فاشار الى الخنزير متسائلاً عن العلم الذي يرتفع فوقه ، فابتسم الباشا وقال له : « **هذا علم تركيا المظفر يخفق فوق ارضكم الخبيثة** » . واثناء ضحك السامعين تناول الحديث سفير اخر ، وقال بين الجاد والمازح : « **لا تزالون يا صاحب الدولة تذكرون النصر والانتصار ، واذا ارجعنا مصدر ذلك الى اعتدادكم بشجاعة جيشكم ، فاين لكم تأمين المال وهو عصب الحرب ؟** »

وحينئذ استقام فؤاد باشا : وتحول الى المتحدث وقال بلهجة الجد : « **حسبك فقد احوجتني حتى لم يبق بوسعي كتم السر . انتم تعلمون كم مضى على المسلمين وهم يقصدون الى بيت الله الحرام ، وكم من ملايين الناس قد ادت فريضة الحج في هذه الحقبة الطويلة . اما الذي لا تعلمونه ، وقد حملتوني على افشاء سره ، فهو ان لبيت مال المسلمين ، الذي تسمعون به ، فريضة على هؤلاء الحجاج يؤديها كل منهم على قدر طاقته ، ولا بأس ان يكون اداء تلك الفريضة بتقديم الجواهر والاحجار الكريمة .**

وبعد فكم تبلغ ثروة بيت مال المسلمين هذه التي لا تحسبون لها اي حساب ؟ انها كلها رهن اوامر الخليفة يوم يضطر لاخراج العلم النبوي ودعوة المسلمين للجهاد . فنحن اذن يا سادة اغنياء بالرجال وبالمال ايضاً »

وهذه الحادثة التي رواها لي في عهد الصبا احد الشيوخ ، تدل ، سواء أكانت صحيحة ام موضوعة ، على ان السلطنة العثمانية كانت ، حتى قبيل عهد السلطان عبد الحميد المشار اليه ، تستفيد من الخلافة عفواً ، او تجرب ان تستفيد منها . ولكن هذا العاهل الذكي السلطان عبد الحميد اختط طريقة عملية للجامعة الاسلامية ، وذللها لسياسة الدولة حيال الاجانب واستثمرها احسن استثمار .

غير انه من الواجب الاعتراف بان هذه السياسة وان حققت لواضعها جملة من المنافع الا انها جرت وراءها كثيراً من الاخطار الداخلية والخارجية : فالاتراك على وجه عام نقموا على السلطان من جراء تقريب ابناء العروبة دونهم ، وانكر عليه شبابهم المثقف هذه السياسة الاسلامية لانها لا تتفق مع روح العصر ، ولا تتلاءم مع التعاليم التي اقتبسوها عن اوروبا . فاجمعوا امرهم بينهم على ازاحته عن عرشه حتى يتسنى لهم تطبيق الدستور القائم على مبادىء الثورة الافرنسية .

كما ان اوروبا ، وخصوصاً انكلترا وفرنسا الدولتين اللتين كانتا تحكمان اكبر عدد من المسلمين ، شعرت بحراجة الموقف ازاء التفاف العالم الاسلامي حول الخليفة ، وحسبت له الف حساب ، ولاسيما حينما ايدته المانيا العدوة اللدودة لهذه الدول ، واتخذت لنفسها صفة المحامي عن هذه السياسة الحميدية ، حتى ان امبراطورها غليوم الثاني ما تورع عن التصريح بأنه سيف الاسلام .

كل ذلك جعل مصلحة هذه الدول تتضافر مع جهود الشباب التركي لدك معاقل السلطان التي اقامها في وجوههم ، وظلوا يتعاونون حتى ازاحوه عن عرشه دون سفك دماء ولا عناء[1] .

---

١ — المؤلف . قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور . الجزء الثاني . الصفحات ١٦ — ١٧ — ٨١ .

٣

سياسة عبد الحميد الخارجية

بسطنا في صدر هذا الجزء، عند الكلام على الخطر الاوروبي، ولاسيما حينما شعر به السلطان عبد الحميد، كيف اضاعت انكلترا في عهده ثقة الباب العالي، من جراء اشتراكها مع الدول الاخرى في تحرير بعض العناصر العثمانية، ومواظبتها على الضغط عليه من اجل اجراء الاصلاحات. وما كانت هذه الاصلاحات الا عبارة عن تحسين احوال الاقليات.

وكانت المانيا، التي انتصرت على فرنسا قبل نحو ربع قرن، وتناولت منها مبلغاً كبيراً كغرامة حربية، قد اخذت تنتفض وتتطلع الى التوسع في المساحة والتجارة، خصوصاً وان نجاحها في النواحي الصناعية اصبح يتطلب اسواقاً عالمية. فما وجدت برلين امامها غير تركيا، التي كانت تمتد من البحر الاسود الى الابيض الى الاحمر الى المحيط الهندي، فخفت تتحبب اليها، وتتظاهر بمساعدتها.

وكان السلطان قد ايقن ان لا غناء له عن دولة تناصره ازاء اتحاد اوروبا عليه، وتآمرها لانتزاع بلاده والامصار التي تحت نفوذه واحدة بعد واحدة.

فقد احتلت فرنسا تونس، وانكلترا مصر، وهمت ايطاليا بطرابلس الغرب، بالاضافة الى ضياع السلطنة سيادتها التي كانت لها على الصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الاسود، ومعظم اجزاء مكدونيا.

وماذا يمنع من ان تكون المانيا: الدولة الفتية التي تتحبب اليه، هي القوة التي ينشدها والسند الذي يتحرى عنه؟

ماذا يمنع من اصطفاء هذه الامبراطورية الجديدة، التي ما ان اتيح لها ان تنتصر، ذلك النصر المبين، على فرنسا اكبر دولة عسكرية في ذلك الوقت، حتى اخترقت انظارها الفضاء الواسع متجهة نحو الهند والصين؟

لا شيء، خصوصاً وان المانيا، التي لم تشترك مع سائر الدول في توجيه الانذارات اليه

بشأن الاقليات ، لا ترى بأساً في استمراره على ممارسة سياسة العنف حيال الثوار من هذه الاقليات . وخصوصاً لان بريطانيا العظمى ، التي كانت تظاهر السلطنة في الامس وتحف لنجدتها ، والتي اهداها جزيرة قبرص كيما تجعلها مركزاً حربياً لحماية السلطنة ، ان بريطانيا هذه اخذت تتصحب للارمن ، ولسائر طلاب الاستقلال في اكريد والروملي ، وتفتح صدرها للخوارج العثمانيين من كل العناصر ، وتنزلهم في عاصمتها ؛ ولاسيما اثناء وزارة مستر غلادستون . وهل ينسى السلطان والعثمانيون ذلك الموقف الخطير الذي وقفته المانيا الى جانبهم في سنتي ١٨٩٤ و١٨٩٥ ؟

وكيف ينسون ذلك وكانت دول اوروبا وعلى رأسها انكلترا ، اتفقت على تقسيم بلادهم انتقاماً للارمن من جراء المذابح التي وقعت في ذلك الحين ؟ وكادت هذه الدول تفعل لولا ان خفت المانيا لمعارضتهم وصمدت في وجوههم .

فاذا بالامبراطور غليوم الثاني يظهر رغبته في زيارة السلطان وزيارة بلاد الشام ابان امتنان السلطنة من موقف دولته هذا ؛ واذا بالسلطان ودولته والشعب باسره يستعدون لاستقبال هذا الضيف الكبير وزوجته استعداداً عظيماً . وبينما كانت تقام المهرجانات والزينات والحفلات في انحاء السلطنة سنة ١٨٩٨ بمناسبة هذه الزيارة الملكية ، ولا سيما في دار الخلافة ، كانت صحف تركيا ، تتبارى بلسان واحد في ميدان توجيه قوارص الكلام لاوروبا من اجل انها ما زالت تمد بالمساعدات كل خارج على السلطان ، او قائم بفتنة .

وكانت هذه الزيارة موفقة جداً ، بالنسبة لالمانيا . وهي فضلا عن كونها وسيلة تعزيز لمركزها الدولي ، كانت اداة دعاية لها ليس في الامصار العثمانية فحسب ، بل في سائر العالم الاسلامي ؛ خصوصاً في النواحي الاقتصادية والاجتماعية . وقد توثقت العلاقات ، من بعد ، بين المانيا وبين العثمانيين والمسلمين عامة ، حتى اصبحت السلع الالمانية تغمر الشرقين الادنى والاوسط.

رأى الناس العاهل الالماني وزوجته يرتدي كل منهما ثوباً بسيطاً من الكتان الاسمر (السكاكي) ، وهو من صنع بلادهما فتهافتوا ، من بعد ، على طلب هذا القماش من المانيا وارتدائه اي تهافت.

ورأى الناس العاهل الالماني يعكف طرفي شاربيه ، ويرفع بهما الى العلى فتتجلى فتوته ، فتسابقوا الى التشبه به ، وشراء الادوات الالمانية التي تؤمن لهم محاكاة الامبراطور وزوجته في زيهما وهندامهما .

واما المكافأة التي نالتها الامبراطورية الالمانية على سياسة الود التي سلكتها حيال تركيا ، فكان اهمها ذلك الامتياز ، الذي حصلت عليه سنة ١٩٠٢ المعروف بخط بغداد . وهو الخط الحديدي الذي يبتديء من حيدر باشا بالاستانة الى بغداد ، ومنها الى خليج فارس . وأنعم بها

من مكافأة لان هذا الخط لم يكن يساعد المانيا على الخروج من قفصها ، وبلوغها المحيط الهندي فحسب ، بل يجعل بترول العراق ، ثم زيوت الجزيرة و كنوزها من نصيبها في مرحلة ثانية .

والى كل ذلك فقد كسبت المانيا بهذه السياسة عطف الجيش العثماني ، لا سيما بعد استخدام فون در غولتز باشا مدرباً له ، فجنت ، من وراء ذلك ، اكبر الارباح والمنافع وذلك ببيع الذخائر الحربية والمعدات الى هذا الجيش ، كما ان برلين ومدارسها العسكرية اصبحت كعبة الضباط العثمانيين يحجّون اليها تباعاً وينشأون فيها نشأة المانية تتسم بحبهم لالمانيا .

ولكن ما الفائدة لآل عثمان من سياسة كان اعتمادها على الاغيار ؟

انها كانت ذات فوائد موقوتة ، شفعتها اضرار افضت الى زحزحة السلطان عن عرشه. ذلك لان اعتماد السلطان على المانيا ، ومنحه اياها امتياز بغداد اثار ثائرة كل من انكلترا وفرنسا ونقمتها عليه ، فضلا عن روسيا ، فجدّت هذه الدول في العمل للنكاية به . فما لبثنا ان رأينا كلا من لندن وباريس تمدان ايديهما الى العناصر العثمانية المطالبة بالاستقلال ، وتمولانها ، كما انهما تنزلان فيهما ، على الرحب والسعة ، زعماء تلك العناصر ، ولا سيما احرار الترك انفسهم اعداء عبد الحميد.

ثم لم تلبث لندن وباريس ان ظاهرتا ، بشتى الطرق ، ثورة الجيش في موناستير ، تأييداً لجمعية الاتحاد والترقي ، فاذا بالسلطان يضطر للخضوع ، واذا به يتدهور عن عرشه .

*

الخلاصة والنتيجة

ان تركيا كانت اشرفت على الاحتضار حينما تسنم عرشها السلطان عبد الحميد ، وربما كان من المستطاع انقاذها ومعالجتها لولا ان الدول الاوروبية ، التي كانت تترقب بفارغ صبر وفاتها ، وتوزيع ارثها فيما بينها ، كانت تنفث سمومها ، وتشدد عليها الخناق.

وقد اشرنا الى ان السياسة التي انتهجها السلطان عبد الحميد كانت وليدة الظروف والاحوال التي كانت تحيق بسلطنته . ونزيد على ذلك ان تلك السياسة ، سواء أكانت في الشؤون الداخلية ام الخارجية ، لم تكن سياسة جهالة وغباوة وعواطف ، كما وصفها الاتحاديون الذين خلفوا عبد الحميد على السلطة ، وانما كانت سياسة عقل ناضج وخبرة كاملة .

على ان الاساليب المعوجّة التي استعملت احياناً في تطبيق هذه السياسة ، وجلبت لها الاضرار ، لم تكن ، في الواقع ، من عمل السلطان وحده ، بل كان رجال المابين يلجأون اليها ؛ اما لمنافع خاصة بهم وبذويهم ، او تحت ضغط الظروف القاهرة ؛ وكثيراً ما كانوا يحاولون كتمانها على السلطان بحجة انهم يحرصون على ان لا يحيطونه علماً الا بما يسر خاطره ، ويستوجب رضاءه عليهم .

حقاً ان سياسة عبد الحميد لم تنج السلطنة من الموت المقدر ، ولكنها اخرت ، ولا ريب ، في اجل الدولة مدة ربع قرن وهي محفوفة بالمهابة والجلال ، كما انها اطالت في ايام سلطانه زمناً كان يتمتع بعز الاباطرة ونفوذ الخلفاء .

على ان الانصاف يقضي علينا بالتصريح ، في نهاية هذا البحث ، بانه رغم المشاغل الكثيرة التي احاقت بالعهد الحميدي والمشاكل ، ورغم عجز الخزنة الى حد الافلاس ، فان هذا العهد قد سجل خطوات طيبات في ميدان الاصلاح العمراني ، خطوات وان لم تكن تستحق التنويه فانها لا تستحق الاهمال : فعدا عمران كثير من المدن في العهد الحميدي مجاراة للرقي العالمي ، فقد انتشرت المدارس الرسمية بعض الانتشار في الحواضر ، وانشئت المرافيء ، ومدّت الخطوط الحديدية حتى بلغ طولها ٧١٧٢ كيلومتراً[١] ، وانتشرت الاسلاك البرقية ؛ هذا فضلا عن تحسين محسوس في « الميزانية » والادارة بالاضافة الى رواج غير قليل في التجارة ، ونشاط جزئي في الصناعة والزراعة .

---

١ — يوجد تفصيل عن هذه الخطوط في كتاب Essai sur l'histoire financière de la Turquie لمؤلفه A. du Velay

الجزء السادس

عهد الاتحاديين

توطئة

كان اعضاء جمعية « **الاتحاد والترقي** » التي قامت بالانقلاب العثماني وخلفت السلطان عبد الحميد في السلطة ، من الشبان المثقفين الذين عرفوا الاغلاط السياسية التي ارتكبها اولياء الامر من قبل ، وفي عهد عبد الحميد ، فأفضت الى انهيار السلطنة . وكانوا ، الى ذلك ، يعتمدون صادقين على انفسهم في تقويم اعوجاجها ؛ ولكنهم كانوا ، في الواقع ، « **نظريين** » تنقصهم الخبرة : فقد ظنوا ان الحكم الدستوري الذي كان هدفهم الاسمى ، بما فيه من مساواة للعناصر العثمانية ، وما فيه من تجدد ديموقراطي سيكسبهم عطف اوروبا الملحاحة في طلب الاصلاح فتكف من بعد عن السلطنة ،وعن دس الدسائس ضدها ، والتآمر عليها . وظنوا ايضاً ان هذا الحكم الذي يمنح العناصر العثمانية ، على السواء ، الحرية والاخاء والمساواة سيوحد صفوفها ، ويجمع بين اهدافها ، ويجعلها كتلة واحدة في وجوه المتآمرين على دولتهم والمتربصين بها الدوائر . ولكن الاتحاديين ما ان مارسوا السلطة ورأسوا جهاز الحكم حتى تبدت لهم خطيئات نظرياتهم ؛ فذكروا ، وذكر الناس معهم ، عبد الحميد بالخير الكثير ذلك العاهل الداهية المحنك الذي اشبعوه بالامس ذماً وتحاملاً .

عهد الاتحاديين الدستوري

ما ان استأثر الاتحاديون بالسلطة حتى تحولوا فجأة عن سياستي عبد الحميد الداخلية والخارجية الى محاولة انشاء امبراطورية مدنية عثمانية شعارها «**الوطن للجميع**». ولكن السلطنة كانت، في الواقع، اشبه شيء بالبركان سرعان ما ارغى وازبد مذ كشف الضغط عن فوهته، واطلقت حريته.

كانت السلطنة تتألف من عناصر مختلفة يكاد عدد غير الاتراك فيها يوازي عدد الاتراك انفسهم. ثم لا تجمع بين هذه العناصر روابط الاماني والآلام، بينما ان ايدي الاجانب لا تفتأ تعمل على تفسيخ بعضها عن البعض الاخر، وتسميم افكارها.

ولما اعلن الدستور شملت خمرة الفرح جميع العثمانيين، على السواء، لان خصوم الدولة من عناصرها كانوا يرون في السلطان عبد الحميد العقبة الكأداء في سبيلهم الى الحرية والاستقلال.

وفي غمرة هذا الاطمئنان حسب الاتحاديون ان الوقت لا يزال مناسباً لجمع كلمة الناشئة العثمانية جميعها وذلك بنشر لغتهم: اللغة التركية، تداركاً لغلطات اسلافهم، ولم يلاحظوا ان سياسة التتريك، التي كان بالامكان القيام بها ابان قوة السلطنة، اصبحت غير مألوفة، ولا ممكنة في عهدهم: عهد الضعف والاضمحلال. وحاولوا فوق ذلك تطهير جهاز الدولة المدني والعسكري من خصومهم السياسيين، وكان جلهم من غير الترك. فاذا بالخلاف يذر قرنه فيما بينهم وبين العناصر الاخرى. وخلال هذا التوتر تساءل العرب، الذين كانوا اخلص العناصر لآل عثمان:

«هل تكون الدولة دستورية، وهي قد سلكت سبيل التتريك، وشرعت باسم التطهير تبعد عن الحكم غير الاتراك. ثم هي قد اعلنت الحكم العرفي في سبيل تأمين اهدافها، وساقت الى المحاكمة الابرياء بتهمة انهم ضد الدستور؟»

ثم انتقل الجدل الذي استفحل امره بين الترك وغيرهم من ميدان الصحافة الى الندوة النيابية؛ فادى ذلك الى ان هذه العناصر، ومنهم العرب شرعت، تؤلف الاندية والجمعيات في العاصمة، وفي حواضر السلطنة، واخذت تتكتل ضد الاتحاديين في حزب اسموه «**الحزب الائتلافي**» غايته اللامركزية.

وانضم اليهم بعض الترك من خصوم الاتحاديين. وكانوا كثيرين وجلهم من انصار الماضي، او من ضباط احيلوا الى التقاعد قبل الاوان، ومن موظفين نحّوا عن وظائفهم، فضلا عن جماعة المستثمرين[١]

---

١ — المؤلف: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور. الجزء الثاني. صفحة ٢٠–٢١

وقد اصبحت الندوة النيابية كأنها ناد رياضي لا ترى العين فيه الا العراك بين اللاعبين ، ولا تسمع الآذان الا صيحات المتبارين والمتنافسين . على ان الجفاء بين الترك وبين العناصر العثمانية الاخرى لم يقتصر وقوعه على ما بين الترك وبين العناصر المسيحية كالبلغار والارمن واليونان فقط؛ بل شمل ايضاً المسلمين؛ فهب الكرد والالبان، فضلا عن العرب، الى المطالبة بحقوقهم المهضومة، والتنادي الى الثورة ضد الاتحاديين .

*

السياسة الطورانية

أجل ان اعلان الدستور كشف القناع عن وجوه عناصر السلطنة ؛ وادى الى بروز مطامعها علانية ، على حين ان الدول الاجنبية التي اشفقت، بادىء ذي بدء ، على مطامعها ان تذهب اذا تعافى الرجل المريض بالانقلاب الجديد، بادرت الى مداركة الامر ، فضمت النمسا اليها الهرسك والبوسنه ، وابتلعت اليونان جزيرة اكريد ، واحتلت ايطاليا طرابلس الغرب . بينما ان البانيا اعلنت استقلالها ، واكتسحت الدول البلغارية الولايات التركية في اوروبا الشرقية . واطلقت يد فرنسا في مراكش بعد رشوة المانيا باعطائها بلاداً اخرى في افريقية.

وحينئذ ، وقد رأى الاتحاديون انفسهم وحيدين في الميدان شرعوا يفكرون في تبديل سياستهم تداركاً للخطر الداهم . أيرجعون الى خطط السلطان المخلوع ويحيون سياسته الاسلامية؟ ام ماذا يفعلون ؟

وبعد درس ومداولات جنحت كثرتهم الى سياسة « **الاتحاد الطوراني** » أي الى الاستعانة بالجامعة التركية بدلاً من الاسلامية ، والى لف الترك حولهم، حيث كانوا. ولم يكن تحقيق هذه السياسة بالامر الهين سواء كان ذلك في الداخل ام الخارج، خصوصاً وان هذه السياسة التي تحدت العناصر العثمانية الاخرى حملتها على الاعتقاد ان القائمين على الحكم يعتبرونها غريبة عنهم على حين ان ترك الممالك الاجنبية هم اقرب اليها منهم. فما وسع الاتحاديين الا استعمال العنف والتشديد في هذا السبيل ، واضطهاد المعارضين: وعدا اعلان الحكم العرفي ، ومراقبة الذين يسمونهم رجعيين، عمدوا الى تعطيل الصحف، وابعاد المشبوهين ، وذلك اسوة بما كان يجري ابان العهد الحميدي السابق .

والواقع ان التبدل قد وقع ؛ ولكن على حال اسوأ : فبينما كان السلطان عبد الحميد يعتمد

على الجامعة الاسلامية التي تعد ٣٥٠ مليون نسمة ونيف، ويؤلف بها قلوب قرابة تسعين في المئة من رعيته ، شرع الاتحاديون يعملون على جمع شمل الاتراك حولهم حيث كانوا في روسيا ويوغوسلافيا والمجر وبلغاريا وغيرها فيثيرون بذلك حفائظ الدول ذات العلاقة ، ويخسرون الرعايا المسلمين غير الاتراك .

هذا الى ان الكوارث الخارجية التي توالت على الدولة في هذه الاثناء ، واهمها احتلال ايطاليا لليبيا ، وثورة البانيا ، وحرب البلقان ، قد فتت في عضد الاتحاديين وساعدت « **الحزب الائتلافي** » على استلام مقاليد الحكم. وقد عهد هذا الحزب الى كامل باشا تأليف الوزارة ، وهو من رجالات السلطان عبد الحميد . غير ان هذا العهد كان قصيراً لان الاتحاديين سرعان ما استردوا الحكم بالقوة ، واسقطوا الحكومة الائتلافية . وما ان استتب لهم الامر حتى استأنفوا سياسة العنف ، فأقصوا الضباط العرب عن البلاد العربية ، وتدخلوا في انتخاب المجلس النيابي سنة ١٩١٣ حتى لم يمكنوا العرب من ارسال اكثر من خمسين نائباً الى المجلس الجديد ، على حين كان عدد نوابهم في المجلس السابق سبعين نائباً . وكان من تأثير هذه السياسة على العرب ان اصبحوا في عداد طلاب الاستقلال التام بعد ان كانوا طلاب اصلاح ولامركزية ضمن نطاق السلطنة[1] .

☆

الرجعة الى سياسة عبد الحميد

ما ان نشبت الحرب العالمية الاولى حتى رأت تركيا نفسها بحاجة قصوى الى استرضاء رعاياها المسلمين من غير الترك ، والعمل على كسب المسلمين في العالم . فانقلب الاتحاديون فجأة من دعاة الاتحاد الطوراني الى دعاة الاتحاد الاسلامي ، وشرعوا يلوحون بالخلافة والجهاد المقدس . وكانت جريدة « **الشرق** » التي تصدر بدمشق ، وهي لسان حالهم في سوريا وسائر البلاد العربية ، تضرب على هذا الوتر ، وتنشر لجمال باشا قائد الجيش الرابع في الشام اقواله التي ينشرها ويصرح بها تباعاً ، وكلها تشير الى ان لا فرق في نظر الاسلام بين تركي و كردي وعربي ، وتلوح باستقلال الشرق[2]

---

١ — المؤلف. قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور . الجزء الثاني صفحة ٢٣

٢ — المؤلف. قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور . الجزء الثاني ص ٢٥

وكان هذا السفاح يحسب حساب السوريين عند مجيئه الى دمشق حتى اني كنت اشعر بذلك نظراً لكثرة الحرس الذين اقامهم حول مقره ، ولوفرة التحفظ حينما يسير موكبه ، او حين يشترك في اجتماع عام . ولكن جمال باشا ما ان ضرب ضربته بعد ذلك ، منذ لاحت لتركيا بوادر النصر الموهوم ، وما ان استأسد فساق الزعماء الى اعواد المشانق ، كما ساق الوجهاء الى المنافي حتى اطمأن واستهتر ، واستغنى عن الحرس ، وصار يتنقل ، في انصاف الليالي وراء شهواته ، ما بين بيروت ودمشق ، وفي ربوع لبنان وذلك دون حامية ، ولا حارس .

*

استئناف السياسة الطورانية

كان النصر في سني الحرب الاولى حليف المانيا وتركيا فأيقن الترك ان النصر النهائي سيكون من نصيبهم فرفعوا فجأة النقاب عن وجوههم . فاذا بذاك الحمل الذي ظهر ، في بداية الحرب ، ناعماً ليناً يصبح ذئباً كاسراً ، واذا بجمال باشا ينقلب على العرب انقلاب غيره من الولاة والقادة على بقية الرعايا في الولايات الاخرى . واذا بالحكومة الاتحادية تستأنف نشاطها في الدعوة الى الاتحاد الطوراني بشكل جدي .

وقد فتحت وزارة الداخلية ومشيخة الاسلام ووزارة الاوقاف خزائنها لمشروع الاتحاد الطوراني . وبلغ من هوسهم به ، على رواية انريكو انسباتو ، ان ادخلوا الى المدارس كتباً في التاريخ كان بطلها جنكيز خان . وتبنت المشروع امهات جرائدهم مثل « اقدام » و « ترجمان حقيقت » و « جون ترك » . وقد ناصر هذا المشروع ايضاً ، فضلا عن الشباب المتحمس ، بعض الزعماء ، فألفوا الجمعيات والاحزاب ، نذكر منها « تورك يوردو » اي المسكن التركي ، و « ترك اوجاغي » اي المأوى التركي . وكانوا يعقدون فيها المؤتمرات والاجتماعات لتأييد هذه الدعوة ، ويلقون المحاضرات ويوجهون النشرات . كما كانوا يرسلون الدعاة الى الترك حيث كانوا . وتشجعهم حليفتهم المانيا على التمادي بذلك ، وتساعدهم في نشر الدعوة بين الاوساط التركية نكاية بخصومها السياسيين ، ولا سيما روسيا .

وظهرت تباشير النجاح ، وخصوصاً في المحاضرات التي نظموها عام ١٩١٦ حيث اظهر التتر الكرج ، والجاكاطاي الجركس كثيراً من الحماس لهذا الاتحاد . ثم لقي هذا المشروع نجاحاً

اوسع اثر الثورة البلشفية التي فتحت صدرها له . فعقد انصاره مؤتمراً في قازان، ثم في موسكو سنة ١٩١٧ شهده ثمانماية عضو كانوا يمثلون العناصر التركية المغولية .

*

نهاية الاتحاديين مشفوعة بانقراض السلطنة

وكان من عاقبة مشروع الاتحاد الطوراني احراج العرب الى حد اخراجهم ضد دولة الخلافة ، فانضموا الى صفوف الحلفاء. على حين ان هذا المشروع لم يأت بفائدة ما لتركيا . بل كانت الكلمة الفاصلة للحرب القائمة حتى اذا خسرتها خسرت كل شيء آخر .

ثم كان من عواقب هذه الحرب ان احتلت بريطانيا العظمى استامبول عاصمة السلطنة ريثما تعقد معاهدة الصلح ، فكان السلطان القائم فيها ، محمد السادس ، (١٩١٨ — ١٩٢٢) عبارة عن صورة ، ليس له من الامر شيء.

وكان الشعب محني الرأس خاشعاً امام القوة والامر الواقع لا يبدي ولا يعيد ، وهو ينتظر قول الحلفاء في مصيره ومصير سلطنته . غير ان هذا الشعب الباسل ما ان رأى اليونان ، وهي بلاد كانت من قبل من رعايا آل عثمان ، تحتل ازمير وقسماً من الاناطول سنة ١٩١٩ حتى ثارت عواطفه ألماً ، وساوره الخوف على المصير ، فانبثق مصطفى كمال باشا من هذا الالم والخوف ، والتفت حوله الجمعية العمومية الوطنية التي قررت تأليف جيش نظامي للجهاد وانقاذ الوطن (١٩٢٠).

غير ان السلطان وحكومته كانوا مقيدين بارادة الانكليز المحتلين اولئك الذين سمحوا لليونان باحتلال ما احتلوه من الاراضي العثمانية ، فما ظاهر جماعة الاستانة مصطفى كمال باشا واعوانه ، بل جربوا ان يقفوا في وجوههم[1] وحملوا النـــاس على السخرية من تشبثاتهم . وكان الاجانب اشد استخفافاً بهـــذه الحركة حتى ان الانكليز رفضوا ان يسمحوا لتوفيق باشا بمقابلة وزير الخارجية في لندن حينما امها باسم الجمعية الوطنية للمفاوضة .

ولكن ما ان تم لعصمت باشا ذلك الانتصار الحاسم على اليونان في موقعه اوين اونو (كانون الثاني ١٩٢١) ، وطاردهم فاجلاهم عن الاراضي التركية عنوة وقسراً حتى انقلبت تلك السخرية الى اعجاب شمل بلاد السلطنة وخارجها . واصبحت الجمعية الوطنية تمثل الشعب التركي المعجب

---

١ — المؤلف. اوليات سلاطين تركيا. ص ٥٤

بها والمتحمس لها .

وكان مصطفى كمال باشا رئيس الجمعية لا يفتأ يتظاهر بانه بعيد عن المطامع الشخصية ، ويصرح بانه سيلجأ بعد انتهاء مهمته الى مزرعة له ، ويتخلى عن كل سلطة . ولكنه في الواقع لم يكتف بالانتقام من السلطان محمد السادس بانزاله عن العرش ومبايعة السلطان عبد المجيد (١٩٢٣ — ١٩٢٤) ، بل خف الى التعريض بالسلاطين جميعاً وبالاشارة الى سيئاتهم . ثم بعد مضي عام انزل السلطان الجديد عن عرشه . فاختار الاقامة في فرنسا ، وكان اخر سلاطين آل عثمان .

وشاء الغازي ان تكون انقره عاصمة للدولة الجديدة ؛ ثم هو لم يقنع بتسميته رئيساً للمجلس لوطني الكبير الذي تم انتخابه هناك . بل شرع يعلن ان الحكومة المنبثقة عن هذا المجلس اغا اتقوم على انقاض سلطنة آل عثمان . ثم لم يلبث ان اعلن صراحة قيام الجمهورية التركية ، ونفى الاسرة آل عثمان وانسباءها واخصاءها الى خارج الدولة الجديدة ، وصادر اموالهم واملاكهم . **« وتلك الايام نداولها بين الناس »** .

انتهى الكتاب

فهرست الكتاب

الجزء الثاني

١ ــ الاغلاط الادارية والسياسية

٢ ــ سياسة السلطنة ازاء الاقليات

٣ ــ المعاهدات والامتيازات

٤ ــ جهاز السلطنة الاداري

٥ ــ اتصال الحروب

الجزء الثالث

القوى الحربية

الجزء الرابع

عقلية الخلف وجمود السلف

●

الجزء الخامس

العهد الحميدي

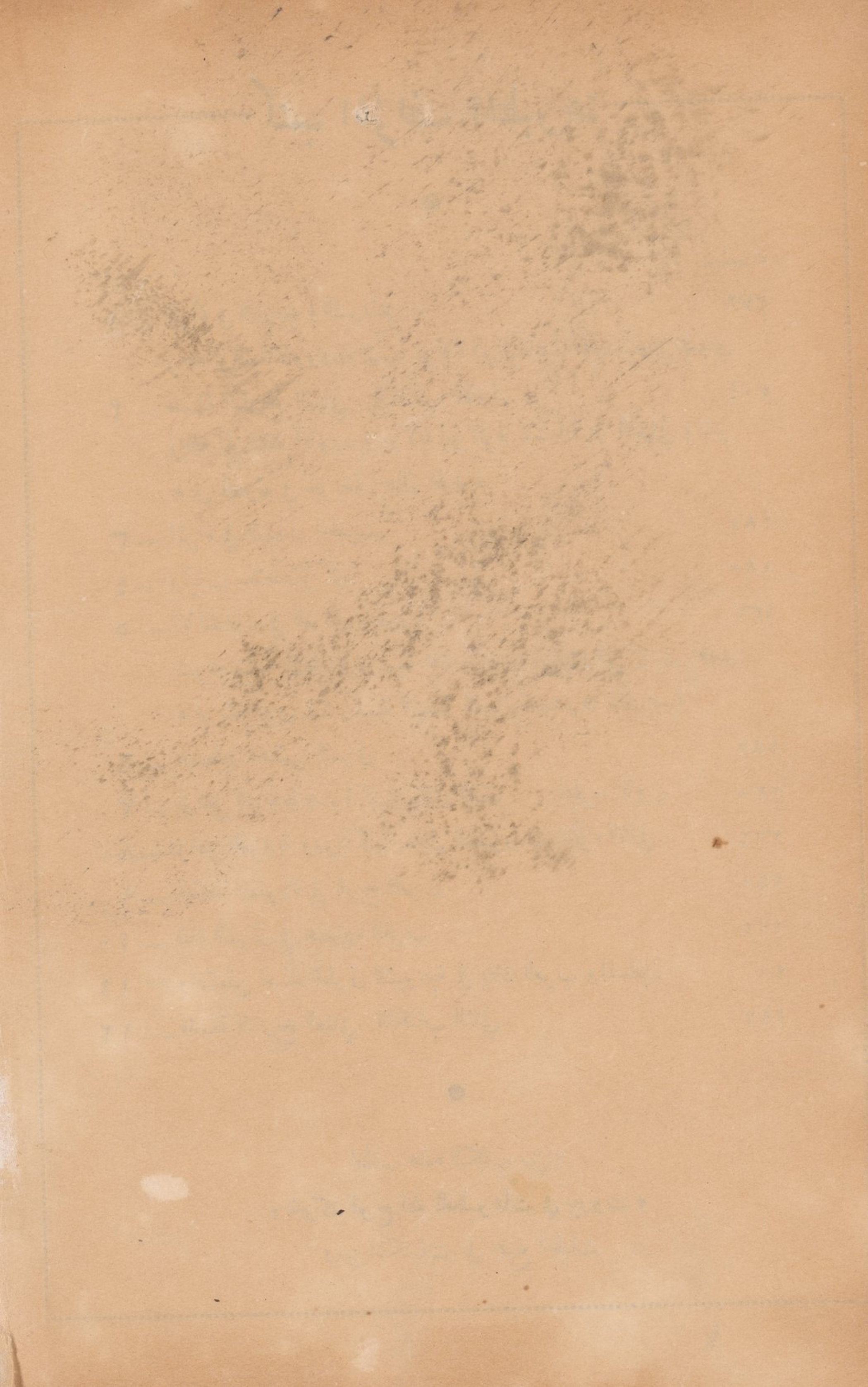
١ ـ الاسباب التي كونت سياسة عبد الحميد

●

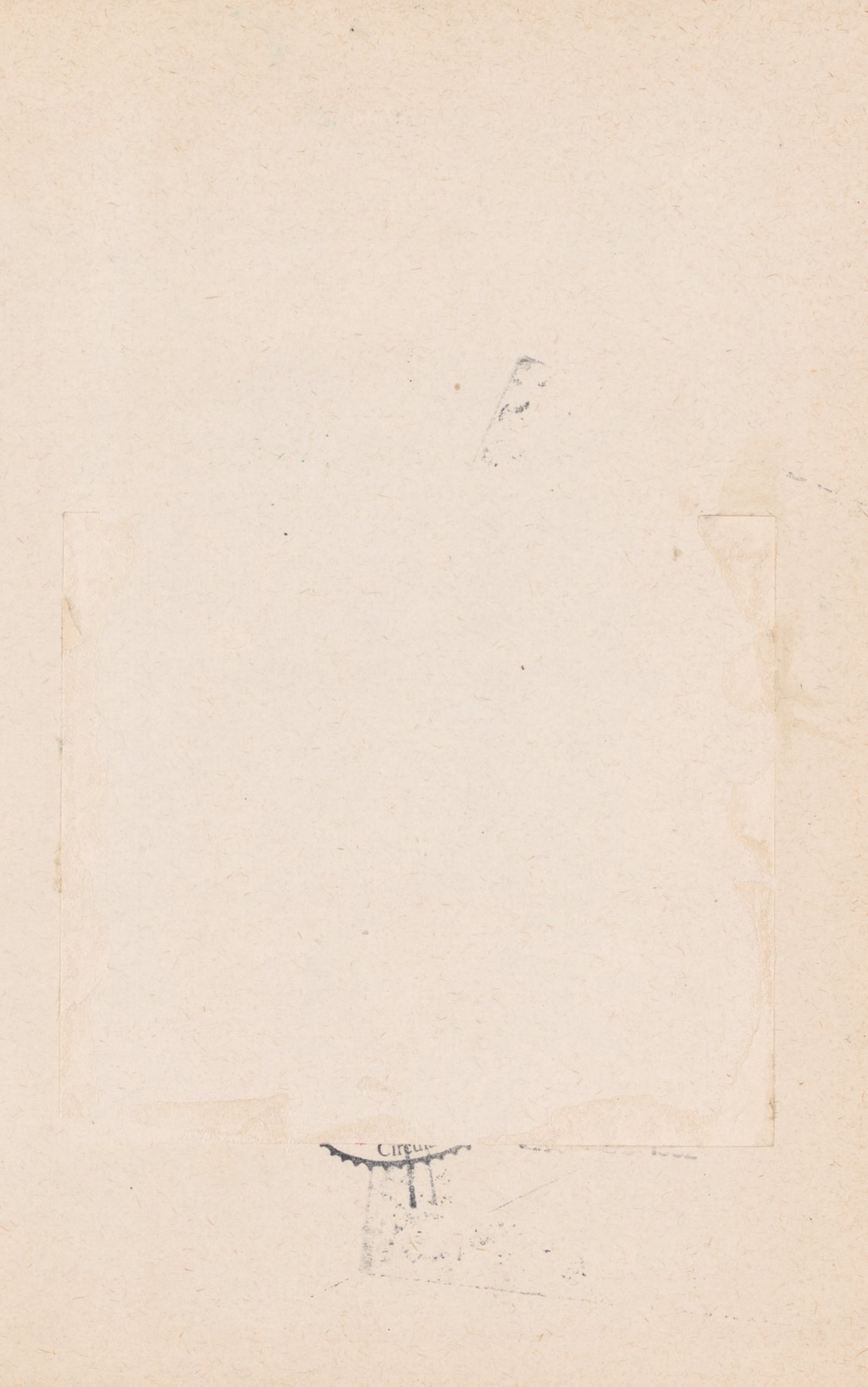
الجزء السادس

عهد الاتحاديين

كتب المؤلف المطبوعة







DATE DUE

